الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قسنطينة 2

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

المؤسسة التنصيرية في الصحراء الجزائرية في نهاية القرن19 م (مزاب والأهقار نموذجا)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب :

الحاج امحمد الحاج ابراهيم

إشراف الأستاذة:

أ . د فاطمة الزهراء قشـــي

أعضاء لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
حميدة عميراوي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر
فاطمة الزهراء قشي	أستاذة التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة قسنطينة -2-
جميلة معاشي	أستاذة محاضرة	عضوا مناقشا	جامعة قسنطينة -2-
كريمة الأخلاق بن حسين	أستاذة محاضرة	عضوا مناقشا	جامعة قسنطينة -2-

السنة الجامعية: 2011 / 2012 م

الإهداء

إلى روح وحيد عصره القطب الحمد بن يوسف الطفيش
رحمه الله برحمته الواسعة
إلى أغلى ما أملك والدي الكريمين
رب ارحمهما كما ربياني صغيرا
إلى كل من علمني حرفا من علم إلى أستاذ
إلى إخوتي وأخواتي الأعزاء وكل عزيز علي يقربني
إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل
وإلى كل من أخلص للعلم والمعرفة جميعا
أهدي لهم هذا العمل.

شكر وتقدير

أخيرا وبعد أن رأى هذا العمل النور لا يسعني
إلا أن أحمد الله على توفيقه لي في إتمام هذا
العمل
وأتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من
ساعدني على أن يكون العمل جاهزا وخاصة
الأستاذة الدكتورة المشرفة على البحث
فاطمة الزهراء قشي
التي تابعت البحث منذ أن كان مجرد
فكرة إلى أن أصبح بحثا وقامت بمراجعته
كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر
والتقدير لكل الذين ساهموا بتوفير كل
الظروف والوسائل لإنجاز البحث.
جازاكم الله عنا خير الجزاء.

قائمة المختصرات:

[د.ت]	دون تاريخ.
[د.م.ط]	دون مكان طبع.
~	حوالي / تقريبا.
تر	ترجمة.
ج	جزء.
ق	قرن.
ور	ورقة
ص	صفحة.
ت	توفي.
تح	تحقيق.
طح	طبعة حجرية.

[s.l.i]	sans lieu d'impression
P	page
Ibid	Au même endroit
Chron-Trim	chronique trimestrielle
[s.d]	sans date
Coll	collection
OP cit	ouvrage précédemment citée
R. A.	Revue Africaine

مقدمة:

لقد شهد الغزو الصليبي عبر القرون أشكالاً وطرقاً عدة، وفي الجزائر واكبت الهجمة الصليبية احتلال الاستعمار الفرنسي لأرض الجزائر سنة 1830م؛ وقد تنوعت الأساليب التي حاول بها "الآباء البيض" محو الهوية المسلمة من المجتمع الجزائري، فتارة يستعينون بالآلة الحربية التدميرية وذلك بهدم المساجد ومنع التلاميذ والطلبة من الالتحاق بالكتاتيب والمدارس التي كانت مصدر التكوين وتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية؛ وتارة بممارسة شتى أنواع الضغوط والقيود على رجال العلم من فقهاء وأئمة ومدرسين وذلك بنفيهم أو قتلهم أو فرض الإقامة الجبرية عليهم، وتارة أخرى بإرسال البعثات العلمية والاستكشافية بمعية الحملات العسكرية إلى الأرياف والصحاري والجبال الجزائرية بغرض الاستطلاع ودراسة ومعاينة ثقافة وتركيبة تلك المجتمعات المحافظة تحضيراً للتوغل نحوها وتفكيكها بأقل الخسائر الممكنة؛ إذ يعتبر المساس بخصائص المجتمع سلاحاً أقوى وأجدى لاقتحامها.

وقد كان من بين المناطق التي استهدفها الاستعمار الفرنسي على غرار باقي الربوع الجزائرية منطقتي مزاب والهقار؛ واللتين انفردتا بتراثٍ إنساني وإرث حضاري ذي طابع خاص ومميزات خاصة ومنها: البيئة الدينية المحافظة، والتركيبة السكانية المنسجمة، والتنظيم الاجتماعي القبلي أو العشائري المتّحد، ثم التشبث باللغة العربية المرتبطة بالعقيدة إلى جانب اللغة المحلية كلغة للتواصل الاجتماعي المحلي...، وقد كان هذا الرصيد حصيلة نشاط إنساني كثيف في تلك الربوع المقفرة ومنذ عهود قديمة؛ كما حافظت المنطقتين طويلاً على سلامة نطاقهما من عوادي الزمن وتقلباته، ولعل من العوادي المتأخرة التي ابتلي بها القطر الجزائري ظاهرة الاستعمار الفرنسي، والذي سعى جاهداً ليلج في أعماق تلك المجتمعات قصد تفكيكها وضرب وحدتها بإحداث الخصومة بين عناصره المكونة له، وهو ما شهدته كثير من مناطق الجزائر الأخرى وأثر سلبا على انسجامها ووحدتها.

وقد كان من بين المؤسسات التي خدمت وساندت الاستعمار الأوروبي الحديث أثناء احتلاله للعالم وبلاد الإسلام خصوصاً "المؤسسات التنصيرية"، هذه الأخيرة التي كانت الدولة العثمانية قد جمّدت عملها لمدة طويلة من الزمن، خاصة في مرحلة قوتها؛ وقد ظلّت تجوب البحار مع الرحلات الاستكشافية وكلها طموح في وحدة دينية نصرانية ترعاها المستعمرات الأوروبية ويباركها الكرسي البابوي بروما الحامية للنَّصارى، وقد قسمت كنسية روما العالم إلى "تيوقراطية"(سلطة دينية)، وترعى هذه المقاطعات أسقفيات ومؤسسات تنصيرية، ومن بين أبرز هذه المؤسسات "مجمع نشر الإيمان" والذي نشأ تحت لوائه "مؤسسة منصِّري إفريقيا"؛ هذه الأخيرة مُنح لها حق العمل التنصيري بالجزائر في منطقة الصحراء والسودان متخذة من مزاب عاصمة لها؛ محاولة جعلها معبراً نحو بلاد الطوارق.

إذا فمزاب والهقار تعتبران منطقتين يقطنهما السكان الأصليون؛ وبحسب المنصِّرين المعتمدين على الدراسات الأولى "لماسكوراي" و"ديفيريي" و"شارمتان" وغيرهم فإنَّ السكان الأصليين كانوا على ديانة المسيحية قبل الإسلام،

وهناك إمكانية كبيرة لردِّهم إلى ديانتهم الأولى؛ كما أنهما ومنذ القديم تعتبران محط القوافل نحو السودان؛ ومنها يمكن الوصول إلى إفريقيا السوداء ومحاربة تجارة الرقيق التي كان ينبذها المنصّرون.

وقد شهدت الصحراء الكبرى تطورات جذرية في العصر الحديث بتعرضها لأول مرة لتدخل خارجي متمثل في الاستعمار الأوربي المباشر والمسلح وفي البعثات العلمية والمؤسسات التنصيرية؛ هاتين الأخيرتين أخذتا الرِّيادة في فتح الآفاق أمام النفوذ الاستعماري وكشف السبل وإرساء المعالم، حيث تراوح الدور ما بين الجغرافيين الجوَّالين والمنصِّرين الآملين في الاستقرار كما هو الحال في الصحراء الكبرى.

وقد تعددت كيفيات توغل المنصِّرين من منطقة إلى أخرى حسب طبيعة المنطقة ومقتضيات المرحلة؛ غير أنَّ أساليب المنصِّرين تتشابه تقريباً في تقمصهم لمجموعة من الأدوار هي: مُعلِّم للصبيان أو مكوِّنٍ في الحرف اليدوية أو طبيبٍ أو كاتبٍ وغير ذلك؛ وقد تركزت ظاهرياً في خدمة القضايا الإنسانية وتقديم يد العون لمن يطلبها، في الوقت الذي كانت تعتبر فعلياً "عيناً أمامية" ترافق الاستعمار وتذلل له الصعاب؛ أمَّا رمزية تقديمها للعمل الإنساني في صبغة دينية فقد كانت غير متوائمةٍ تماماً مع المجتمع السلامي المحافظ وبخاصة في بيئتي مزاب والهقار؛ ومع مرور الزمن وتعدد الحملات وتعرض مزاب والهقار لأزمات خانقة استطاع المنصّرون النفوذ إلى أعماق تلك المجتمعات المحافظة ولو لبعض الوقت...، ولعل الأسئلة التي تطرح نفسها بحدّة هنا هي: كيف ولجت هذه الترسانة من المنصرين إلى هاتين البيئتين الموغلتين في الصحراء الجزائرية؟ وما هي أساليبها في استمالة الأهالي والأقليات كالزنوج واليهود؟ وكيف كان ردّ فعل ممثلي المؤسسات الدينية الإسلامية المحلية والممثلة في العلماء والعزَّابة وأئمة المساجد؟ وكيف كان ردّ فعل الجبهة الاجتماعية ممثلة في رؤساء القبائل والعشائر؟ وما هي طرق التي صد بها العلماء ورؤساء العشائر ثم الأهالي نشاطات تلك المؤسسات التنصيرية؟

هذه الأسئلة وغيرها هي جزء من صلب موضوع دراستنا المعنونة بـــ "المؤسسات التنصيرية في الصحراء الجزائرية بين سنوات 1868-1916"؛ وسيتم الإجابة عنها أثناء تتبع تسلل مجموعة من الأحداث التاريخية بمنطقتي مزاب والهقار خلال هذه الفترة، وستتضح الرؤى أكثر وأكثر من خلال عرض محتوى مجموعة من الوثائق التاريخية والتقارير اليومية التي كان يرسل بها الرهبان إلى الكنيسة الأم بالجزائر ومنها إلى روما.

أهمية الموضوع:

الموضوع يكتسي أهميته البالغة من امتداده في عديد الجوانب الاجتماعية بخاصة؛ وعلى المستوى التاريخي ــورغم الدراساتــ ما يزال التساؤل مطروحاً حول الدور الذي لعبته هذه المؤسسات التنصيرية والدوافع التي كانت ورائها، خاصة وأنَّ الحملة على الجزائر كما يصفها وزير الحربية الكُونْتْ كْلِيرْمُون تُونِيرْ بقوله: "إنَّها حملة صليبيَّة هيَّأتها العناية الإلهية لينفِّذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله ليثأر من أعداء الدين والإنسانية"[1]، والواقع أنَّ المصلحة الاقتصادية كانت إحدى أهم العوامل المحركة، ويشكك بعض المؤرخين الفرنسيين في المنجزات التي قدمها المنصّرون لفرنسا بقولهم: إذا حققت فرنسا ربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي، فماذا حقق رجالها الدينيون؟!

---

[1]- Clermont Tonnerre**: << Rapport au Roi, sur Alger**>>. en R. A, Vol.70, Adolphe Jordan, 1929. p.215.

ولعل المتأمل في نشاط المؤسسة التنصيرية بالجزائر خلال فترة الاحتلال يتبيّن بأنها حاولت أن تكون أكثر حضوراً في الحياة الاجتماعية للفرد الجزائري نظراً لطبيعة الخدمات التي كانت تقدمها للمحتاجين والمستضعفين في المدن والقرى، مركّزين خاصة على التطبيب والتعليم والغذاء المجاني، وهي من أهم الوسائل التي استطاع المنصّرون أن يكسبوا بها وُدّ الأهالي، رغم الحساسية التي تفرض نفسها بقوّة وهي وأنهم رجال دين مسيحيين يحاولون إيجاد موقع لهم في صُلب مجتمع مسلم ومحافظ.

طريقتي في العمل:

كانت طريقة العمل في هذا الموضوع بداية باختيار الأنموذج وتحديد الحقبة الزمنية؛ أمَّا الأنموذج فهو منطقتي مزاب والهقار للدراسة وذلك بتسليط الضوء على البدايات أو المنطلقات في هاتين المنطقتين الصحراويتن الهامتين، وتفادي التوسع المشتت للجهد، خاصة وأنَّ للموضوع _كما لا يخفى_ امتدادات عديدة تتطلب الإحاطة بها؛ مركزاً على ما يندرج تحت نشاط المؤسسة التنصيرية خاصة وأنها ركزت على المنطقتين موضوع الدراسة؛ في حين تمّ تحديد الحقبة الزمنية بين 1868 و1916م، فخلال هذه الفترة تمكن المنصِّرون من وضع قدمٍ لهم في مزاب بعد الاقتحام العسكري لها في سنة 1882 وذلك بعد فشل محاولاتهم السابقة بداية من سنة 1853م، وبالنسبة للهقار كانت انتهاء بانعدام فرصة نجاح اقتحامها تماماً، باستثناء العمل الفردي للمنصر "دو فوكو" هنالك والذي توقف بعد مقتله في سنة 1916 إلى غاية ثلاثينات القرن الماضي.

وقد اعتمدت في دراستي على المصادر الأساسية التي تعود إلى تلك الحقبة (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) وبخاصة الوثائق والمراجع والكتابات التي تتصل مباشرة بالموضوع، ومنها: التقارير التي عاد بها الجغرافيون والمغامرون الذين زاروا المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشرة، وكذا رسائل الكاردينال لافيجري التي أرسلها إلى البابا بروما وإلى المؤسسات الحكومية والتنصيرية داخل التراب الجزائري؛ وكذا ما أنتجته مؤسسة "منصِّري إفريقيا" وسجّلته في مجلتها "Bulletin - Mission des Pères blancs".

الدراسات السابقة في الموضوع

تناولت خديجة بقطاش بالدراسة الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871 وهي فترة عرفت فيها الجزائر بداية الاستعمار الفرنسي للجزائر وتوطين المعمِّرين، وجهوداً ومحاولات تنصيرية حثيثة من طرف رجال الدين وبعض الرجال العسكريين الفرنسيين، وشهدت تنصيب أسقُفَين بالجزائر هما: "دييبش" و"بافي"؛ وتنتهي هذه الدراسة سنة 1871 سنة اندلاع الثورات الشعبية العارمة في منطقة القبائل والشرق الجزائري، والتي كان من بين أسباب اندلاعها ذلك النشاط التبشيري المتزايد في القبائل منذ تولي "لافيجري" أسقفية الجزائر سنة 1867 وإعطائه فرصة كبيرة للعمل التبشيري خاصة بعد حدوث مجاعات 1868.

أمَّا الباحث واعلي محمد الطاهر فقد درس التعليم التبشيري في الجزائر بين سنة 1830 وسنة 1904، وركّز على أحد أهم النشاطات والوسائل الرئيسية التي اعتمد عليها المنصّرون وهي التعليم التنصيري، وهي من بين النشاطات ذات الخطورة الفائقة بمكان، إذ يحتك المنصِّر فيها بشريحة الأطفال الذين سيكونون خير سندٍ للاستعمار وقاعدةً

خلفيةً لمستقبل فرنسا بالجزائر؛ إضافة إلى اعتنائها بسياسة فرِّق تسُد واللعب على وتر العِرقية والتركيز على منطقة القبائل ومزاب والطوارق.

رغم هذه الدراسات هنا إلاَّ أن الموضوع لم يلق بعد حظه الوافر من الدراسة والتمحيص خاصة بالنسبة للصحراء التي كانت ميداناً مفتوحاً للعمل التَّنصيري، فقد كانت هذه القضية ضمن أهداف تأسيس "مؤسسة مُنصِّري إفريقيا" سنة 1868، وذلك لبُعدها عن الجزائر العاصمة وبقائها طوال الفترة الاستعمارية خاضعة للسلطة العسكرية المباشرة، إذ في الوقت الذي كان الشمال الجزائري يتمتع بنوع من الحكم المدني الذي يسمح بمزيد من الحركة والنشاط، كان إقليم الصحراء خاضعاً لأهواء ونزعات القادة العسكريين.

وقد اعتمدت ــ ولم يسبقني فيما أعلم بحث مدققــ على السجلات الفصلية لسنوات (1879-1909) والتقارير السنوية لسنوات (1905-1960) والمستلّة من "اليوميات" (Diaires)، هذه الأخيرة تعد مصدراً هاماً ومن الدرجة الأولى لكونه تسجيلات يومية من عين الحدث والمكان، وتتطرق إلى التاريخ المدروس بدقة، وثرية جداً لما يمكن أن تتضمنه من معلومات حول المنطقة والأهالي والأجواء العامة في تلك الحقبة من تلك المناطق النائية.

فقد كان من أهم إصدارات الآباء البيض "اليوميات" (Diaires)، وهي تقارير يومية كانت تصل إلى مقر مؤسسة "مُنصِّري إفريقيا" بالعاصمة قادمة من محطات الإرساليات في الصحراء الكبرى والسودان الفرنسيين، والتي أُوكل لها نشاط العمل التَّنصيري، والجديد هو أنه وفّرت هذه المؤسسة مؤخراً من خلال موقعها على الشبكة العالمية الإنترنيت إمكانية الاطلاع على جزء هامٍ من أرشيفها الذي كان محجوباً قبل ذلك، وقد نشر كملفات وخلال فترات محددة، نظراً لما يكتسيه من أهمية بالغةً من جهة، ولحاجة الباحثين إليه وتزايد الطلب عليه من جهة أخرى.

بما بأنَّ التنصير لا يتطلب من الرهبان اتصالاً ضيقاً أو احتكاكاً محتشماً بالأهالي المعنيين بالعمل معهم فحسب، ولكن معرفةً دقيقةً ودراسة لغة وتركيبة وقوانين وأعراف كل ما هو ذو قيمة عند المجموعة المقصودة، وبخاصة معتقداتهم الدينية، فــ"التقرير اليومي للمنصّر" كما سطّر "لافيجري" خطوطه العريضة لا يجب أن يتضمن فقط شريط أحداثٍ ولكن كل ما له علاقة بتاريخ وتقاليد الأهالي، وكذا معلومات عن الجغرافيا والنبات والحيوانات وكل المعارف التي يكمن أن تخدم عالم المعرفة.

وقد رقمنت المؤسسة جزءاً من أرشيفها ووضعته تحت تصرف الباحثين في الشبكة المعلوماتية العالمية كما أسلفت، ويتعلق الأمر بما تحويه الدار العامة للمؤسسة بروما من مراسلات وتقارير ووثائق مختلفة ومنشورات جاءت من مؤسستها ومن المهمَّات المختلفة؛ منها ثلاثة قواعد بيانات تم رقمنتها خلال سنوات (2002 - 2007) ووضعها في موقع المؤسسة بداية من سنة 2008، ويتعلق الأمر بالأرصدة الآتية:

- رصيد أرشيف المجالس العامة (Chapitres Généraux) (1874-1957) وملخصاتها بين (1967-1998).
- رصيد أرشيف المجالس العامة (1874-1991) –دخول مقيّد لمكانها في الموقع أي غير متاح للجميع-.
- السجلات الفصلية (1879-1909)، والتقارير السنوية (1905-1960).

ونظراً لتعدد الجوانب التي سيتطرق إليها الموضوع فإنني حاولت أن أوفّق بين عدة مناهج تتكامل مع كل جزئية من الموضوع حتى تخدم جوانبه المتعددة، ويمكن حصرها أساساً في المناهج الآتية:

أولاً- المنهج التاريخي: والذي بواسطته يتم تقديم عرض عام لمجريات الأحداث في الصحراء الجزائرية من انطلاق التوغل الاستعماري جنوباً وتثبيت أقدامه بها إلى نهاية المقاومة المحلية، وقد راعيت في ذلك التسلسل المنطقي للأحداث.

ثانياً- المنهج الوصفي: وبه تعرضت إلى الحالة العامة في الجزائر المستعمرة مركزاً على الجانب الديني، وهو محلّ نشاط المنصّرين أفراداً ومؤسسات، مفصلاً في أطوار الحركة التّنصيرية بالجنوب الشرقي على وجه التحديد.

كما قمت باستنطاق التقارير اليومية واستخراج المعلومات المتعلقة بوضعية مؤسسة "مُنصّري إفريقيا" والأهالي والتفاعل الحاصل لمجموعة من الحوادث خارج الترتيب الزمني للتقارير لعدم جدوى الأخير في العرض، وذلك برصد تفاصيل بعض القضايا التي وردت مشتتة في ثنايا مجموعة كبيرة من التقارير.

ثالثاً- المنهج التحليلي: وهو في نظري أهم منهج بني عليه البحث، حيث حاولت قراءة النتائج المترتبة عن النشاط التبشيري؛ هل المنطلقات والآفاق التي رسمتها مؤسسة "مُنصّري إفريقيا" لنفسها قد وجدت لها صدى؟ وهل كان لأسلوب الممانعة المحلية أثر في سير مهمة المنصِّرين؟

وقد جاءت الدراسة في ثلاثة فصول رئيسية:

يتضمن الفصل الأول أربعة مباحث، ويتناول الفصل عرضاً تاريخياً عن دوافع التوغل الفرنسي إلى الصحراء والمراحل الكبرى التي عرفها هذا الامتداد وقوفاً عند المناطق المعنيّة بالدراسة وهي منطقة مزاب ومنطقة الهقار، وصولاً إلى نتائج الاحتلال في الصحراء وخاصة بهاتين المنطقتين بعد وصول الاستعمار الفرنسي إلى فرض سيطرته عليهما.

أمَّا الفصل الثاني فيتطرق إلى التنصير في الجزائر وتوغله نحو الصحراء، ويتجزأ إلى ثلاثة مباحث رئيسية، يبحث الأول منها في ماهية التنصير ومسيرة الحركة التنصيرية بشكل عام منذ العهود الأولى للنصرانية إلى العصور الحديثة، ثم علاقتها بالاستعمار والحركة الأوروبية على الصعيد العالمي، وفي المبحث الثاني ركزت في البحث عن الحركة التنصيرية في الجزائر من الحملة الفرنسية إلى غاية تولي المطران "لافيجري" لأسقفية الجزائر في سنة 1867، ويقتصر على تناول حركة التنصير في الصحراء من سنة 1867 إلى بداية الحرب العالمية الأولى تقريباً وإنشاء المحافظة الرَّسولية للصحراء؛ في حين يأخذ المبحث الأخير في التفصيل في ماهية مؤسسة مُنصِّري إفريقيا التي تولَّت المهمة التنصيرية بالصحراء، وكيف ظهرت المؤسسة وتأسست وما هي قوانينها التنظيمية وشروط الانخراط بها.

أمَّا الفصل الثالث والأخير فتناولت فيه من خلال ثلاثة مباحث محاولات التنصير الأولى في منطقتي مزاب والهقار، ويختص المبحث الأول منه بمحطة غرداية أو مزاب؛ وهي المحطة الأولى من مَهام الصحراء وعاصمة التوسع إلى باقي الواحات، ويرتكز الموضوع حول بيان إشكالية التثبيت النهائي بمزاب وبداية العمل بها، ثم في المبحث الثاني تمّ التركيز على العمل الميداني الأولي؛ وأولى ردود الفعل أو التفاعل الحاصل بين الأهالي والمنصِّرين، وكذا تحركات المجتمع والمؤسسات اتجاههم وردود الأفعال المتباينة ومداها، بينما كان المبحث الأخير ذو امتدادٍ متصلٍ بالمبحثين

الأخيرين من الفصل الأول والثاني؛ ويهتم بنشاط "شارل دو فوكو" المعزول في قلب الأطلس الصحري بالهقار، كما يتصل بموضوع السياسة الفرنسية ومدى استفادة فرنسا من رائدها في هذه المنطقة، وكيف كان رد المؤسسات الدينية في الصحراء على هذه السياسة ومدى تفاعل الأهالي مع رائد المنصّرين بالأهقار.

وفي الخاتمة حاولت تقييم الفترة الأولى من تواجد الحركة التنصيرية فوق رمال الصحراء، ومقارنة البدايات بين منطقة مزاب والهقار، بالرغم من صعوبة الدراسة والتي تعود إلى الاختلاف الكبير في طبيعة السكان وكثافتهم وتضاريس كل منطقة وموقعها ونمط المعيشة الخاص بكل مجموعة... إلخ، أضف إلى ذلك شبه انعدام المعلومة فيما يتعلق بمنطقة الهقار؛ وفي الأخير مجموعة من النتائج التي يمكن أن نستقيها من بدايات العمل التنصيري بالصحراء.

صعوبات واجهت البحث والباحث

في الحقيقة ما يزال البحث في تاريخ الفترة الاستعمارية بالقطر الوطني الجزائري مرهون بالوثائق التي خلَّفتها تلك الفترة؛ والتي يبقى الكثير منها حبيس مراكز الأرشيف بالخارج خاصة بفرنسا حيث لم يتسنى لي رفع اللُّبس الذي ظلّ يحيط بمجموعة من الإشكالات وإيجاد التفاسير المناسبة التي تقربنا من واقع الوقائع؛ وذلك لافتقادنا إلى تلك المصادر؛ فمجموعات الوثائق التي حصلت عليها بعد جهد جهيد تظل دون طموحنا في تقديم عمل أوسع وأشمل، يضاف إلى ذلك صعوبة التواصل مع القائمين على الأرشيف المصور في روما وعدم تجاوبهم الفعال معنا؛ رغم مراسلاتي العديدة لهم وترددي مرات ومرات على دار الأسقفية بشارع خليفة بوخالفة بالعاصمة، والمركز الأسقفي بالأبيار بالعاصمة أيضاً، قصد جمع المزيد من المعلومات أو الوصول إلى رفع الحجب عن مجموعة من الوثائق المصورة والموجودة في الموقع الإلكتروني لمؤسسة مُنصِّري إفريقيا؛ والتي تميّزت بصفة "الدخول المقيّد" (accès limité)، متحجِّجين في كل مرة بعلّة ما، أما المصادر المتعلقة مباشرة بالموضوع فهي تقريباً شبه نادرة، وحتى الأرشيف الخاص بمؤسسة مُنصِّري إفريقيا ما يزال الكثير منه حبيس الصناديق في روما كما أسلفت، وما اطَّلعت عليه هو الجزء الذي وُضع للتداول على موقع "مؤسسة مُنصِّري إفريقيا" في الشبكة المعلوماتية خلال فترة محددة ودخول مقيّد للموقع، كما كان عدم تواصل "مؤسسة مُنصِّري إفريقيا" والتي تتخذ من روما بإيطاليا مقراً لها وعدم ردّها على مراسلاتي العديدة للقائمين عليها؛ سبباً غير محفّزٍ للارتحال إلى روما بحثا عن مجموعة الوثائق التي تحوزها تلك المؤسسة؛ ويضاف إلى ذلك صعوبة الحصول على بعض المراجع الأساسية التي تعود إلى نفس الفترة لفقدانها من المكتبات العامة ونعني على الخصوص مكتبتنا الوطنية الجزائرية، وقد يشعر الفرد أحياناً بفقدان هدفه بين أعداد الكتب الكبيرة التي تصفحتها من دون أن أجد فيها ملمحاً عن ضالّتنا، ومع ذلك استطعت أن أسير في خطة البحث المرسومة حتى تم هذا الجزء من العمل والحمد لله؛ وقد كانت هذه العقبات حائلاً أمامي في تكامل المعلومة، حيث أنَّ طبيعة الموضوع ما يزال يكتنفه الكثير من البحث والتنقيب في الأرشيف والوثائق.

آفاق بحثية

أخيراً؛ وإن كان هدف التنصير واضحاً فإنَّ نشاطه في الميدان لم يكن مباشراً؛ فكثيرا ما كان ملفوفا بخدمات عدة كالتَّطبِيب والتعليم والتشغيل...كما أخذ أبعاداً عدّة في الزمان والمكان، لذا ستلي هذه الدراسة ــإن شاء الله تعالىــ بحوث معمّقة وواسعة للظاهرة التَّنصيرية بالصحراء الجزائرية، وسيكون العمل مستقبلاً على دراسة مجمل أرشيف مؤسسة "منصري إفريقيا" وباقي الوثائق التي ليست حاليا قيد التداول، وهو ما سيمكّننا من توسيع موضوع البحث على امتداد البعدين الزمني والجغرافي، خاصة وأن البدايات لا يمكن أن نخلص فيها إلى تقييم للوضع أو استخلاص للنتائج، إذ أصبح المنصِّرون جزءاً من الواقع الجزائري، أثَّروا وتأثَّروا بالمحيط..؛ كما أن الوثائق من جانب آخر تحوي جزءاً معتبراً من المادة التاريخية التي لم تنقد حينها بأقلام محلية وظلت ممنوعة من التداول، وهي الآن من مصادر الفترة الاستعمارية التي بدأ الزمن يكشف عنها... وبالله التوفيق.

تجنينت (العطف) في: 06 شعبان 1433هـ/ 26 جوان 2012م

الفصل الأول

توغل الاستعمار الفرنسي نحو صحراء مزاب والهقار

المبحث الأول: الاستعمار الأوروبي في الصحراء

المبحث الثاني: سياسة التوغل الفرنسية في الصحراء

المبحث الثالث: الاحتلال الفرنسي ومنطقة مزاب

المبحث الرابع: التوغل نحو الهقار واحتلالها

الفصل الأول: توغل الاستعمار الفرنسي نحو صحراء مزاب والهقار

بدأ الاستعمار الحديث سياسته التوسعية من منطلق اقتصادي، حيث كانت أسبابه في أوروبا أين شهدت نهضة وثورة صناعية احتاجت معه إلى مناطق للنفوذ بحثاً عن المواد الأولية وأسواقاً لتصريف السلع، ومناطق "شاغرة" لصرف فائض السكان، بينما توفرت الظروف في أفريقيا وآسيا بالخصوص أين دبّ الضعف في معظم الأنظمة السياسية القائمة آنذاك إذ اهترأت وتصدّعت الكُتل السياسية خاصة منها الدولة العثمانية، فقد جاء احتلال الجزائر كجزء أوّلي من البرنامج الاستعماري الفرنسي، خاصة وأنَّ موقع الجزائر جعلها مطمعاً للمستعمر كونها بوّابة واسعة على أفريقيا؛ حيث حاولت فرنسا أن تراعي الإطار العالمي المشوب بالتنافس مع انجلترا لتسارع في خطواتها نحو الداخل باجتياز عرض الصحراء الكبرى الإفريقية، بالرغم من أنها رمال ولا يعرف عنها الأوروبيين شيئاً إلاَّ أن موقعها كذلك جعل منها أيضاً مطمحاً للغزاة منذ القديم.

المبحث الأول: الاستعمار الأوروبي في الصحراء

1_ الاستعمار الفرنسي في مواجهة الصحراء

كان الرومان _حسب ديبونشال (Duponchel)[2]_ أول الأوروبيين الذين وصلوا الصحراء الكبرى من الشمال؛ إذ جعلوا سلطتهم مرهوبة من كل القبائل التي تستوطن حوض وادي "إغَرغَر" الكبير الذي يمتدّ من جنوب ورقلة ويقطع هضبة "تادميت" عرضًا إلى أن يصل سلسلة "الهقار"، وحتى أبعد من ذلك في "الآير"؛ وقد أثبتَ ذلك وجود طريق العربات الروماني الموغل في "الآير"[3]، وهو مزّود بما يكفي من آبار للمياه، إذ لم يكن الرومان يستعملون الجمال في تنقلاتهم بل كانوا يستعينون بالعربات التي تجرها الأبقار، وقد جاب الرحالة "ديفيريي" (Duveyrier) جزءاً من هذه الطريق الرومانية في نواحي أغداس، لكن وإن بلغ الرومان الواحات منذ العصر القديم إلاَّ أن احتمال استقرارهم غير وارد في تلك المناطق فقد يكتفون بتكليف الرؤساء المحليين بجباية الضرائب[4].

وقد بقيت منطقة الصحراء الكبرى والسودان الغربي لمدة طويلة لغزاً عند الأوروبيين حيث لم يعرفوا عنها إلاَّ من خلال مخيلتهم ومن خلال منسج أساطيرهم القديمة على أنَّ الحياة فيها معدومة ومستحيلة وهي بحارٌ من الرمال لا ساحل لها من دخلها فهو محكوم عليه بالموت، وهي مستحيلة على الكائن الحي، وأبعد من أن تنموا فيها نبتة واحدة[5]، ولكن ما إن تغيرت الظروف وتطوّرت وسائل النقل وقامت الثورة الصناعية في أوروبا حتى تحولتِ النظرة وتطوّرت الحاجة إلى مزيد من الاتساع والسيطرة، ولو على حساب الصحراء المقفرة، وأضحَى الاستعمار

---

[2] - واحدٌ من أوائل وأقوى المدافعين عن مشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء. انظر المبحث الثاني، المطلب الأول.

[3] - تقع مناطق طوارق الآير إلى شمالي النيجر جنوب سلسلة الهقار.

[4] - Charles Amat, **Le Mzab & les M'zabites**, Challamel & C^le^ éditeurs, Paris, 1888. p 29 .

[5] -Philebert & Georges Rolland, **La France en Afrique et le Transsaharien**, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1890. p6 .

مع النصف الثاني للقرن التاسع عشرة بالنسبة للقوى الأوروبية خاصة فرنسا وانجلترا مسألة حياة أو موت؛ كما كان يقول "بول لوري بوليو"ـالاقتصادي البارزـ متحدثاً عن السياسة الفرنسية ومصيرها في هذه المسألة: "فإمَّا أن تصبح قوة إفريقية كبيرة خلال قرنين أو أكثر من القرنين أو لا تكون إلا قوة أوروبية هامشية، ولن تكون محسوبة في العالم إلا كما تُحسب اليونان أو رومانيا في أوروبا"[6].

إنَّ واحدة من أهم الظواهر التي ميزت نهاية القرن التاسع عشر هو ذلك الجذب الذي مارسه الداخل الإفريقي على الأمم الأوروبية محدثاً امتداداً للنشاط الاستعماري[7]، والذي يعتبر امتداداً لحركة الاسترداد المسيحي في غرب أوروبا (La Reconquista) والانتقال إلى العالم الجديد، وكذا الحروب الصليبية نحو المشرق[8].

في هذه الفترة راح الطموح الفرنسي يتجسد بداية من سنة 1890 بفضل توقيع اتفاقية فرنسية انجليزية[9] فسحت المجال الحر لفرنسا للتوسع في جنوب ممتلكاتها بشمال إفريقيا المحتلة منذ سنة 1830، وهذا بهدف التقدم السريع في احتلال واحات "تْوَاتْ" وكذا التحضير للتقدم نحو "الهُقار"؛ وبإلقاء نظرة على الخريطة الاستعمارية لتلك الفترة تظهر فرنسا المسيطرة على الجزائر وتونس في الشمال، وعلى حوض السنغال وما يلحقها في الغرب، وعلى الغابون والكونغو في الجنوب، في حين بقي السودان الغربي والأوسط خاصة حوض نهر النيجر وروافده وحول بحيرة التشاد من غير سيطرة واضحة، فهذا الجزء الباقي ظلَّ محصوراً بين ممتلكات فرنسا في شمال أفريقيا وبين منطقة الساحل جنوباً جعل فرنسا مدفوعة للبحث عن نقطة تمركز في المنطقة تحت الضغط الانجليزي القادم من الشرق الإفريقي نحو حوض النيجر أين كانت الشركة الإنجليزية قد أسست منذ 1882 على نهر النيجر شركة تجارية، إذ وبعد سنتين أي في سنة 1884 كان قد بلغ عدد المرافئ الإنجليزية على كامل حوض النيجر 33 مرفأً تجاريًا، فأعطت المؤسسة الملكية البريطانية لهذه الشركة كل الصلاحيات للملاحة في كامل الحوض والنهر، وأعلنت الشركة وصايتها على كل ضفافه وعلى ممالك مجاورة منها مملكتي "بِيدَّا" (BIDDA) و"نوبي" (NOUPE)[10]، وهو ما اضطر فرنسا إلى تشجيع المؤسسات الجغرافية للتوجه صوب الجنوب الشرقي وقطع الطريق أمام التقدم الإنجليزي في المنطقة، خصوصاً وأنَّ فرنسا كانت تعيش مشاكل داخلية، فكانت المعاهدة المذكورة صمَّام الأمانِ للتقدّم كلما سمحَت الظروف بإحرازِ التقدّم.

---

[6] -**Ibid**, p 6 .

[7] - Philebert & Georges Rolland, **Op cit,** p 19 .

[8] -انظر الفصل الثاني.

[9] -هي جملة من الاتفاقيات التي جرت بين الحكومتين لتحديد مناطق النفوذ في حوض النيجر من أجل تفادي الدخول في أزمة داخل المستعمرات، خاصة في مناطق حوض نهر النيجر، وهي على شكل مراسلات بين وزيري المستعمرات والخارجية، لكل من البلدين وبعض التلغرافات. انظر: Ministère des affaires étrangères, **Correspondance et documents relatifs à la convention franco-anglaise** [de Paris] du 14 juin 1898,1890-1898. 1899 .

[10] -Philebert & Georges Rolland, **Op cit**, pp 21-22 .

أمَّا من الشمال، فبمجرد تنصيبه حاكماً عاماً على الجزائر سنة 1851 راح الماريشال "راندون" (Randon)[11] وكجزء من برنامجه التوسّعي النابع من روحِه العسكرية التي يتقاسمها مع الضباط الإفريقيين وعلى رأسهم الجنرال بيجو[12] (Bugeaud) يبحث عن توسيع نطاقِ السيطرة الفرنسية عن طريق القوة العسكرية، فحاول اتمام الاحتلال النهائي للتل الجزائري في سنة 1857، إذ حرص على إنهاء مشروع ضم منطقة القبائل التي اقتحمها الجنرال "لالموند" (Lallemand) منذ سنة 1853 ـتحت سلطة الحاكم العام راندونـ لكن الأمور لم تستقر في التّل الجزائرِي للفرنسيين بهذا الدخول في بلاد القبائل بحكم المقاومة الشعبية الشديدة التي كانت تلقاها باستمرار.

كما خطى هذا الحاكم العام خطوات سريعة إلى الداخل الجزائري؛ وبيانه رؤية الجنرال "بيجو" القائلة في هذا الصدد: "للمناسبة مع الطبيعة العدوانية للحرب يجب ترك الآثار على أرض الانتصار، بتدمير جزء من ثروات من انتصرنا عليهم لأنَّ الخبرة أفادتنا بأنه فقط من ثنايا الأطلال نحصل على خضوع هؤلاء الأهالي المتعنِّتين الذين يقاومون أي شيء إلاَّ الاستعراضَات الواقعية للقوة"[13]؛ وقد صار الحاكم العام "راندون" عازماً على تتبع المقاومات إلى قواعدها الخلفية فانطلق في مشروعِ احتلال الصحراء فأحدث تقدماً سريعاً نحو الجلفة سنة 1852، ثمّ مع نهاية نفس السنة كانت الأغواطُ قد سقطت، إذ بتاريخ 04 ديسمبر 1852 دخل الفرنسيون تحت قيادة الجنرال "بليسيي" (Piléssier) وبخيالة "الجنرال يوسف"[14] مدينة الأغواط دخولا "أسطوريا"، بالتّخريب وإثارة الذّعر في الأهالي؛ ومن ثمَّ ونظراً لردود الفعل القوية المُتمثلة في حركة "محمد بن عبد الله" في ورقلة، فكّر الماريشال "راندون"، وكضمان للثبات في مركزه وتجنب مخيبات الآمال وغلق الحدود الجنوبية أمامه، في:

- اقتراح شبه اتّفاقيةٍ على سكان مزاب في 24 جانفي 1853[15]، ذات صبغة سلمية، على أن تعترِف لهم فرنسا بخصوصياتهم.
- تقريب "سي حمزة" الرئيس البِكرُ "لأولاد سيدي الشيخ" إليه ليؤدي دوراً أكبر في مشروع التوغل الصحراوي في الجنوب الغربي[16].

---

11 -الماريشال راندون (1795-1871) ولد قرونوبل، بفرنسا، عين حاكما عاما في ديسمبر 1851، ساهم في إخضاع منطقة القبائل، وإقرار مشروع مد سكك الحديد وجعلها حيز النفيد في أوت 1857. انظر : Paul Azin, **Les Grand Soldats de l'Algérie**, publication du comité national métropolitaine du centenaire de l'Algérie. Pp 107-118.

12 -توماس روبير بيجو من قدامى الجيش الإمبراطوري، وقع مع الأمير عبد القادر اتفاقية التافنة، أصبح حاكما عاما من ديسمبر 1840 إلى جوان 1847. كان شديد الحرص على الخطوات الاستعمارية حيث يعتبر الحرب الإفريقية عقيمة من غير تقدم استعماري. انظر: **Ibid,** Pp 61-78.

13 -Charles-André Julien, **Histoire de l'Algérie Contemporaine**, edition Casbah, t3, Alger, 2004. p 390.

14 -الجنرال يوسف باري ادوارد، فرنسي مسلم ولد في جزيرة ألبا 1808م ارتقى في الجيش إلى جنرال في 1856، والوسام الصليبي الكبير في 1860. انظر أكثر: Paul Azin, **Op cit**, p 43-51.

15 -انظر الفصل الثاني.

2_ أسباب التوغل الفرنسي نحو الصحراء

تعود الأسباب والدوافع التي أدت بالحكومة العامة إلى التفكير في التّوغل والمسيرِ نحو الصحراء إلى الوضعيَة الجديدة للمستعمرة بعد إرساء القانون الأساسي الصّادر بتاريخ 12 نوفمبر 1848 والذي أعلن بأنَّ الجزائر جزء من التراب الفرنسي؛ فما أعقب هذا القانون من اللواحق المحددة لوضعية الجزائر الفرنسية _خاصة من الناحية الإدارية_ حمل معه نتائج جديدة وأوضاع ميدانية غيَّرت الأمور جذرياً، فكان منها بعض أسباب دخول الجنوب. فقد حمل القانون الجديد من الجانب الإداري والتنظيمي وتحديد الصلاحيات بالنسبة الحكومة العامة ما يلي:

1- تحويل المقاطعات أو العمالات الجزائرية من تلك الموروثة عن "البيالك العثمانية" إلى تقسيم جديد من حيث التراب المدني في الشمال والتراب العسكري في الجنوب؛ ففي الشمال يسيّر العمالات وُلاّة أو محافظون (préfets) يرتبطون مباشرة بوزارة الحربية في تسيير القضايا العامة وباقي الوزارات بالنسبة للقضايا المدنية، ولا تربطهم بالحاكم العام في مدينة الجزائر رابطة إلاَّ في تلك العلاقات المتعلقة بالقضايا الجزائرية المحضة مثل الاستعمار.

2- تكون إدارة التراب العسكري في الجنوب، تحت سلطة الحاكم العام، يضمنها الجنرالات القيّاد للمقاطعات، والضباط القيّاد للدوائر والنواحي.

3- يحتفظ الحاكم العام بقيادة القوات العسكرية، والإدارة العليا للجزائر في الأمور المتعلقة بالاستعمار.

4- الإدارة المباشرة للتراب العسكري، بوجود أمينٍ عامٍ مكلَّفٍ بمركزية الحكم والمراسلات الإدارية.

5- تقليص كبير في صلاحيات الحاكم العام في مناطق الحكم المدني والتَّل، حيث تحول الإدارة الفعلية إلى محافظي المقاطعات، ويبقى بالمقابل حاكماً أعلى على المناطق ذات الحكم العسكري[17].

وبذلك لم يبق للحاكم العام بعد هذا التّنظيم الجديد إلاَّ أن يمارس صلاحياته الكاملة في الصحراء، فانصرف الحكام العامّون في الجزائر إلى العمل على توسيع النفوذ في الجنوب، مع إخضاع منطقة القبائل في التَّل، وأوَّل حاكمٍ عامٍ عمل على ممارسة صلاحياته عقب هذه الترتيبات الجديدة هو الحاكم العام "راندون" (Randon) حيث انصرف مباشرة إلى التوسع في الصحراء بداية من سنة 1852 واحتلال بلاد القبائل ابتداء من سنة 1853.

ويمثّل انتصاب "راندون" كحاكمٍ عامٍ على الجزائر في سنة 1851 حدثاً مميزاً في تاريخ الصحراء الجزائرية، فقد شغل بال هذا الأخير _حال ارتقائه حاكماً عاماً_ فكرة توسيع سلطان فرنسا وبناء علاقاتٍ تجاريةٍ مع مناطق السودان الغربي بهدف السيطرة المباشرة عليها كهدف مرحلي[18].

---

16 -Jean-Charles Humbert, **Fort & Bordj de l'extreme sud du Sahara Algérien (1892-1903)**, edition Jacques Gandini, Paris, 1993. p 11 .

17 -voir :Charles-André Julien, **Op cit,** p 352-354.

18 - Donald C. Holcinger:<<**Trade Routes of The Algerian Sahara in the XIXth century**>>, in Revue de l'Occident Musulman & de la méditerranée, n° 30, 1980. p66 .

وكان إلى جانب التحرك العسكري مهامٌ أخرى كان على الحكومة العامة القيام بها وهي محاولة ربط اقتصاد وتجارة الصحراء بالشمال، وكذا تصريف السلع الفرنسية في الصحراء الجزائرية والتي بمجرد احتلال منطقة التّل انقطع خط التّواصل التّجاري المتجه (شمال – جنوب) إلى خط يسير في اتجاه (جنوب – جنوب)[19]، وكان من بين الوسائل الممكنة لرد تلك الروابط هو ربط العلاقات مع سكان الواحات وضمان رابطة مباشرة معهم، وبخاصة مع شيوخ القبائل، وكذا عن طريق مد شبكة سكة الحديد أكثر وأكثر نحو الصحراء.

بدت الأوضاع في تلك الفترة أصعب من أن تشهد تقدماً فعلياً، ففي الوقت الذي لم تكن فرنسا قد استحوذت بعدُ على كامل التل كان ظاهراً بأنَّ مدناً مثل مُعسكر أو المديَّة هي واحات وسط الصحراء، ومدناً مثل سعيدة وتيارت هي في نهاية العالم[20]؛ غير أنَّ الضباط الفرنسيين كانوا يعلمون أنَّ الصحراء تبدأ فيما وراء تلك النقاط، ولكن لم تأت الانطلاقة الفعلية نحو الفيافي حتى نهاية 1851، تحت إمرة الحاكم العام الماريشال "راندون"، وهو الذي أكّد فكرة التوغل في الصحراء، إذ كان يرى أنَّ حماية مشيَّدات فرنسا في التَّل تقتضي الاستقرار النِّهائي في الهضاب العليا؛ فإنشاء مركز "جيري فيل"[21] (Géryville) وإتْباعِه باحتلال الأغواط ما هو إلاَّ مرحلتين متعاقبتين في سبيل المسير نحو الجنوب كحتمية كانت تراها السلطة الفرنسية حينئذ[22].

هذه الحتمية فرضت على فرنسا أن تتجه إلى الواحات ولا تنتظر في أن تأتي إليها، خاصة أنه كانت ما تزال تجارة السودان وخيرات قوافلها تستهوي الفرنسيين، إذ ما فتئ بعض المستكشفين وزوّار هذه المناطق ــقبل احتلالهاــ يحرّضُون على ذلك، مثل "براكس" (Prax) عام 1848 عندما أتى على استكشاف الجنوب التونسي وجنوب عمالة قسنطينة واصفاً ما يجري في جنوب هذه الأخيرة: "...يتموَّن تجار الواد من تونس ولا يتعاملون مع قسنطينة، لأننا لم ندعهم يتقدّمون إلى أسواقنا ولم نعرض عليهم السِّلع التي تلائمهم..."، وأضاف ضابط في المكتب العربي، كان قد زار بعض المدن الصحراوية في تلك الفترة: "...لا يباع في القصور الصحراوية أي شيءٍ من المصنوعات الفرنسية؛ فلا تجد هنا إلا المنتجات الإنجليزية والأقمشة القطنية والأسلحة التي تأتي إليهم عبر تونس أو من المغرب"[23]، وكل السلع التي يأتي بها التجار وخاصة المزابيين هي من تونس أو من غدامس[24].

كان التفكير النابع أيضاً من النظرة الاقتصادية يدفع الحكومة الفرنسية إلى القيام بهذه الخطوة، رغم اعتراض الرأي العام الفرنسي، فقد وضعت الحكومة نصب عينيها خلال احتلالها الخطوات والنقاط التالية:

1- تحويل جزء من التجارة الصحراوية نحو المراكز الفرنسية.

2- تأمين المناطق الشمالية بتأمين المناطق الصحراوية.

---

19 - H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Documents Pour Server à l'Etude du Nord Ouest Africain**, éd Gouvernement général de l'Algérie, 1897. t3, p3 .

20 - **Ibid**, t 3, p 3 .

21 - هي مدينة البيض حاليا.

22 - **Idid**, p 5.

23 -H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op cit**, p 3 & pp 15-16.

24 - اطّلعت على بعض الزمام ــ عقود التي تعود إلى تلك الفترة.

3- وضع مخططات تمهيدية لمشروع مستقبلي هو سكة الحديد العابرة للصحراء والتي ستوحد بين المستعمرات الفرنسية بالشمال الإفريقي والأخرى بالساحل الإفريقي[25].

هذا وقد ساند ودعّم المشروع التّوسعي مجموعة من المغامرين كانوا يستكشفون المسالك في أعماق الصحراء، وكان "رولف" (Rohlfs) أوّل رحالة يصل "عين صالح"[26] ويعود منها بمعلوماتٍ ووصفٍ مستفيضٍ، وكان قد انطلق من مدينة الجزائر على أمل الوصول إلى السنغال عبر "تِدِكلت"[27]، لكنه لم ينجح في المرة الأولى وحاول مرةً ثانيةً عبر المغرب آخذاً مسلَكاً باتجاه الجنوب الشّرقي، عبر "تْوَاتْ" إلى "عين صالح"، وعاد منها بنتائج مهمة عن الوضع السياسي والاقتصادي وقدَّم للسلطات تقارير مهمة حول الفوائد المرجوة التي ستجنيها فرنسا من احتلالها لهذه الواحات[28].

هكذا كانت جهود التوسع ترتبط بحركية الحكومة ومشاريعها، وبرحلات المستكشفين ومدى تقدّمهم خاصة بداية مع الخمسينات، غير أنه ومن جهة أخرى لم تتأخر ثورات أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 في خلق أجواء من الاضطراب في شمال الجنوب الكبير للفت الانتباه عن هذا المشروع، وهو ما جعل فرنسا تنتظر عشر سنوات أخرى لتتجدد محاولات التوغل[29]، وفي الشرق كان "دورنو دوبيري" (Dourneaux-Duperré) و"جوبارت" (Jobert) يبذلون قصارى جهدهم في التوغل أكثر نحو الجنوب حيث وصلا في سنة 1874 إلى بلاد "طوارق نَاجِّر" ولكن تمَّت تصفيتهم في الطريق بين غات وغدامس، في الوقت الذي كان فيه "بول صوليي" (Soleillet) قد أخد وجهة الجنوب باتجاه "عين صالح" والتي كانت آخر نقطة أمكنه الوصول إليها، تمَّ تهديده بالتصفية إن هو حاول أن يذهب أبعد من هذه النقطة؛ في حين بقي الجنوب الغربي عصيّاً على الفرنسيين، بينما كان هناك إصرارٌ أكبر على التوجه نحو الجنوب الشرقي على غرار رحلات "لارجو" (Largeau) (1875-1878) والآباء "بوليي" و"بوشاند" و"مينوري" (Paulmier, Bouchard et Minoret) سنة 1876[30]، والذين قُتلوا في نواحي "حاسي إنفل"؛ وكذا رحلة "صاي" (L. Say)، وربما كانت محاولة "صولِيي" هي آخر أبعد محاولة توغُّل حتى ذلك الوقت. لكن على صعيد التَّقدم الميداني للقوات الفرنسية ورغم الخرائط المرصودة من هؤلاء

---

[25] -Numa Broc: << **Les Français Face à l'Inconnu Saharienne; géographes, ingénieurs & explorateurs, (1830-1881)**>>, in Annales de Géographie, t96, n° 535, 1987. p 307.

[26] - 1000 كلم جنوب الأغواط، و 1400 كلم جنوب الجزائر .

[27] - تِدِكَلت أحد المناطق الثلاث التابعة للجنوب الغربي للجزائر، إلى جانب تْوَاتْ ثم قُورَارَة التي تقع إلى الشرق منها الشرق، وتقع مباشرة إلى الجنوب من الجزائر ومركزها الرئيسي عين صالح وتتصل بسلسلة الأهقار شرقا. انظر الخريطة من ملحق الخرائط، رقم 02.

[28] - Paul Vuillot, **L'Exploration de Sahara (étude historique & géographique)**, Augustin challamel éditeur, Paris, 1895. p 104 .

[29] - H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op cit**, t3, p 11 .

[30] - انظر الفصل الثاني، المبحث الثاني.

الرحالة إلاَّ أن خطوط التقدم الاستعمارية لم تتجاوز حدود الواحات الشمالية للصحراء أي عند أقدام الأطلس الصحراوي، و لم تتجسد مطامح الحكومة ميدانياً حتى عشرية الثمانينات من القرن التاسع عشرة.

نفس السياسة التي انتهجها "راندون" قام الحاكم العام "لويس ترمان"[31] (Louis Tirman) بإتباعها إذ دفع بالمواجهة إلى إتمام الاحتلال بكل الواحات الشمالية بداية بمنطقة الأبيض سيدي الشيخ وإلحاق مزاب سنة 1882، وانتهاء باحتلال "القُولية" سنة 1890، وكان "جول كامبون"[32] (Jules Cambon) قد دخل هو الآخر باستراتيجيةٍ عسكريةٍ هجوميةٍ باتجاه أقصى الصحراء، مع الأخذ في الحسبان بالإطار العالمي المواتي؛ إذ قرر الشروع في عملية التّقدم نحو واحات "توات" وسلسلة "الهقار" في سنة 1892 وإنشاء مراكز محصّنة في الحدود الجنوبية للممتلكات الفرنسية على طول الحدود الجنوبية للجزائر ــعلى شاكلة اللّيمس الروماني[33]ــ حيث رأت فرنسا أنَّ الحاميات المنصّبة بالأغواط و"جِيرِي فِيل" ومزاب غير قادرةٍ على حماية الممتلكات الفرنسية التي امتدت بعد القضاء على ثورة أولاد سيدي الشيخ واحتلال مزاب واسترجاع ورقلة، أبعَدَ نحو الجنوب، كونها أصبحت نقاط دعمٍ بعيدةٍ عن الامتداد المحقق حتى سنة 1892[34] بما يزيد عن 1000كلم، فقد قرر الجنرال "دولبياك" (Duelbiac) مدّ الحصون والقلاع العسكرية بداية من سنة 1885 إلى جنان "بورزق" على الحدود الغربية لحماية الواحات الغربية، ومدّ سكك الحديد إلى غاية عين الصفراء لتدعيم مركزها، أمّا في الجنوب الشرقي فقد دُعِّمت أيضا بالحصون وأنشأ فيها كل من: "برج بورصوف" (Bordj-Beressof)، "برج المي" (Bordj-El mey)، "برج لالموندن" (Fort-Lallemand)، "حصن إنفل" (Fort-Inifel)، "حصن مريبل" (Fort-Miribel)، "حصن ماك ماهون" (Fort Mac-Mahon) [35]، وجميعها أقيم بين سنوات (1892-1894)[36]؛ وخلال الست سنوات الممتدة بين 1891-1897 كانت فرنسا قد بلغت جنوب "القولية" ــ270 كلم جنوب كونفدرالية مزابــ في خطى متسارعة بغرض إتمام هذه التحصينات المُشكِّلة لمثلث رأسه "القولية" وقاعدته "تدكلت" و"توات" ــ700 كلم أبعد إلى الجنوب من القوليةــ، وهي قاعدة النشاطات والعمليات المقبلة على الواحات الجنوبية، فهي تساعد فرنسا على مد احتلالها حتى الواحات الجنوبية، وكهدف مستقبلي أبعد جنوباً بربط الشمال الإفريقي مع السودان الغربي.

---

31 - الحاكم العام للجزائر بين نوفمبر 1881 وأفريل 1891.

32 - الحاكم العام للجزائر بين أفريل 1891 وسبتمبر 1897.

33 - هي تحصينات من أسوار وأبراج المراقبة وضعتها الإمبراطورية الرومانية على طول الحدود الجنوبية لمنع القبائل البدوية من اختراق الأراضي الزراعية أو إتلافها، وهي أراضي لهم في الأصل حرموا منها بفعل قوانين المواطنة الرومانية. انظر محمد البشير شنيتي، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. ص 242.

34 - Augustin Bernard & N. Lacroix, **La Pénétration Saharienne 1830-1906**, Imp.Algérienne, Alger, 1903. p 96.

35 - خريطة أهم الواحات والمراكز العسكرية الصحراوية، ملحق الخرائط رقم **03**.

36 - Jean-Charles Humbert, **Op cit**.

المبحث الثاني : سياسة التوغل الفرنسية في الصحراء

1_ فكرة القاطرة العابرة للصحراء

في تقرير له وزّعه على مجلس الشيوخ الفرنسي في سنة 1895 قدم "لابيش" (Lapuche) (مقرر اللجنة الجزائرية للمشروع آنذاك) عرضاً لخص فيه الامتيازات غير المقدَّرة التي عادت بها المستعمرة من جراء تطويرها لشبكة السكك الحديدية: ففي العام 1865 وهو العام الذي شهد فيه إنهاء الشطر الأول من شبكة سكة الحديد في التّل كان حجم الواردات قد تجاوز الصادرات بـــ39%؛ وحتى سنة 1886 وهي الفترة التي أخذت فيها الشبكة شكلها النهائي (المرسومة حتى بداية القرن العشرين)[37] كانت الواردات تتعدى الصادرات بـــ11%؛ أمَّا في عام 1900 فقد تجاوزت الصادرات سقف 294 مليون فرنك وتعدّت بذلك الواردات البالغة 273 مليون فرنك[38]، مما أبرز الأهمية القصوى للنّقل عبر السكك ما جعل السلطات تفكّر معه بشكل جلي في مدها أكثر نحو الجنوب.

بالنسبة لمد شبكة سكك الحديد نحو الصحراء؛ فقد بدأت في سنة 1878 تبزغ في الأفق مشاريع في هذا الصدد، خاصة المشروع الضخم الذي تقدم به المهندس ديبونشل (Duponchel) حول تشييد سكة للنقل عابرة للصحراء (Transsaharien)، وهو ما فتح المجال للمئات من المشاريع المماثلة، إذ تضاعفت في فرنسا المحاضرات المرغّبة في دعم هذا المشروع، حتى رغبت فرنسا في توحيد الجزائر بالسودان عبر هذه الوسيلة أولا، وكذا في تصريف المنتجات عبر الصحراء الكبرى بها أيضاً؛ وقد شكلت الحكومة آنذاك لجنة خاصة بالمشروع وهي: (la commission supérieur pour le Transsaharien) "اللجنة العليا للنقل العابر للصحراء" تحت وصاية وزير الأشغال العمومية "فريسيني" (M. de Freycinet)، وذلك بموجب مرسومٍ بتاريخ 1879/07/19، ومهمتها: دراسة المسائل المتعلقة بالربط عبر السكك الحديدية الجزائر بالسودان عبر الداخل الإفريقي[39].

وإثر بعث عمل هذه اللجنة بدأت التقارير والخرائط الجغرافية والتضاريسية عن المناطق الصحراوية تصل إلى أيدي الإدارة الجزائرية والحكومة في فرنسا، ولكن هذه المرة كانت بفعل الزيارات الميدانية والاستطلاعات الجارية في الصحراء، ومن خلال استعمال المخابرات المحلية؛ فقد قدم في سنة 1880 المهندس "بويان" (Poyane) وهو مهندس للمناجم تقريراً جمع فيه كمّاً هائلاً من المعلومات وقد حدد في خارطة له منطقة "تْوَات" رسمت الخطوط

---

37 - انظر الخريطة المتعلقة بشبكة سكة الحديد في ملحق الخرائط رقم 01.

38 - E. L. Bouneffen, **L'Afrique Politique en 1900**, Henri Charles-lavayelle éditeur, Paris, 1900. p 56.

39 - H. M. De la Martinière & N. Lacroix**, Op cit**, T3, p 56.

العريضة للمنطقة الشاسعة الممتدة من "تْوَاتْ" حتى منطقة النيجر، فكان يستفيد منها القادة العسكريون أمثال كوين (Coyne) وغرول (Graulle)[40].

كما قررت اللجنة إيفاد مهمة علمية جيولوجية خاصة تشق الصحراء، يشرف عليها العقيد "فْلاَتَرس" (Flatters) خلال سنتي (1879-1880)، لكن المهمة الأولى لهذا الأخير لم تكن ذات فائدة كبيرة، حيث سلك هذا العقيد مسلكاً من الشمال إلى الجنوب عبر بلاد الطوارق، مجتازاً سلسلة الهقار، آملاً في الوصول إلى "تنبكتو" عاصمة السودان الغربي، فقد وصلت القافلة مشارف سلسلة الهقار من جهة بحيرة "منغوغ" ودرس المناطق المجاورة، وفي ذات الوقت أرسل إلى "إخنُوخَنْ" زعيم قبائل "طوارق ناجّر" يطلب منه توصية أو حماية تسمح له بالمرور عبر بلاد "ناجّر" دون مشاكل، وفي الوقت نفسه أجرى بعض الاتصالات مع رؤساء "إفوغاس" و"إمنغساتن" ــوهي من قبائل "الأهقار"[41]ــ ولكن الردود طالت و لم تأته فقفل راجعاً[42]، ودخل "ورقلة" على أمل العودة الموسم المقبل، وفي العام الموالي أي 1881 انطلق "فْلاترس" في مهمة جديدة وهذه المرة كان مصمِّماً على المرور مباشرة عبر سلسلة "الهقار" دون أن ينحرف شرق الطاسيلي ــسالكاً أقرب طريق وهو الطريق المستقيمــ فأرسل إلى "أهيتاغل"[43] زعيم قبائل الأهقار، وفي هذه المرة بدل أن ينتظر "فلاترس" الرد، الذي قد يكون سلبيّاً يجعله يعود أدراجه خائباً انطلق مباشرةً عبر سلسلة الهقار، واثقاً بمن معه من الرُّفقة، إذ كان مرفقاً بثمانية وسبعين رجلاً مسلحاً استقدمهم معه في القافلة[44]، غير أن تلك المهمَّة انتهى بها المطاف في عرض السلسلة الجبلية في مارس 1881 نهايةً كارثيةً بمقتله وغالبية الجنود الذين كانوا معه، إذْ لم يأخذ احتياطاته الكاملة واعتدّ بالجنود المسلحين الذين كانوا معه ما أعطى لحملته تلك صبغة المجابهة المحتملة واضطرت الطوارق إلى التصدّي لحملته[45]، فقد كانوا يراقبونه من حيث لا يدري وهو واثقٌ تماماً بتمكُّنه من العبور من هذه المنطقة التي لم يطأها أوروبي قبله.

أرادت الحكومة بعد فشل مهمة "فلاترس" إعطاء فرص أخرى أكبر لنجاح المهام الموالية تحت قيادة "فورو" (Foureau) فأمدته بمحلة عسكرية كبيرة تحت إمرة المقدّم "لامي" (Lieutenant-Colonel Lamy) مكونة من ضبّاط ومائتين وثلاثة وثمانون جندياً ما بين قنّاصٍ وصبايحيٍ، ومزودة بمدفعين، وكان الهدف منها ربط العلاقات

---

40 - Camille Sabatier, **Touat-Sahara & Soudan, Etude Géographie Politique et Militaire,** société d'éditions scientifiques, Paris, 1891. p3.

41 -"الأهقار" للقبائل القاطنة للسلسلة الجبلية البركانية الواقعة على بعد 2000كلم جنوب الجزائر، والتي حملت اسم "الهقار" نسبة إلى القبائل التي تقطنه.

42 - P. Vuillot, **Op cit**, p 104.

43 -.أمينوكل أو مقدم طوارق الأهقار بين سنة 1874 وسنة 1899. انظر الملحق

44 -اسماعيل العربي، **تاريخ الرحلة والاستكشاف، في البر والبحر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. ص 333.

45 - Brébion, **Le R. P. Alexis Pouplard des Pères Blancs 1854-1881**, Imprimerie de La Mission d'Afrique, Alger, 1904. p 171 .

مع طوارق "ناجّر"[46]، نظراً للوجه الطيب الذي أبدُوه لفرنسا منذ معاهدة سنة 1862[47]، بما يسمح لهم بالوصول إلى واحات "الآير"[48]، وصلت المهمة في 1883/11/19 إلى "ثماسين" أين شيّدَت محطة مؤقتة تُفِيد في الإمداد بين ورقلة والجنوب؛ ومنها سارت المحلة متفاديةً مناطق "أمقِيدْ" و"الهقار" حتى وصلت "بير غرامه"، أين انتهت مهمة "فلاترس" وأتم برنامجه باجتياز الصحراء نحو السودان، وقد صرّح "فرور" لزعيم طوارق "ناجّر" ـحسب "فالات" (Vallat)ـ: "...إنَّ عين صالح وكل بلاد الواحات ستصبح في يوم من الأيام مستعمراتٍ فرنسية؛ هذا الملجأ الدّائم لقطّاع الطّرق سيصبح تحت رعايتنا واحاتٍ هادئةٍ ومزدهرة"[49]، وكانت هذه الخطوات محاولة ردّ اعتبار عن فشل مهمة "فلاترس" ومنعٍ للمشروعِ من أن يخبُو ولو لبعض الوقت.

وقد جعل الاحتكاك المتكرِّر بالطوارق الحكومة الفرنسية تفكّر بتشكيل تنظيماتٍ وفرقٍ عسكريةٍ دائمةٍ في الصحراء، كما هو عليه الحال في التّل، حيث كانت هناك وحدات عسكرية داعمة لقوة الاحتلال من الأهالي وهي الصبايحية وهم خيّالة، والقنّاصة وهم مُشاة، و لم تكن أيّ من هذه الفرق تليق بالعمل بالصحراء، وبإنشاء قوة صحراوية من عناصر صحراوية وبوسائل صحراوية خاصةً الجمال يمكن أن يحقق المستعمر تقدماً أسرع، لكن يبدو ورغم بعض المحاولات أنَّ المشروع لم ينطلق وبقي يراوح مخيلة بعض المسؤولين، الذين كانوا يرون أنَّ سكك النقل الحديدية هي التي تفِي بالغرض، فهي روح الجيش لأنها الكفيلة بتوصيل مؤونة العيش وتسهّل الحركة وهي روح التجارة وعصبه[50].

يؤكد "فالات" على هذا قائلا: "في الحقيقة يعود المهندس بنتيجة أفضل من الجندي، فبالأسلحة نُخضع السكان دون تغيير في ذهنياتهم، بيمنا عبر سكة الحديد فإننا نضعهم على اتصال بنا على نحو تستطيع أفكارنا أن تندمج معهم وتنغرس فيهم"[51]؛ غير أنه وحتى سنة 1899 كان مشروع السكة العابرة للصحراء[52] لم ينطلق بعد؛ وقد عقد المجلس الأعلى الجزائري في نفس السنة جلسةً للنّظر في التّنفيذ المستعجل لمشروع سكة الحديد في شِقّه المتعلق بتمديدها من الجلفة نحو الأغواط ومزاب ومن بسكرة نحو ورقلة[53]، رغم التطمينات التي وجدها المحتل منذ سنة 1845 للتوسع في الغرب بعقد معاهدة مع المغرب، كما كان عليه الشأن في المنطقة الشرقية منذ سنة 1862 حيث عُقد مع طوارق ناجر معاهدة تجارية.

---

46 - تقطن هذه القبائل السلسلة الجبلية الواقعة إلى الشرق من سلسلة الهقار والمسماة بالطاسيلي ن آجّر، نسبة إلى القبائل التي تقطنها.

47 - انظر لاحقا.

48 - Maurice Zimmermenn: <<**La mission Foureau-Lamy, la question du Transsaharien**>>, in Annales de géographie, T8, n° 38, 1899. p 185.

49 - Gustave vallat**, A La Conquête du Continent Noir (mission militaire et civiles), de 1892 à 1900 exclusivement d'après des documents officiels**, J. Lefort Imp édt, Lille, 1901. p 230.

50 - Père Constantin, **Alger et Timbuktu (Etude sur le commerce Transsaharien)**, challamel Aimé éditeur, Paris, 1885. pp 3-4 .

51 -Gustave Vallat, **op cit**, p 316 .

52 - خريطة رولاند المتعلقة بالعابر للصحراء إلى غاية 1891. ملحق الخرائط رقم **01**.

53 - Quotidien Le Temps, <<**Affaires Coloniales, Algéries**>>, 39m An, n° 13754, 29/01/1899 .

2_ معاهدة "لاله مغنية" واحتلال الواحات الشمالية

بموجب قرار الجمهورية الفرنسية الثانية لسنة 1848 والمُقرِّر بأنَّ الجزائر جزءٌ من التراب الفرنسي[54] اتجهت فرنسا إلى الدواخل لإتمام إلحاق ممتلكاتها بفرنسا على غرار منطقة القبائل في التّل، ولكن العقبات كانت تعترض التقدم الفرنسي على الصعيد السياسي الخارجي، ومن بين العقبات التي وقفت حجر عثرة نحو ولوج الصحراء وخاصة الصحراء الغربية للجزائر، قضية "المسألة المغربية" حيث:

1- كان المغرب يطالب بِصَرفِ النَّظر عن منطقة "تْوَاتْ" امتداداً إلى "عين صالح" و"تِدِكَلْتْ" على أنها تابعة لسلطانه، وكان يحاول دوماً فرض سيطرته على تلك المناطق.

2- كانت فرنسا ترى بأنَّ هذه المناطق هي امتداد طبيعي للتراب الجزائري، وليس للمغرب أن يطالب بها، وقد حددتها الاتفاقية المُوقّعة مع انجلترا سنة 1890 ضمن مناطق النفوذ في القارة الإفريقية[55].

وقد وافق هذا التوغل نحو الصحراء بأن لفت أنظار المغرب ومِن ورائها أوروبا إلى مسألة التوسع الفرنسي في شمال إفريقيا شرقاً وغرباً وجنوباً، لأنَّ المغرب تحاجِجُ بأنَّ إسبانيا وألمانيا تتربص بالمغرب والصحراء جنوب المغرب في حال وقوع اعتداءٍ عليها، في الوقت الذي كانت فرنسا قد وقّعت على اتفاقية مع المغرب عند وصولها، أثناء ردّ مقاومة الأمير عبد القادر إلى الحدود الغربية للجزائر، إلى منطقة "لاله مغنية" بتاريخ 18 مارس 1845، حيث تُعنى هذه الاتفاقية بقضية تمَلّك الأراضي ووضعيتها في الصحراء جنوب الهضاب، حيث ينص البند الرابع من هذا الاتفاق على:

1- أنَّ أرض الصحراء لا حدود فيها بين الجانبين لكَوْنِها لا تُحرث، وإنَّما هي مرعى فقط لعرب الإيالتين، والتي تنزِل فيها وتنتفِع بِخِصبها ومائِها، ولِكلاَ السّلطانين التّصرف في رعيته بما شاء وكيف ما شاء من غير معارضٍ إن اجتازت رعيّته، وإلاّ فمن أراد إحداث أمرٍ في رعيته حالة اختلاطها برعيّة غيره فليكُفَّ عن غير رعيته وله في رعيته ما يشاء.

2- أنَّ الأرض التي هي قبلة قصور الفريقين في الصحراء لا تحتاج لتحديد لكونها أرض فلاة (قفار).

فمن خلال هذين البندين يظهر أنَّ هنالك تغافلاً، قد يبدوا أنه كان مقصوداً من الطرفين اللّذين يعرفان تمام المعرفة أنَّ في الصحراء التي يصفها هذا البند بالخالية يسكنها أكثر من 400 ألف نسمة وبها أزيد من مليون نخلة، وعلّق "سباتيي" (Sabatier) على هذا بتساؤله: "هل هذا جهلٌ وسذاجةٌ من الدبلوماسي الفرنسي "كونت دُو لاَغِي" (Le Compte de La Rue) ــالموقّع من الطرف الفرنسيــ أم هو دهاء وخُبث الدبلوماسي المغربي؟!"[56]، حيث وَضعت هذه البنود حداً لطموح فرنسا على أنَّ أقصى نقطةٍ هي الهضاب العليَا عند "ثنية السّاسي" على

---

54 -Charles-André Julien, **Op cit**, p 342.

55 -H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op cit**, t3, p XI .

56 -Camille Sabatier**, Op cit,** p 112 .

الحدود مع المغرب، باستثناء بعض الواحات كواحة "عين الصفراء" و"تْيُوتْ" و"مَغرَارْ" التي عُدّت فرنسية، و"فِقِيقْ" و"إِيش" التي عُدّت مغربية.

ولكن فيما يبدوا أنَّ العمليات التي بدأت تتم في الصحراء بداية من سنة 1852 قد خلقت وضعاً جديداً على المعاهدة نفسها التي احتُكم إليها، فهي في نفس الوقت تَعترِف لفرنسا باحتلال التَّل والهضاب، في المقابل طالب المغرب بسلطتها على "تْوَاتْ" و"قُورارة" في حين أنه لم يكن لها أي ممارسة سلطويةٍ فعليةٍ على هذه المناطق إلى غاية زحف الفرنسيين على "القُولية" سنة 1890 فأرسلت جماعة من أعيان "عين صالح" إلى المغرب طالبة الدعم من السلطان المغربي لكن المغرب لم يرد عليهم[57]، كذلك البلبلة التي وقعت بين الواحات الصحراوية في "تْوَاتْ"، لَمّا تقدمت فرنسا نحو "تْوَاتْ" سنة 1901 حيث أرسلت تمثيلية إلى المغرب طالبةً الحماية، و لم يتأخّر السلطان في إعطاء سندٍ لوجوده في المنطقة بوعده بأنه سيأتي للدفاع عنهم ضد المسيحيين[58].

فقد أعقب هذه الاتفاقية بدايةً حثيثةً للقوات الاستعمارية بالمناطق الأولى على مشارف الصحراء، حيث تعرضت الواحات الأولى لتدخل عسكري بداية من بسكرة سنة 1844 ثم "الزعاطشة" في سنة 1849، وكانت بذلك الانطلاقة قوية وسريعة في الشرق نظراً للثورة القوية القائمة هنالك منذ زيارة أحمد باي قسنطينة لهذه الواحات، ثم تلاه سقوط الأغواط سنة 1852 فورقلة وتُقرت سنة 1854، وكذا في الجنوب الوهراني _الغرب الجزائري_ حيث أُنشأ مركز "جِيرِي فِيل" في عام 1853 ليكون المركز المتقدّم ولمراقبة الواحات الجنوبية بعد نهاية مقاومة الأمير عبد القادر.

لفتت هذه التصرّفات الاستعمار الفرنسي للواحات الشمالية في فترة تولي الماريشال "راندون" منصب الحاكم العام انتباه زعماء بعض القبائل الصحراوية إلى التواصل مع الوافد الجديد، لمعرفة ما يدور فعلاً في أذهان الفرنسيين اتجاه بلادهم؛ فبعد سقوط ورقلة استدعى "سي حمزة" أحد مقدّمي أولاد سيدي الشيخ والمتودّدين لفرنسا، وبطلب من فرنسا "الشيخ عثمان" أحد زعماء طوارق "ناجّر" إلى ورقلة ليُطلعه على طيبة الفرنسيين وعلى العلاقات الطيبة التي يمكن أن تجمع بين "إخنوخن" زعيم طوارق "ناجّر" وفرنسا، خاصة وأنَّ هذا الاحتلال قد مسَّ ورقلة وهي ذلك المركز التجاري الشهير عند السودانيين[59]، لأنَّ تجارة السُّودان ستتأثر وستُأثر في الطّرق التجارية التي تحرسها طوارق "ناجّر" بالتبع، ولذلك فضّل بعض من زعماء الطوارق "ناجر" أن يربطوا العلاقات مع المسيطر على المرفأ الشمالي لتجارة السودان.

3_ معاهدة غدامس 1862 واحتلال الواحات الجنوبية

فتحت رحلة "بوضربة" سنة 1858 إلى طوارق "ناجّر" الطريق أمام الشاب ديفرييي (H. Duveyrier) للتوغل أيضاً في هذه البلاد سنة 1859- 1860 والعودة بأولى الدراسات الشاملة والجادة عن هذه القبائل التي لا يُعرف عنها إلاَّ القليل، والسّؤال هو: كيف سينظرُ الطّوارق إلى رجلٍ فرنسي بعد أن حضي "اسماعيل بوضربة"

---

57 -Camille Sabatier**, Op cit**, p 113 .

58 -Gustave vallat, **Op cit**, p 36 .

59 -Camille Sabatier**, Op cit,** p 100.

ذلك العربي المسلم باستقبال وترحيب الطوارق[60]؟ وخلال سنوات 1859- 1866 كان "ديفيريي" يجوب الصحراء الشمالية من بسكرة إلى تقّرت، ومنها عرّج إلى القرارة فمزاب واتجه بعدها إلى القولية جنوباً قاصداً "تْوَاتْ"[61]، لكنه تراجع بعد وصول القولية حيث هُدِّد بالتّصفية إن استمر في مسيره نحو الصحراء، وبذلك توقف الرحالة عن الحركية التي شهدتها المناطق التي تقع مباشرة على الجنوب من الواحات الشمالية في واحات أولاد سيدي الشيخ ومزاب وجنوب ورقلة[62] عقب وصول أولى الآليات العسكرية الفرنسية إلى تلك المناطق، وقد اهتمت به الحكومة الفرنسية وكلفته بمهمة رسمية في سنة 1860 نحو طوارق "ناجّر"، وتوجه إلى غدامس رفقة "الشيخ عثمان" والتقى "بـــالحاج إخنوخن" زعيم هذه الكونفدرالية التّارقية، وكُلِّلت مهمته هذه بإنجاز كتاب "طوارق الشمال"[63] عن "نآجّر" وفيه تفاصيل مهمة عن لغتهم وعاداتهم وظروفهم السياسية والاجتماعية.

وقد أفضت محاولة التقارب الأخيرة بين طوارق "نآجّر" وفرنسا إلى عقد معاهدة في غدامس بتاريخ 1862/11/26 بين فرنسا و"الحاج إخنوخن" تضمنُ لفرنسا سلامة قوافلها التجارية بين ورقلة وغات وأغداس وبْرُنُو[64] ، حيث تنص أهم بنودها على :

1- تأكيد العلاقات التقليدية القديمة التي تنظم العلاقات التجارية مع دول شمال إفريقيا ومختلف القبائل التّارقية، ويبقى للشيخ "إخْنُوخَنْ" مهمة تأمين كامل السلامة للقوافل الجزائرية عبر كامل بلاد ناجّر.

2- دفع القوافل الفرنسية والجزائرية الذاهبة والغادية من السودان، ضماناً لسلامتها وأمنها، للشيخ "إخْنُوخَنْ" ولوكلائه أو لورثة سلطته السياسية من بعده رسوماً تنظّم وتُضبط لاحقاً.

3- على الطوارق تسهيل مهمة المفاوضين الفرنسيين أثناء تنقلاتهم مِن وإلى السودان وحماية بضائعهم في مُقابل أداء المُكوس.

4- التزام كل من فرنسا وزعماء الطوارق بفتح الطرق التجارية وإصلاحها وتحديدها، وتحديد المكوس وإصلاح الآبار، وإزالة العراقيل أمام التجارة الفرنسية[65].

كما تُمِّنت المعاهدة بوثيقة أخرى تنظم العلاقات بين الطوارق والفرنسيين، وبعد توقيع معاهدة الصّداقة[66] أمل الفرنسيون بأن يكون ذلك قد فتح مجال الحركة والتنقّل في الصحراء بطرق سلميّة، ولكن ذلك لم يكن كما تعتقد لأنَّ الصحراء الجزائرية لا يُسطر عليها فعلياً طوارق "ناجّر"، بل كانت للبدو من العرب وطوارق الغرب

---

60 - Paul Vuillot, **Op cit**, p 58.

61 - voir : **bulletin de la société de géographie de paris**, série 4, t18, an 1858 & série 5, t5, an 1863.

62 - P. Vuillot, **Op cit**, p 61.

63 - Henri Duveyrier, **Les touareg du Nord & exploration du Sahara**, Challamel aîné, Paris, 1864.

64 - Georges Rolland, **Le transsaharien Un an après**, Augustin Challamel éditeur, Pris, 1891. p 21.

65 - Paul Vuillot, **Op cit**, p 84.

66 - M Mercher (chef de la mission), **Mission de Ghadamès, rapport officiel et document à l'appui**, typographie declaux, Alger, 1863.

الذين هم ضمن كونفدرالية الأهقار، أمَّا طوارق "ناجّر" فلا يسيطرون فعلياً إلاَّ على الصحراء الطرابلسية وشمال النّيجر.

أما في الجنوب الوهراني وفي تلك الفترة أي بين سنة 1863-1864 فقد ثار أولاد سيدي الشيخ على القائد الفرنسي "بوبراتر" (Beauprêtre) وقضوا على محلة المكتب العربي في "عوينة بوبكر" بقيادة "سي سليمان" وهو مُقدَّم أولاد سيد الشيخ، وامتدت نار الثورة وقضت على الجنرال "بليسيي" (G^le pilissier) وقواته وهو الذي قاد الحملة على الأغواط، واضطرت فرنسا إلى دعم وحداتها بالجنرال "مارتنبيري" (Martin Berry) و"جوليفي" و"يوسف"(Yossuf) و"دولينين" ثم بالمارشال "ماك ماهون"(Mac Mahon) والجنرال "ويمبفن" (Wimpfen) والجنرالين "شانزي" (Chanzy) و"كولومب" (Colombe)، من أجل إخماد الثورة في هذه الواحات حتى لا تمتد إلى باقي الواحات[67]، وهو ما أعطى تصوراً عن التمركز الهشِّ الذي كانت عليه فرنسا في هذه الواحات، وهو الوقت الذي حاول فيه طوارق الشرق ربط علاقات مع فرنسا، ومع بداية السبعينيات حاولت قبائل من الجنوب القسنطيني التحرك ضد فرنسا، ففي سنة 1872 بنواحي "تقّرت"[68] تسارعت القوات الفرنسية إليها خاصة وأنَّ الوضع كان ملتهباً من جراء انتفاضات سنة 1871 في التّل، فلاحقت القوات الفرنسية الثائرين إلى ورقلة، إلاَّ أنَّ التحركات لم تتوقف وبقيت المناوشات مستمرة هنا وهناك[69].

كما أنَّ عملية المتابعة هذه حتى ورقلة تقرر عنها إيفاد محلة عسكرية كبيرة إلى "القُولية" معتمدة أساساً على العناصر المحلية، واستعدت هذه المحلة للتحرك من "تقّرت" مع أواخر سنة 1872 مكونة من 700 رجل (تضم 3 كتائب من القناصة الجزائرية، وسَرِيَّة من الصبايحية) ودخلت "القُولية" في فيفري 1873 ثم عادت من جديدٍ إلى تقرت، وكانت هذه العملية هي الوحيدة خلال فترة السِّتينيات إلى السبعينيات في الجهة الجنوبية الشرقية بينما اهتمت فرنسا بإصلاح الوضع لصالحها في الجهة الغربية، وهكذا بدأت فرنسا تحرز تقدّماً ثانياً مع نهاية السبعينات باتجاه الصحراء الوسطى وهي الخطوة التي ستنتهي مع مطلع القرن الماضي.

تحركت الثورة من جديد في أولاد سيدي الشيخ مع بداية 1881 حيث قام الشيخ بوعمامة في الجنوب الوهراني، ولم تهدأ هذه الثورة حتى فرضت السيطرة على كامل واحات أولاد سيدي الشيخ وانتقال بوعمامة إلى المغرب، مما فتح المجال لمد شبكة سكة الحديد حتى عين الصفراء ثم مدها إلى غاية جنان بورزق قرب فِقِيقْ[70]، كما احتلت فرنسا مزاب عنوة في عام 1882 بعد أن كان بينهما معاهدة مند 1853، وأقيم بها مركز عسكري ظل جاثماً بها لمدة عشر سنوات إلى نقل مع التقدم الفرنسي نحو الجنوب إلى "حاسي إنفل"، 150كلم جنوب "القُولية" بعد احتلال هذه الأخيرة في 1890، ثم دُعِّم بمركزين جديدين في "حاسي مِيْ" قرب ورقلة، وفي "بير بورصوف" في الجنوب الشرقي للواد على الحدود التونسية، وأنشأت ثلاث مراكز أخرى هي "حصن ماك ماهون" جنوب

---

67 - J. Peytral & Marie Peytral, **élément simplifiés de chronologie algérienne, à l'usage des écoles et des familles**, Libraire classique Adolphe, Alger, 1898. p 23.

68 - تقع على بعد 160 كلم إلى الشمال من ورقلة.

69 -P. Vuillot, **Op cit**, p114.

70 - Gaustave vallat, **Op cit**, p 219.

القولية على الطريق باتجاه "قورارة"، و"حصن ميربل" 140 كلم إلى الجنوب من "القولية" على الطريق نحو "عين صالح"، أمَّا الأحدث فهو في الجنوب الشرقي، 220كم جنوب تقرت في "حاسي بلحيران"، وفي نفس الوقت كوّنت فرنسا فرقاً صحراوية للعمل على حماية المراكز وفتح الطريق نحو أقصى الصحراء[71].

فكما اهتم الحاكم العام "راندون" (1851-1857) باحتلال الواحات الشمالية اهتم الحاكم العام "تِرْمَانْ" (1881-1891) باحتلال الواحات الوسطى في حين أخذ "جُولْ كَامبُونْ" (1891-1897) على عاتقه التمهيد لاحتلال أقصى الجنوب، وذلك بعد إبرام اتفاق (فرنسي/إنجليزي) يوم 5 أوت 1890 حول مناطق النفوذ وهو ما جعل كل أراضي الجنوب الجزائري مناطق للنفوذ الفرنسي في خطٍ يمتد من "سَايْ" في حوض نهر النيجر إلى "بَاوْو" على بحيرة التشاد[72]، فقد برز دور هؤلاء الثلاثة بشكلٍ واضحٍ في التواجد الفرنسي في الصحراء، إذ يجتمعون في روح النزعة الاستعمارية، والاعتماد على ترتيب مراحل الاحتلال من الاستخبارات وجس النبض ثم ربط علاقات مع الأعيان ثم الاحتلال العسكري.

المبحث الثالث: الاحتلال الفرنسي ومنطقة مزاب

1_ ظروف توقيع المعاهدة الفرنسية مع مزاب 1853

كانت انطلاقة التوغل الاستعماري نحو الجنوب في الخمسينيات من القرن التاسع عشر سريعةً، حيث كانت البداية من إنشاء حامية الجلفة في نوفمبر 1852 من طرف الجنرال يوسف (Youssuf) أين أحرزت القوة الاستعمارية تقدماً مباشراً نحو الجنوب فسقطت الأغواط في ديسمبر من نفس السنة، وكانت هذه فترة مقاومات شديدة تنفجر في كلِّ حينٍ خاصة في منطقة القبائل والشرق الجزائري، وقد أنهى انفجار ثورة أولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني سنة 1864 كلَّ أملٍ في تأسيس علاقاتٍ سلميةٍ أو علاقاتٍ تجاريةٍ عبر الصحراء الجزائرية بعد أن قرّبت أحد أعيان أولاد سيدي الشيخ في العُشرية الماضية[73].

ففي 4 ديسمبر 1852 تسقط الأغواط تحت نيران المدافع بعد أن صمدت أسوارها أمام الجنرال "بليسيي" (Piléssier) لبضعة أيام؛ ووقع الدفاع المباشر داخل المدينة وكثر القتل فيها ودامت المعركة يوماً كاملاً[74] حيث روى أحد الجنود الذي شاركوا في هذه الواقعة في مذكراتهم أنَّ بداية فتح النيران كانت على السابعة صباحاً لتحدث الثغرة الساعة العاشرة، ثم تنطلق الكتائب في المدينة المستباحة وينصب العلم الفرنسي على المأذنة[75]، وقد

---

71 - Gaustave vallat, **Op cit**, p 221.

72 - P. Vuillot, **Op cit**, p 104.

73 -Donald C. Holcinger, **Op cit**, p 68.

74 -J. Peytral & Marie Peytral, **Op cit**, p 21.

75 -Élisa Frank, **Willie Butler suivi des Souvenirs du Sahara algérien**, Alfred Mame & Fils édition, Tours, 1890. p 44.

تمّ نشر تقرير الجنرال "بليسيي" في جريدة مونيتور (Moniteur) ليوم 14 ديسمبر 1852 حول وقائع هذه الحملة[76].

وكان من بين المشاركين في التصدي لهذه الهجمة الشريف "محمد بن عبد الله"[77]، لكنه انهزم نحو ورقلة بعد أن هرّبه بعض "المزابيين" العارفين بالصحراء، وكانت المحطة الموالية للاحتلال الفرنسي على هذا المسلك الصحراوي هي مزاب، فبعد مدن: المدية ــ وبوغار ــ والجلفة ــ والأغوط، يأتي الدور على كونفدرالية مزاب (200 كلم إلى الجنوب من الأغواط)، فقد كان لسقوط الأغواط أثر بالغ في تغير الأمور بالنسبة للمزابيين، فقد أصبحت معاقلهم وجهاً لوجهٍ مع فرنسا وهي التي طالما قاوموها في مدن التّل الجزائري، مساندين الثورات الشعبية بفضل تجارهم المنتشرة بالتّل منذ قرون طويلة، وآخر مشاركة وطنية لهم في الدفاع عن الأغواط كانت بتهريب الشريف محمد بن عبد الله الذي قاد ثورة الدفاع عن المدينة، وفروا به نحو الصحراء بعد معركة طاحنة انهزم فيها[78].

مزاب في ذلك الوقت ــكما رآها النقيب "كاريت" (Carette)ــ كانت المستورد الأكبر لكميات ملح البارود القادمة من الصحراء والتي يستغلها المزابيون في صنع البارود[79]، وأكبر هذه الكميات من هذه المادة أي "ملح البارود" كانت تأتي إلى مزاب من "تْوَاتْ" عبر "عين صالح"، وكذلك يأتيها من هذه المناطق مادة "الشَّبَّة" (Alun) والتي تُستغلُّ لنفس الغرض؛ وتباع هذه السلع على أعلى مستوى في مزاب، وتكلف ما بين 3 و 4 فرنكات فرنسية للكيلوغرام[80]، ولذلك كانت مزاب وإلى غاية الإلحاق العسكري لها في سنة 1882 مُستأثرةً بعض الشيء بتجارة السودان الغربي والصحراء حيث كانت تلتقي كل القوافل القادمة من "عين صالح" أو تلك القادمة من "قورارة" أو من غدامس[81] فيها قبل أن تأخذ السلع طريقها نحو التّل، ورغم ما كان لإلغاء تجارة الرقيق في سنة 1850 من بعض التأثير على التجارة الصحراوية في التراب الجزائري خاصة التّل الداخل ضمن التراب المدني الفرنسي، لكنها لم تكن مقيِّدة في الصحراء لأنها كانت خارج السيطرة الفعلية للسلطة الفرنسية المدنية، والقانون مطبّقٌ بشكل عملي على التراب المدني[82] حتى ذلك الوقت.

---

[76] -François-Charles Du Barail, **Mes Souvenirs**, Tome deuxième, 1851-1864. E. Plon Nourrit Imprimeur-éditeurr, Paris 1898. p 41.

[77] - أصله من أولاد سيدي الشيخ كان خليفة فرنسا على تلمسان وندّا للأمير عبد القادر، وبعد الذهاب إلى الحج وعودته أصبح من أعداء فرنسا وثائرا ضدها وجعل من ورقلة مركزا لعملياته. Louis Rinn, **Marabouts et khouan étude sur l'islam en Algérie avec une carte indiquant la marche, la situation et l'importance des ordres religieux musulmans**, Adolphe Jordan, Alger, 1884.

[78] - انظر مشاركة المزابيين في الثورات الشعبية: حمو محمد عيسى النوري، **دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا**، الجزء الأول، دار البعث قسنطينة، ط2، [د.ت].

[79] -Charles Amat, **Op Cit**, p 20 .

[80] -H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op Cit**, T3, p 270 .

[81] -Commandant Robin, **Le Mzab et Son Annexion à La france**, Adolphe Jourdan Imprimeur-éditeur, Alger, 1884. p 20 .

[82] -Charles-André Julien, **Op Cit**, p 348 .

مع نهاية سنة 1852 كانت مزاب قد دخلت مجال السيطرة الفرنسية، ففي هذه السنة التي أصبحت مزاب في خط ملامسة مع القوة الفرنسية[83]، وفي الوقت الذي كان فيه الصراع بين السلطتين المدنية والعسكرية قائماً، وفي حالة احتدامٍ حول قضايا التسيير والنفوذ خاصة بعد صدور المرسوم المحدّد لصلاحيات الحاكم العام وإنشاء الحكم المدني عام 1848[84]، استغل الحاكم العام الجنرال "راندون" سلطته على التراب العسكري الوضع السائد وفرض حصاراً اقتصادياً مباشرة بعد سقوط الأغواط على مزاب، بهدف إحراز تقدم مباشر، فقطع عنها التموين من الشمال ومنع القوافل المتجهة بالحبوب والمؤن إلى مزاب وأوقف تحرك القوافل المحملة بالبضائع نحو الشمال من أن تعبر الأغواط شمالاً أو جنوباً بداية من شتاء سنة 1853.

وصرَّح الحاكم العام لجماعة بني مزاب في الرسالة التي أرسلها إلى أعيانها في 24 جانفي 1853 بأنه مستعد للسماح لبني مزاب بحرية التنقل والتجارة بحرية في كل الممتلكات والبلاد الفرنسية في الجزائر، على شرط:

1- غلق مدنهم وأسواقهم في وجه أعداء فرنسا وردهم بالقوة.

2- دفع ضريبة سنوية لفرنسا.

3- عدم مساس الأمن العام والقوانين الأمنية والقبائل الخاضعة[85].

وانتهى "راندون" إلى التهديد بأنَّ على المزابيين الموافقة على هذه المعاهدة، والتّفكير مليّاً في تجارتهم وأبنائهم الكُثر في التّل أمام "المتربصين" بهم، والأضرار التي ستترتب عن عدم موافقتهم على المعاهدة[86].

ونظراً لطبيعية المنطقة التي لم تكن لتسع الجميع، حيث كان أكثر من ثلثي رجال مزاب يخرجون من مزاب بحثاً عن الرزق، ومنذ الفترة العثمانية ذاع صيت المزابيين في بلاد التّل، وفي مدينة الجزائر والمدن الكبرى بالخصوص، حيث واجهوا الحملات الإسبانية خلال الفترة العثمانية، وكذا الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، وفي كل المدن الجزائرية التي كان لهم تجارة فيها قاموا يقاومون التدخل الفرنسي بها[87]، ومن خلال احتكاكهم بالفرنسيين عرفوا عنهم الكثير وكيفية التعامل معهم، وقد اجتمع أهل العقد للنظر في مسألة قبول العرض الفرنسي واجتناب الدخول في معركة غير متكافئة الأطراف تأتي على ما تبقى للمسلمين بالجزائر، حيث رأى البعض على أن نحافظ على جزء من القطر الجزائري مستقلاً عن سيطرة "الكفّار" أفضل من أن نخسر كل شيء[88].

حينها قرر أهل العقد توجيه وفدٍ إلى الأغواط للتفاوض مع الفرنسيين لحل المسألة، فتوجه الوفد إلى الأغواط وأبرم اتفاقاً بين الطرف الفرنسي ومزاب، وكان الوفد مشكَّلا من أحد عشر رجلاً من أعيان مُدن مزاب، وهذا

---

83 -H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op Cit**, T3, p 270 .

84 -Jung Eugène, **Le Réveil de l'Islam et des Arabes**, les presses modernes, Paris, 1933. p 73 .

85 -Commandant Robin, **Op Cit**, p 36 .

86 -Jean Melia, **Ghardaia**, Imprimerie A. Mareteaux et Pacto, Paris, 1930. p 58 .

87 -حمو عيسى، **المرجع السابق**، ج1، ص 253.

88 -مفدي زكرياء، **أضواء على وادي مزاب**، دراسة وتحقيق ابراهيم بحاز، ط1، الجزائر، 2010. ص 124. édition Alfa ،

رغم الإصرار الشديد للقطب المحمد بن يوسف أطفيَّش على عدم التعاهد مع الكفار وضرورة حربهم مهما كانت الظروف، وتم التوقيع على هذه المعاهدة في 29 أفريل 1853[89].

وجاء نص المعاهدة مؤكداً لِمَا جاء في طلب "راندون" الأول، بالإضافة إلى تحديد لزمة سنوية مقدرة بـــ 45 ألف فرنكاً، وتحرير التجارة مع الجزائر، بينما تدفع الرسوم على البضاعة القادمة من تونس أو من المغرب.

2_ العلاقة بين فرنسا ومزاب في ظل المعاهدة

بدأت العلاقات بين مزاب وفرنسا بعد معاهدة 1853؛ فرنسا الممثلة في الحكومة المدنية بالجزائر والدائرة العسكرية بالأغواط، والمستحدثة بتاريخ 1853/01/24، تتحدد معالمها مباشرة مع التوقيع على المعاهدة حيث اتجهت هذه الأخيرة إلى الضغط على مزاب وجعلها تتخبط في دوّامة من الصراعات الداخلية[90] يصعب معها بقاء البلد على وحدتِهِ في كل وادي مزاب، أين ترتفع المدن الخمس: العطف (أطاف أو تجنينت)، غرداية (تغرديت)، بنورة (آت بنور)، بني يسجن (آت اسجن)، مليكة (آت مليشت)، والقرى خارج الوادي أين توجد بريان (برقان) والقرارة (لقرارا)، ومن تمّ إخضاعها جميعاً.

ففي هذه الفترة دخلت منطقة مزاب عصر صراعاتٍ ومناوشاتٍ داخلية أثارتها فرنسا بشكلٍ مباشرٍ أو كان لها تدخل في ذلك، وأول تلك الأحداث كانت في سنة 1857 عندما قرر الرائد "مرقريت" (Margaritte) اللّحاق بالجنرال "ديسفو" (Desvaux) في ورقلة مختصراً الطريق إليها من الأغواط بمروره عبر غرداية كطريق؛ وليجعل مزاب يعترف بسلطتها بالقوة طلب المرور من وسط غرداية، فرفض أعيان المدينة حفاظاً على قداستها وطهارتها من نجس "الكفار"، فتحركت الجنرال بقوته وحطم باب المدينة[91]، ودخل جنود الهندسة والفرق العسكرية وقرعت الطبول مارّةً بالشارع الرئيسي أمام أعين السكان، واعتبر "آمات" (Amat) هذا "تكفيراً عن كبريائنا وحطا من عُجب وغرور الطلبة (العزَّابة وحلقة إروان) لادِّعائِهم أنهم أحرار"[92].

دعمت فرنسا بشكلٍ قويّ الخلافات الدفينة بين العشائر والعروش فحدثت بذلك بعض الفتن خلال تلك الفترة، ثم ادعى الفرنسيون ادعاءاً مغرضاً أنَّ هناك حروباً أهليةً تحدث بين الأهالي حيث لم يحصِ "روبان" (Robin) ولا "آمات" إلاَّ حادثتين تكرر ذكرهما في كلِّ تلك الفترة، الأولى في سنة 1867 والأخرى في سنة 1880[93]، أمَّا الحوادث الأخرى التي كان لفرنسا يد طُولى وواضحةً فيها فهو مقتل شيخ مسجد غرداية في 31 ماي 1881 وردود الفعل التي وقعت من الطرفين في تلك الأيام، وكذا مقتل رئيس جماعة بريان الذي كانت له روابط مع فرنسا، وهكذا كانت تتكدَّر أحوال مزاب بعد انغماس فرنسا في السياسة الداخلية لمزاب[94].

---

89 - انظر ملحق الوثائق، الملحق رقم **01**.

90 - فتيحة يطو، **رسالة الرد على إلحاق وادي مزاب**، رسالة مقدمة لنيل الماجستير من جامعة السودان، 2007. ص 40.

91 - وأخذ هذا الباب بعد إعادة بنائه وإصلاحه اسم "**الباب أجديد**".

92 - Charles Amat, **Op Cit**, p 21.

93 - voir: Charles Amat, **Op Cit** & Le Commandant Robin, **Op cit**.

94 -Donald C. Holcinger, **Op cit**, p 68.

أمَّا خارج وادي مزاب فقد اتجه الرائد "باريل" (Barrail) في سنة 1853 لتلقي اللَّزمة من أهل القرارة، فعَيّن قائدين على المدينة واحد للصف الغربي والآخر للصف الشرقي، وقد كانت السلطة في هذه المدينة متركزة في الصف الشرقي، فحاولت فرنسا في عملٍ مدروسٍ على أن لا يستتِبَّ الأمن في المدينة وأن تتدخل بشكل مباشرٍ أو غير مباشر فيها، ففي سنة 1858 خُلع "بوبكر بن قاسم" وعيّن مكانه ابن عمه "كاسي بن زرويل" لقاء خدمات جليلة كان يقدمها للحكومة[95]، وبعد عامين عُثر على هذا القايد أي "كاسي بن زرويل" مقتولاً فأُرسل في المدينة فرقة من القُومية[96] وعدد من الفرسان النظاميين، ومهمة هذه الفرقة البحث عن الجناة وتأديبهم وتقديمهم أمام العدالة، وجاءت الحادثة مصادفةً لأحداث أخرى وهي عدم تلبية المزابيين لنداء السلطات لحضور مراسيم استقبال الإمبراطور[97] في مدينة الجزائر، وعدم الامتثال لأوامر المقدَّم "مرقريت"، فدفع أهل القرارة جزية قيمتها 50 ألف فرنك مع غرامة حربية عن تنقل الرائد "مانكريت" (Mancret) مع محلته الحربية[98].

وفي نفس السنة أي عام 1858 قتل رئيس جماعة المدينة وعثر على الجُناة ونُفّذ في حقهم حكم الإعدام رميًا بالرصاص، وفي سبتمبر 1861 يُبعد "إبراهيم بهون" أحد زعماء الصفوف من المدينة ومعه بعض البدو الذين كانوا من فريقه، وقُتل خمسة من خاصته وصودرت أملاك المبعدين، لكنه عاد بجماعةٍ أكبر من البدو وأعمل الخراب في المدينة، فتدخلت فرنسا وأبعدت هذا الأخير إلى "كورسيكا"، بينما فرَّ البدو الذين كانوا معه إلى الصحراء[99]، وبعد عودة هذا الشخص من المنفى، وفي نفس السنة تعاون مع بدو الصحراء في الهجوم على القرارة وأخذ ثأرَهُ من المدينة فقَتل 73 شخصاً وطرد خصومه، وتدخلت فرنسا لفضِّ النزاع، وقد قُتل إبراهيم هذا في عام 1877، وتقع مقتلةٌ بعد ذلك؛ فيذهب جماعة القرارة إلى الأغواط لطلب تدخل فرنسا لإيقاف الفوضى التي يثيرها البدو، لكن هذه المرة فرنسا تتذرع باحترام الاتفاقية المبرمة سنة 1853 وبعدم التدخل في الشؤون الداخلية، ولَمَّا كان هذا الوفد عائداً ومتجهاً صوب مزاب باغتهم أخو إبراهيم المقتول، والمسمى "كاسي" وقتل الوفد[100].

وظلّت هذه الحال طويلاً في القرارة تغذي فرنسا الصراعات بين أطرافها بشكل مستمر، حيث قامت بتولية القايد الذي يخدمها بالقوة قائداً على المدينة لينتفض الطرف الثاني ضد الطرف الأول مطالبين بتنصيب قائدهم، فتهبّ حمية صفّه لتدافع عنه ولو كان ظالماً...؛ وبالإضافة إلى ذلك نجد في رواية المُقدم "روبان" روايات أخرى، وفي الشكوى التي قدمها أهالي القرارة نجد روايات عدّة[101].

إذاً ومنذ 1853 وفرنسا تراقب الوضع عن كثب في مزاب وتجسّ النبض، خاصة وأنها لم تعرف بعد القبائل الصحراوية في المنطقة، وكانت تجمع المعلومات حول المنطقة، وكان جواسيسها يصلون بالتقارير اليومية عن

---

95 -Le Commandant Robin, **Op cit**, p 38.

96 -Gaumier.

97 -Inconnu, **Le Voyage de leur majesté en Algérie**, septembre 1860, Au Typographie de Henri plon, Paris, 1860.

98 -Les notables du Guerara, **Plainte des Mozabites d'El-Kerara** (district de Ghardaïa). 1889. p2.

99 -**Ibid**, p 3.

100 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 38.

101 - Comparer : **Plainte des Mozabite, Op cit**. & Le Commandant Robin, **Op cit**.

الأوضاع في تلك الفترة ويلاحظون أنَّ القبائل الصحراوية تجتاز هذه المنطقة للتزود بكلِّ ما يلزمها من المعاش ومن الأسلحة والبارود أيضاً[102]، حتى اعتبروا أنَّ مزاب هي المصدر الأساسي لتموين المقاومات الشعبية المختلفة ضد التواجد الفرنسي في كامل المنطقة[103].

وقد كانت المادة الخام لإنتاج البارود تأتي إلى مزاب على شكل ملح صخري من "أوقرُوتْ" و"ثْوَاتْ"، ليتم معالجتها فتصبح مادةً صالحةً للانفجار، وكانت تلك الأخبار تصل أسماع فرنسا بواسطة عيونها، والتي ظلت تترصد النشاط المتواصل بين مزاب والثورات الشعبية بالجنوب الوهراني، وكانت تبعث بملاحظاتها إلى الأعيان على أنها تعرف ما يجرى في بلادهم[104].

وقد رد بعض الناطقين باسم مزاب في سنة 1866 على بعض هذه الملاحظات بقولهم: " لا يمكن تضخيم حجم كمية البارود التي صنعت قبل سنوات 1864، فانقطاع التجارة بين مزاب وتوات قد حرمها من المواد الأولية _الملح الصخري[105]_"؛ وآخر التقارير يعود إلى نوفمبر 1881 والذي قدّمه قائد حامية "القُولية" عند مروره من مزاب وقد ذكر فيه: "إنَّ كلَّ السلاح والبارود المستعمل في الغرب يأتي من مزاب، كذلك فقد فرّ رفقاء "أحمد بن أحمد" من الجلفة إلى مزاب لتوفر الأمن لهم هنالك"، وأنهى قوله: "بأن المزابيين لم يطبقوا من المعاهدة إلاَّ الشروط التي تناسبهم"[106].

وبالمقابل يظهر أنَّ الفرنسيين هم أيضاً كانوا يطبقون من تلك المعاهدة ما يناسبهم، بحيث كانوا يتدخلون في السياسة الداخلية لمزاب؛ وكانت كلُّ الفتن الواقعة في الفترة الممتدة من سنة 1853 إلى 1882 داخل مزاب لفرنسا يد فيها؛ في الوقت الذي نصَّت المعاهدة على أنّ الفرنسيين لا يتدخلون في مزاب، كذلك نجد المَحلاَت العسكرية التي كانت تتجه صوب الصحراء تمر بمزاب القصد منها تمريغ كبرياء وسلب حرية المزابيين الرافضين وجود "الكفّار" في أرضهم، حتى أنَّ "مرقريت" اقتحم سور مدينة غرداية في طريقه نحو ورقلة في خطوة استفزازية، في الوقت الذي تنصُّ فيه المعاهدة على أنَّ مزاب بلد مستقل لا تدخله السلطة الفرنسية.

حتى أنَّ مرسوم "كرِوميُو" في سنة 1870 المانح المواطنة للإسرائيليين المُقيمين بالجزائر[107] لم يستفد منه يهود مزاب كونهم خارج التراب الفرنسي وهم تحت ظل معاهدة خاصة تربط وطنهم مزاب بفرنسا، سواء كانوا في مزاب أو في القطر الجزائري[108]، بل كان القبول يتم بحسب الحالات وبشكل فردي باتِّباع شروط ذات القانون[109]، إلى جانب ذلك فقد كانت فرنسا تراقب كل التطورات الميدانية الحاصلة من إعادة تحصين المدن وغير

---

102 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 37.

103 - Donald C. Holcinger, **Op cit**, p 69.

104 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 38.

105 - نترات البوتاسيوم.

106 - Charles Amat, **Op Cit**, p 25.

107 - Charles-André Julien, **Op cit**, p 467.

108 - Jung Eugène, **Op cit**, p 74.

109 - Paul Bathmann, **De la cession de biens en droit Romain de la condition des personnes en Algérie en droit français**, thèses pour le Doctorat à la faculté de droit, Nancy, 1894. p183.

ذلك، إذ تابعت عن كثب إعادة تشييد صور بني يسجن بين سنوات 1860-1868[110] تحسبا للطوارئ المحتملة[111].

3_ الإلحاق العسكري لمزاب 1882

تحيَّنت فرنسا سبباً واهياً لتتدخل بشكل نهائي في مزاب بحيث وجدت الذريعة في تنقل وتجوال قَتَلة العقيد "فْلاَتَرس" والمهمة التي كانت معه في مارس 1881، داخل منطقة مزاب والمناطق الآمنة وسط الممتلكات الفرنسية دون أن يتم طردهم ومحاسبتهم[112]؛ وبناءًا على المعلومات الصادرة في جريدة الخبر بتاريخ 1882/10/28 والتي تناقلتها الصحافة الجزائرية الفرنسية آنذاك والتي ورد فيها: "ستكون هناك عمّا قريب قطعة عسكرية في مزاب لإلحاقها بفرنسا"، ولكن لم يذكر سبب واضح لهذه الخطوة، فقد كان مجموعة من الجنرالات قد طرحوا بعض الاقتراحات لإلغاء المعاهدة المقيِّدة مع مزاب منذ سنة 1853 وإلحاقها بنفس تنظيم باقي المناطق[113].

وبحسب الجريدة الناقلة للخبر "الخبر"[114] والمستندة إلى تقارير رسمية في الجزائر: "فإن الهدف من هذه المحلة هو توجهها إلى متليلي لإنشاء ملحقة عسكرية تكون خطاً أمامياً في الصحراء جنوب عمالة الجزائر"، كما كان عليه الحال بالنسبة لعين الصفراء في الجنوب الوهراني، لكن الجرائد الصادرة في باريس كانت تؤكد أن هدف المحلة هو مزاب وليس متليلي، وهذه إشارة إلى أنَّ التقارير كانت تصل متناقضة من الحكومة بالجزائر، حيث نقلت وكالة "هافاس" (Havas) إلى جريدة "الوقت" (Le Temps) بتاريخ 10 نوفمبر 1882: "محلة استعمارية متجهة صوب مزاب متكونة من فوجين من المشاة وسريّة من الخيالة وقطعة من سلاح المدفعية، تحت قيادة الجنرال "دو لاتور"[115].

ويكون على القطعة المزمع إرسالها الجنرال "لاتور دافينيي" (De Latour D'Avegner)، الذي تم استشارته في سنة 1881 _كقائد لوحدة المديّة_ من طرف الحكومة حول الفرص السانحة لإخضاع مزاب إلى النظام الفرنسي وجعلها خارج أيّ استثناءٍ سياسيٍ أو قضائيٍ أو إداريٍ، فكان ردّه في ذلك الوقت بعد أن قام بجولة صغيرة إلى نواحي مزاب على رأس محلة صغيرة لدراسة المسألة بتفاصيلها: "على الأرجح إنه من اللائق ترك حال مزاب لاستقلاله الداخلي، مع تشديد المراقبة على هذا البلد؛ إلى أن تضطرَّنا مصلحتنا _وبموافقة عفوَّية من المزابيين_ وتجبرنا على تغيير وضع الوصاية الحالية إلى إلحاق نهائي"[116].

---

110 - يوسف بن بكير الحاج سعيد ، **تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية**، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007. ص 110.

111 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 11.

112 - **Quotidian Le Temps**, Affaire des colonies, 22/11/1882.

113 - **Ibid** , 28 October 1892.

114 - **Ibid.** 28 October 1892.

115 - **Ibid**, 12/11/1882.

116 - **Quotidien Le Temps,** 28/10/1892.

وبحسب ذات اليومية "الوقت" (Le Temps) لتاريخ 1882/11/12 فإنَّ المحلة عندما تصل غرداية عاصمة مزاب من المقرر أن تخطو الخطوات التالية:

1- تبليغ الجنرال القائد للمحلة سكان مزاب مرسوم الإلحاق العسكري.

2- الشروع فوراً في أعمال تشييد حصن عسكري وإنشاء خط تلغراف أمامي يربط الناحية بالأغواط.

3- ترك حامية بها مشكلة من 100 جندي و25 من الصبايحية، ويكون "ديديي" (Didier) _قائد الكتيبة وقائد الوحدة العسكرية لبوسعادة_ قائداً على الدائرة العسكرية لمزاب، ويكون "ماسوتيي" (Massotier) _ملازم أول في "الزواف" (Zouave) ورئيس المكتب العربي للجلفة_ رئيساً للمكتب العربي لغرداية"[117].

تبدّدت الشكوك بأنَّ الأمور كانت قد خُطّت سلفاً، حيث أنَّ الحاكم العام "لويس ترمان" كان يتحدث عن التحصينات الأمامية في مشروعاته الاستعمارية وذلك في إطار ما أسماه بالاستعمار الرسمي فهو ذو مشاريع استعمارية واضحة وكان وراء برنامج إحقاق الملكية الفردية لنقل باقي الأراضي إلى الدُّومِين العام، وتمكين هجرة الأوروبيين إلى الجزائر للراغبين في ذلك خاصة المتضررين في المحافظات الفرنسية التي أصاب حقولها مرض الفلكسرة الذي يصيب الكروم، وأيضاً تأسيس جيش استعماري، ومد سكك الحديد نحو الصحراء، ودعم جهاز الدرك والمخافر بالعنصر المحلي[118]...؛ وقد دافع هذا الأخير فيما يخص موضوع إلحاق مزاب ضمن مشروعه بقوله: <<رغم معاهدة 1853 فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للصراعات الدَّامية، وفي نفس الوقت مركزاً لإعاشة الثوار وتموين الجنوب الوهراني؛ ورأت فرنسا أن تُلحق مزاب كلّية على أن يُترك لهم التمتع بعاداتهم وتنظيماتهم المحلية>>[119].

يذكر العقيد "روبان" أنَّ التحضير للحملة كان خلال شهر أكتوبر من العام 1882 فاتخذت السلطة العسكرية تحت إمرة الحاكم العام كلَّ التدابير وجهَّزت للحملة على مزاب، وفي العاشر نوفمبر انطلقت المحلة من الأغواط مشكلة من 1175 رجل بين ضابط وضابط صف وجندي، 1458 دابة بين حصان وبغل وجمل[120]، مع إمكانياتها من البنّائين والحدّادين والنّجارين، لتصل في 14 نوفمبر بريان، وفي 17 نوفمبر دخلت مدينة غرداية، وقد أعلن الشيخ امحمد بن يوسف أطفيَّش الشهير بـــ"القطب أطفيَّش" مع مسير هذه الحملة نحو مزاب الجهاد ضد الكفّار، ونصَّب خيمته في ساحة الوادي مع طلبته، وبقي على هذا لعدة أيامٍ ثم جمع خيمته وطلبته وعاد إلى بني يسجن واعتزل ليتفرغ للتأليف وجهاد القلم[121]، ووجه الجنرال ندائه لسكان مزاب، وأعلن إلحاقه لبلدهم إلى فرنسا مع:

1- ترك التنظيمات على ما هي عليه في تسيير البلد من مؤسسات عرفية.

---

117 - **Ibid**, 12/11/1882.

118 - **Ibid**, 22/11/1882.

119 -انظر نص كلمة ترمان عند الإلحاق العسكري، ملحق الوثائق، الملحق رقم **02**.

120 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 40.

121 -الشيخ أطفيَّش، انظر الفصل الثالث.

2- الاحتفاظ بتنظيم الجماعات البلدية للإدارة والشيوخ للقضاء.

3- تأكيد سلطة الرؤساء المنفذين لآراء المشايخ ما دامت لا تمس الأمن العام[122].

وتم الإعلان الرسمي عن إلحاق مزاب في 30 نوفمبر 1882 بإنشاء منصب رئيس للدائرة الناشئة ووضع الحجر الأساس للبرج الذي سيكون مركز القيادة، وبقيت المحلة العسكرية إلى نهاية ديسمبر حيث بقيت فرقتين من "الزواف" وفرقتين من الكتيبة الثانية للمشاة الإفريقية الخفيفة، لتغادر المحلة الاستعمارية عائدة نحو الأغواط عبر القرارة[123] بعد مدة من ذلك.

وبدأت أعمال إنشاء البرج الذي سيأوي 34 ضابطاً و155 من الرجال وعتاداً ومخازن ومكتباً عربياً، وضمَّت الدائرة الجديدة: مزاب وورقلة ومتليلي والقُولية، وشُكِّلت فرقة للقوة العمومية، وشُرع مباشرة في مد خطوط التلغراف من الأغواط نحو مزاب ليصبح جاهزاً في 05 مارس 1883، كما شُرع أيضاً في شقِّ الطريق الذي تسلُكُه العربات بين الأغواط وغرداية بداية من ديسمبر 1882، وشُرع في مد الطريق باتجاه ورقلة في 23 أفريل 1883[124] على أمل مدِّه لاحقاً باتجاه عين صالح[125].

تصاعدت الردود والشكاوي حول الإلحاق الفرنسي لمزاب رغم السكوت من الجهات الرسمية ومن الصحافة الجزائرية[126]، ومن تمَّ حاول الحاكم العام "ترمان" تبرير دواعي احتلال مزاب، لأنَّ دستور فرنسا لسنة 1875 يحدد أنَّ كلَّ إلحاقٍ يجب أن يكون ضمن موضوع مادةٍ أو قانونٍ خاصٍ، في حين أنَّ أيَّ قانون صوّت عليه أو نشر رسمياً على هذا الإلحاق أو قد أُعلن، في الوقت الذي وبحسب الدستور كان يجب أن يكون للمزابيين صوتٌ بمجلس النواب للتعبير عن رأيهم[127].

لقد كان لهذه الخطوة التي قامت بها فرنسا تجاه مزاب الأثر الكبير على الجنوب، بدايةً من خضوع أولاد سيدي الشيخ لنقص الإمداد من مزاب، ونهاية ثورتهم في 1883[128]، وأصبح بإلحاق المنطقة مزاب منطقة نفوذٌ وسلطةٌ عسكرية، والأهالي الذين يقطنون بها هم تحت السلطة العسكرية من حيث القضايا الجزائية، أمَّا في الشؤون المدنية فقد حافظ قرار 01 جانفي 1883 على جانبٍ من المؤسسات التقليدية للبلد: "حيث أنَّ القصور مستقلة في التسيير من طرف أعيانها، ويسهر أهلها على القانون الذي يسيرهم بحسب أعرافهم، وسلطتهم تحدده الهيئة الدينية للمدينة"[129]، ولم يزر الحاكم العام "لويس ترمان" مزاب بعد إلحاقها مباشرة حتى 29 فيفري 1884،

---

122 - **Le Temps**, 22/11/1882.

123 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 41.

124 - Le Commandant Robin, **Op cit**, p 45.

125 - **Chron-Trim** 1886-10-00,32-4, 7.2.

126 - **Le Temps**, 24/11/1882.

127 - jung Eugène , **Op cit**, p 74.

128 - H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op Cit**, t3, p 26.

129 - Paul Bachmann, **Op cit**, p 170.

للوقوف على سير الأوضاع هناك كما زار غرداية ومسجدها والمعبد اليهودي، وزار في الفاتح مارس كلاً من مليكة وبني يسجن والبرج الذي لا يزال قيد التشييد[130]، ثم انطلق باتجاه ورقلة.

أنشأ نفس القرار السابق في كلِّ مدينةٍ بمزاب محكمة إباضية مشكَّلة من رئيسٍ وهو شيخ المسجد ومستشارين تستأنف في القضاء بين المزابيين في نفس الشؤون التي يستأنف فيها القاضي في التراب العسكري[131]، وأراد القرار الصادر في 09 فيفري 1885 إدارة الاتفاقات والخصومات بين المزابيين وغيرهم بحسب قانون الأهالي خارج مزاب، على أن يكون الخيار في الطلب للقاضي الفرنسي تطبيق القانون الخصوصي إن أراد، وبقيت الحالة القانونية بين أخذٍ وردٍّ لأنَّ المزابيين رفضوا السير على القانون الفرنسي حتى يُرد على قانون الأهالي، إلى أن جاء مرسوم 29 ديسمبر 1890 ليفعِّلَ رسمياً المحاكم الإباضية في الجزائر، ومن تم رفع مرسوم 26 فيفري 1891 عدد المحاكم الإباضية إلى ثمان ملحقاتٍ ويدفع المزابيين رواتب عمال هذه المحاكم[132]، فكان المزابيون يقيّدون من سلطان فرنسا المتطاول على المنطقة وكانت هذه من ثمرات جهود الرد على السياسة الفرنسية.

المبحث الرابع: التوغل نحو الهقار واحتلاله

3_ الخطوط الكبرى للتوغل نحو أقصى الصحراء

استطالت محاولات الوصول إلى السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى من الجنوب الشرقي على طول النصف الثاني للقرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين، وقد تدرّجت معه الآلة الاستعمارية إلى غاية تحقيق مبلغها بالتقاء القوة الفرنسية بالسودان مع نظيرتها بالجزائر.

بداية، احتُلّ شريط الصحراء الشمالية الممتد شرقاً من سوف وأريغ إلى مزاب وورقلة إلى سيدي الشيخ وفِقّيقْ غرباً، حيث احتلت تقّرت وسُوفْ سنة 1854، ونظراً لانعدام الماء والحاجة إليه فقد شرعت في حفر آبار ارتوازية في تلك المنطقة، مما جعل الفرنسيين يربحون هذه النقطة لصالحهم عبر جلب الرعاة والأهالي إليهم[133]، ثم تواصلت الحركة نحو الجنوب الشرقي باتجاه ورقلة التي احتلت سنة 1857، وفي نفس الوقت محاولة التواصل مع الطوارق زعماء الصحراء والطرق في أقصى الجنوب، فقد أُرسل الرائد "بونمان" (Bonemain) إلى غدامس سنة 1856، ثم أُرسل بالمترجم العسكري "إسماعيل بوضربة" سنة 1858 إلى غات، ونهاية تلك المرحلة كانت سنة 1860 عند بداية الرحالات العلمية[134].

وكانت فترة الستينيات والسبعينيات من ذات القرن فترة الرحلات الاستكشافية والعلمية، والعودة بالتقارير الجغرافية والجيولوجية والاقتصادية من أجل مدِّ سكك الحديد وربط الجزائر بالسودان، وقام بهذه الرحلات مختصون وهواة وأشهرهم "هنري ديفريي" 1860-1861، و"بول صوليي" سنة 1873، و"لارجو" (Largeau)

130 - **Chron-Trim** 1884-04-00, 21-12, 31.

131 - Paul Bachmann, **Op cit**, p 171.

132 - **Ibid**, p 171.

133 - J. Peytral & Marie Peytral, **Op cit**, p 23.

134 - H. M. De la Martinière & N. Lacroix, **Op Cit**, t3, p 6.

سنة 1876، وكذا "ماسكوري" (Masqueray) إلى مزاب سنة 1878 وكانت الرحلات مدعمة من الحكومة ومن المؤسسات الجغرافية ومنها الخاصة بدعم مشروع سكة الحديد[135].

في حين كانت هناك خطوات عسكرية في الصحراء الوسطى والغربية بدايةً بوقف ثورة أولاد سيدي الشيخ بداية من 1864 إلى احتلال الأبيض أولاد سيدي الشيخ 1882 بعد ثورة بوعمامة؛ في نفس وقت إلحاق مزاب، ثم الامتداد على كل المناطق جنوب مزاب في كلٍّ من القُوليَة وورقلة باتجاه عين صالح، وفي ذلك الوقت حاولت مجموعة من الطوارق القادمين من الهقار _على بعد 1200 كلم جنوب القُولية_ وكردٍّ فعلٍ استباقيٍّ على أن لا تفكر فرنسا في التقدم أكثر إلى الجنوب من القُولية، بعد وصولها إليها سنة 1885 هاجموا مركزاً عسكرياً منصّباً في "حاسي إنفل" منذ سنة 1887، وهم في أربعين تارقياً، لكن تدخل العملاء من البدو العاملين لصالح فرنسا أفسد عليهم خطتهم، مما جعلهم يسقطون أمامهم وقتل منهم ثمانية وأسر سبعة آخرون لِيُقتادوا إلى مدينة الجزائر[136].

وأهم الرحلات الاستكشافية في تلك الفترة هي "رحلة فلاترس" 1880-1881[137] الذي حاول فيها وفي مناسبتين اجتياز سلسلة الهقار، ولكن قُتِلَ هو ومهمته في المناسبة الثانية، فقامت الأصوات في داخل وخارج فرنسا منادية بضرورة الثأر لهذه العملية، وأيضاً كانت متبوعةً بقتل ثلاثةٍ من الآباء البيض المنصِّرين الذين هم أيضاً راحوا بحثاً عن الوصول إلى "تنبكتو"[138]، وقد كانت تلك الحوادث من بين الذرائع التي عجلت باحتلال مزاب احتلالاً عسكرياً مباشراً، حين لجأ بعض من قد قضى على مهمة "فلاترس" إلى مزاب في أواسط سنة 1882؛ وقد تمت عملية السيطرة على القولية ونواحيها بين عامي 1887 وسنة 1890.

وكانت بداية مرحلة جديدة في التعامل، إذ حاولت فرنسا التقرب أكثر من طوارق "نآجّر"، الذين ربطت معهم اتفاقية تجارية منذ سنة 1862 ضد طوارق "الأهقار" للصراع الذي كان قائما بينهم، وقد زار وفد من هذه الكونفدرالية مدينة الجزائر في سنة 1892 على أمل البحث عن سبيلٍ آخر للتواصل مع الفرنسيين خاصة وأنَّ إغلاق الطرق المؤدية إلى مزاب بعد احتلالها أو المؤدية إلى القُولية بعد استخدام سكان المنطقة من البدو ضد الطوارق قد أضرَّ بهم كثيراً لأنَّ حياتهم متوقفة على هذه التجارة والحركة.

في التسعينيات من ذات القرن أصبحت الرحلات عبارة عن بعثات علمية مدعَّمة بِفِرقٍ عسكريةٍ، وقد أعقبت زيارة الوفد إلى الجزائر إرسال "فرناند فورو" (Fernand Foureau) ليباشر المهمات الاستطلاعات في الصحراء بعد مهمة "فلاترس" قصد الوصول إلى السودان، وتلقى دعماً مادياً ومعنوياً من كلٍّ من المؤسسة الجغرافية لباريس ووزارة الحربية ووزارة التعليم العمومي وقام بين سنوات 1893 و1899 بتسع رحلاتٍ[139]، وقد وجد معارضةً في الدخول حتى من طوارق "نآجّر" بسبب الخلاف حول طرق الرحلة والجمال المستعملة

---

135 - voir: P. Vuillot, **Op cit.**

136 -**Ibid**, p 240.

137 -Gustave vallat, **Op cit**, p 323.

138 -انظر الفصل الثاني، المبحث الثاني.

139 - Gustave vallat**, Op cit**, p 93.

ومصدرها..، على أن يشاركوهم في المهمات ويستفيدوا منهم، فكان يُضطر في كلِّ مرةٍ أن يعود أدراجه ولكنه ابتداء من 1898 أصبحت قوافله مشكلة من ثلة من فرق المهاري الصحراوية وفرقة من "التركوس" (Turcos) على رأسهم "لامي" (Lamy) أولَّ قائد لمركز القُولية[140]، وتقدم "فورو" في مهمته من دون مشاكل تذكر وقد تحولت هذه الجولات إلى استطلاعات عسكرية أكثر من كونها مهام علمية.

وفي تلك الفترة عادت الآلة العسكرية من جديدٍ للتقدُّم بعد أن جمعت ما يكفى من المعلومات، فكلف الجنرالات "مريبل" و"بريال" (Barail) بالتخطيط والتحضير لاحتلال "عين صالح" وواحات "تْوات" وتمَّ فعلياً التحضير لهذا، لكن كان على فرنسا الانتظار عشر سنوات قبل أن تعرف تقدماً جديداً نظراً للظروف العالمية في تلك الفترة والتي لم تكن تسمح بذلك، حيث دخلت كلٌّ من فرنسا وانجلترا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا في صراع وتنافس استعماري متنامي، واهتمت فرنسا بتأمين ممتلكاتها في أفريقيا السوداء أمام انجلترا وألمانيا[141]، ومع نهاية هذه العشرية أخذت فرنسا عادت للتحرك من جديدٍ في الصحراء الجزائرية باتجاه عين صالح، أين احتلتها في جانفي 1900 واجتمع المقاومون من "تِدِكَلت" و"تْوات" ضد القوات الفرنسية لكنها لم تُفلح في رد الهجوم نظراً للمسافة البعيدة بين الواحة والأخرى؛ واستقبلت السلطات الفرنسية في الجزائر الخبر بفرح وبهجة، وعبّر المفتي للحاكم العام "لافيريار" (La Ferrière) في ليلة 27 رمضان الموافق لـــ 27 جانفي من نفس السنة بأنه حدثٌ هام في أرض الإسلام والأهالي وسيستمتعون بهذا الانتصار ضد قطاع الطرق[142].

2_ الاستعمار يستكمل احتلاله للجزائر

بإحراز احتلال "عين صالح" امتدت الجيوش الفرنسية نحو "تْوات" أين وقعت معارك كبيرة بين أهالي "تْوات" وبين الفرنسيين في "عين غار" سقط فيها "باشا تميّ" حاكم توات أسيراً، كما سارت فرنسا نحو سلسلة الهقار، حيث بدأ المقدم "لابِرين" (Laperrine) بجولاتٍ على عرض هضبة "تادميت" وأطلس الهقار، وكان يستعين بفرق "المهاري الصحراوية" من البدو ليحرز بهم تقدماً جديداً[143]، وفي سنة 1904 يقوم "لاَبِرين" و"قُوتيي" (Gautier) و"الأب شارل دو فوكولد"[144] (De Foucauld) بالالتفاف حول الهقار من الغرب، ليستقر بعدها "دو فوكولد" بشكل نهائي في تمنغاست بطلب من الجنرال لابرين، لقدرته على كسب السكان ومعرفته بلغة الطوارق وإمكانية كونه واسطة لفرنسا مع طوارق الأهقار[145]، خاصة وكان الأمنوكل[146] "موسى أق أمستان"

---

140 - **Ibid**, p 223.

141 - Jean-Charles Humbert, **Op cit**, p 6.

142 - Gustave vallat**, Op cit**, p 297.

143 - Paul Azen, **Op cit**, p 35.

144 - انظر الفصل الثالث، المبحث الثالث.

145 - O' Meynier, **La pacification du Sahara & la penetration Saharienne (1852-1930)**, dans Cahier du centenaire de l'Algérei, publication du comité national métropolitain du centenaire, Alger, 1830. p 33.

146 - هو زعيم القبيلة بلسان التمهاغت.

والذي كان في هذه المرحلة قد دخل في صراع على منصب الزعامة منذ وفاة "أهتاغل" آخر "أمنوكل" فعلي لكونفدرالية الأهقار، وقد دعمته فرنسا لأخذ موقعٍ له على رأس الطوارق نظراً لموقفه المسالم لفرنسا، وقد وقّع معاهدة صداقة مع الفرنسيين سنة 1904 في "عين صالح"[147].

كانت فرنسا تراقب الوضعية في المنطقة الجبلية، عبر عيْنِها الساهرة شارل دوفوكو[148]، حيث كان الصراع دائراً بين قبائل الطوارق المحاصرين اقتصادياً، بعد أن أصبحت فرنسا مسيطرة على "عين صالح" سنة 1900 و"ثْوات" في 1901 في الشمال والغرب و"تنبكتو" في السودان منذ سنة 1894، مما ولّد صراعاً فيما بينها على ما تبقى من الطُرق والمنافذ، حيث احتدم الصراع بين سنوات 1908- 1910 زُحزحت معه طوارق "التايتوك" نحو السودان الغربي جنوباً و"الآير" انزاحوا أكثر نحو الشرق[149].

وأتمَّ "لاَبِّرين" حركة الاحتلال بين 1911 و1913؛ وفي 1914 باحتلال فرنسا لبلاد "ناجر" تم تلحيم السودان الفرنسي بشمال إفريقيا عبر الصحراء، ومن جهة أخرى تقدم الإيطاليون المحتلون لليبيا نحو الصحراء حيث احتلت غدامس في 1913 وغات في أوت 1914[150]، ولكن هذا الاحتلال لم يُستكمل قبل نهاية الحرب العالمية الأولى حيث حاول الطوارق أن يقوموا بحركة استرداد مع بداية الحرب العالمية، وكانت تدعمهم "الحركة السنوسية" التي اندفعت نحو الغرب مع تقدم الإيطاليين في طرابلس الغرب، واستطاع الشيخ "آمُّود" مع الأحداث الجارية في الصحراء الكبرى والدعم الذي لقيه من "الكنتيين" و"السنوسيين" أن يُنادي إلى الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي في المنطقة بداية من سنة 1916؛ وقد ألحقت ثورته عدة هزائم بالجيش الفرنسي في الجزء الشرقي من الصحراء الجزائرية، إذ عاد ليسيطر على "جانت" التي تخلى عنها بعد معركة في سنة 1909[151]، وحقق انتصاراً في "عين امقل" وامتدت حركته حتى تمنغاست أين أُخلي حصن متلانسكي (Motilensky)، وقُتل دو فوكو[152]، ولم تستبَّ الأمور للفرنسيين قبل مساهمة فرق المهاري الصحراوية المشكلة أساساً من الأهالي في رد الثورات وترجيح الكفة من جديد لصالح فرنسا في 1918[153]، حيث خف ضغط الطوارق في الوقت الذي توجه فيه السنوسية لمقاومة الاحتلال الإيطالي لليبيا.

---

147 -René Bazin, **Charles De Foucauld Explorateur du Maroc & Ermite de Sahara**, Libraire Plon & Plon-Nourrit Imp-éd, Paris, 1921. p 315**.**

148 - انظر الفصل الثالث، المبحث الثالث.

149 - Claude Blanguemon, **Le Hoggar**, Arthaud Lib, 1er, Paris, 1955. p 168.

150 -Paul Azen, **Op cit**, p 42**.**

151 - محمد سعيد القشاط، **الصحراء تشتعل 1899–1931**، دار الملتقى للطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 1998. ص 85.

152 - محمد سعيد القشاط، **المرجع السابق**، ص 282.

153 - Paul Azen, **Op cit**, p 38.

3_ التطورات في غرب إفريقيا مع نهاية القرن 19

بدأ يشهد جنوب الصحراء الكبرى منذ 1887 تطوراً ملحوظاً خاصة في السودان الغربي، حيث شهد امتداداً في الممتلكات الفرنسية في أعالي السنغال وأعالي النيجر إلى الساحل الأطلسي وخليج غينيا، وفي تلك الفترة قاد العقيد "غاليني" (Colonel Gallieni) سلسلة حملات عسكرية واستطلاعات استكشافية كُلِّلت بضَمِّ الجزء الممتد بين السنغال العليا وأعالي النيجر وهضاب "فوتا- غالون" هذه التي تعرف بالسودان الفرنسي[154]، ومنها تم محاولة اختراق النهر بالزوارق إلى غاية النيجر الأعلى ومحاولة الاقتراب من "تنبكتو" خلال 1887 إلى نهاية 1889، وكذلك من جهة أخرى في نواحي التشاد، كانت الشركات الفرنسية تحرز تقدماً وصولاً إلى حدود الكاميرون أين بسط الألمان سيطرتهم بين الممتلكات الفرنسية والانجليزية، واستلزم الأمر الإسراع في إيجاد مخرج مرضي للأطراف حتى لا تتطور الأمور لصراعٍ على مناطق النفوذ أين تمّ توقيع معاهدة بين فرنسا وألمانيا في 15 مارس 1894 لتوضح الحدود بين المستعمرات الفرنسية في الكونغو والألمانية في الكاميرون كتعديل للمفاهمة الواقعة في 24 ديسمبر 1885 في هذا الشأن.

أمَّا أهم حدثٍ كان مع نهاية القرن 19 هو دخول الملازم الأول "بواتو" (Boiteux) إلى "تنبكتو" بعد معركة طاحنة في 25 ديسمبر 1893، وتمَّ الاحتلال من طرف العقيد "بوينيي" (Boinnier) في 10 جانفي 1893 ولكن المقاومة استمرت من طرف الطوارق في كلِّ نواحي "تنبكتو" إلى غاية 1897[155]، وبعد هذا الاحتلال استطاعت فرنسا التوغل حتى حدود الصحراء من الجنوب، وهكذا ربطت فرنسا السودان بالساحل عبر السنغال، وبقي عليها في هذه الفترة ربط النيجر مع ممتلكاتها في شمال إفريقيا عبر التوغل عبر الصحراء الكبرى في الجنوب الجزائري لتحقيق هذا الغرض[156].

تقدمت القوات الفرنسية إلى شمال السودان الغربي سيراً في بلاد الطوارق شمال تنبكتو نحو النيجر، أين دخلت في صراح مع الطوارق "الآير" و"أوليدن" و"كل أغاروس" بين سنوات 1902- 1906 وخاصة وأنَّ هذه القبائل كانت مدعومة بالسنوسية من الشرق، فكانت المعارك الدائرة أحياناً تكون الغلبة فيها للطوارق وأخرى للفرنسيين الذين استغلوا التفوق العسكري لإحراز التقدم[157]، فاستكمل احتلال شمال النيجر ومالي في 1909، والتقت القوَّتين الفرنسيتين للسودان وللجزائر، ووحدت فرنسا مستعمراتها في غرب إفريقيا.

وقد حمت حمية الدول والمستكشفين بمن فيهم من الرواد الدينيين والمنصرين حاملين لأعلام بلدانهم من أجل الحصول على أقصى منطقة نفود ممكنة؛ وبأسرع وقتٍ ورغم التعثرات التي كان يُمنى بها العديد منهم إلاَّ أنَّ التحالف والتفاهمات فيما بينهم من أجل أهدافهم كانت أهمَّ وسيلةٍ استعملت للتقليل من الصدمات، وبذلك

---

154 - Philebert & Georges Rolland, **Op cit,** p p 26.

155 - Gustave vallat, **Op cit**, p 163.

156 -**Ibid**, p 214.

157 - محمد سعيد القشاط، **المرجع السابق**، ص 282.

تمكنت فرنسا من بسط سلطانها السياسي والعسكري على كامل منطقة شمال إفريقيا ممتدة عبر الصحراء إلى كامل السودان الغربي تقريبا.

الفصل الثاني:

التنصير في الجزائر وتوغله نحو الصحراء

المبحث الأول: تطور الحركة التَّنصيرية في الكنيسة الكاثوليكية

المبحث الثاني: الحركة التَّنصيرية بالجزائر في القرن 19م

المبحث الثالث: التنصير في الصحراء

الفصل الثاني: التنصير في الجزائر وتوغله نحو الصحراء

من بين الحركات التي شهدها العالم أيضا في العصر الحديث بالتوازي مع المد الاستعماري "الروح التَّنصيرية الصليبية" التي لُفَّت بها الأطماع الاستعمارية التوسعيّة، فبعد أن صارت الحرب الصليبية أمراً عقيماً وشيئاً من الماضي غيرت الكنيسة من طرق ووسائل عملها؛ فبعد أن تكفَّلت الجيوش النظامية مؤونة حمل السلاح اتجهت هي إلى اللعب على الوتر الانساني؛ فبعد أن تدمِّر جيوش الاستعمار الأهالي تأتي فرق المنصرين لتضمد جراحهم؛ كما عمل المنصّرون على فتح المعابر والسبل والاشتغال كروّاد جنباً إلى جنب مع المستكشفين والجغرافيين المغامرين؛ وقد بدت الأمور أكثر تنظيماً من أزمنة الحروب الصليبية، وبقدر ما كانت الدولة تتحكم في جيوشها النظامية كانت الكنيسة ومن خلفها الكرسي البابوي متحكماً في المجال التنصيري بحيث يقسم الميدان بين الجمعيات والمؤسسات الدينية التابعة لدول النفود في المستعمرات، وهو ما شهدته الجزائر وصحرائها.

المبحث الأول: تطور الحركة التنصيرية في الكنيسة الكاثوليكية

1ـ مفهوم التبشير والتنصير

كرّست الكنيسة جهودها للتنصير بالمعتقد النصراني في العالم الإسلامي منذ العهود الأولى لتلاقي الإسلام بالمسيحية، سعياً منها لاقتلاع الإسلام من نفوس الناس وإحلال المسيحية محله[158]، وكلمة "التنصير" تعني لغوياً الدعوة إلى اعتناق النَّصرانية، وإدخال غير النَّصارى في النَّصرانية، وقد ورد في الحديث الشريف: «يولد الولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

إلاّ أنَّ النّصرانية لم تبقى كما عنى بها أتباع هديِ عيسى عليه السلام أول الأمر، بل أخذت تتلون بأفكار أخرى حملها عليه كل من الدعاة "بولس"[159] ومن أتى بعده، والذين ألقوا هالة على شخص المسيح عليه السلام، كما جاء في الآية القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابنُ الله، ذَلِكَ قَولُهُم بِأفوَاهِهِم يُضَاهُونَ قَولَ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ﴾[160]؛ للدلالة على أنَّ النصارى قد بدّلوا دين الله الذي أُرسل به عيسى عليه السلام.

ويبقى التساؤل والخلاف حول أصل الكلمة، إن كانت من معنى "أنصار عيسى عليه السلام"، كما في الآية، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أحَسَّ عِيسَى مِنهُمُ الكُفرَ قَالَ: مَن أنصَارِيَ إلَى الله﴾[161]، أو من كلمة ناصري ونصراني نسبة إلى مدينة "النَّاصرة" مولد النبي عيسى عليه السلام في فلسطين، أو من معنى النَّاذر بنفسه للإله[162]، وكلمة "المسيح" هي كلمة "ماسايا" العبرية، وكانت تستعمل لقباً لملوك اليهود وتعريفاً للملك الموعود في معتقداتهم، وكان الملوك يمسحون بالزيت المقدس ويسمَّون بالمُسحاء، وكلمة "يسوع" التي هي في العربية "عيسى" هي كلمة

---

158 - محمد بن الناصر الشتري، **الهجمة التنصيرية على البلاد الإسلامية**، دار الحبيب، ط1، الرياض، 2003. ص 5.

159 - انظر المبحث الثاني.

160 - سورة التوبة، الآية: 30.

161 - سورة آل عمران، الآية: 52.

162 - محمد عثمان صالح، **النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير**، مكتبة ابن القيم، ط1، المدينة المنورة، 1989. ص 11.

عبرية، وهي بمعنى الخلاص فاسم المسيح في كل صيغة هي بمعنى الخلاص، وكان الناس في عصره ــبحسب كتب اليهودــ يترقبون هذا المخلِّص ويبشرون به[163].

كما تعني دلالة كلمة "التبشير" في اللغة على الخبر الذي يفيد السرور، إلاَّ أنها بحسب الأصل اللغوي عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشرة تغييراً، وهذا التغيير يكون للسرور أو للتكدّر، فالواجب أن يكون التبشير صالحاً في القسمين أي في خبر السرور وفي خبر الحزن، فإذا كانت بشارةً بالشر فتكون مقيَّدة بما يدل على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[164]، وأيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٍ﴾[165]؛ ولكن غلب استعمال التبشير للتعبير على السرور[166]، ويبقى أنَّ الاستعمال الذي تُعرَّف به رسالة أتباع النبي عيسى عليه السلام بعد انحرافها عن تعاليمها التي جاء بها هو "النَّصرانية والتَّنصير والمتنصِّر والنصراني"؛ لِمَا جاء في الآية القرآنية السابقة الذِّكر وفي قوله عزَّ وجل: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيءٍ﴾[167]؛ وأيضاً في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «يولد على الفطرة».

فالتبشير بدعوة المخلِّص وبدعوة المسيح والمسيحيين الأوائل الذين كانوا حوله لم تكن إلا تثميناً لديانة موسى عليه السلام قبل تحريفها، هي أيضاً بمن أتى بعده؛ فلم تكن دعوتهم متخلّية تماماً عن اليهودية لأنَّ سيدنا عيسى نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقد بنيت هذه الدعوة على نسق ما كان لدى موسى عليه السلام، فالحواريون كانوا اثنا عشر تلميذاً كما كان في بني إسرائيل اثنا عشر نقيباً، ومن بعد التلاميذ الحواريين جاء معهم سبعون آخرون، كما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه[168]، وهذا تصحيحا للتحريف الحاصل في الديانة اليهودية ومن أتى من بعد عيسى عليه السلام أيضاً زاد في عقيدتها تشويهاً وتحريفاً[169].

وأركان الديانة النصرانية من بعد عيسى عليه السلام وخروجها عن أصولها، خمسة هي: التَّعميد والتَّثليث وأن الابن "أقنوم" التحم بمريم، ثم القربان المقدس، وأخيراً الاعتراف للقس؛ فيكفي النصراني أن يؤمن بهذه الأشياء ثم يفعل بعدها ما شاء لأنَّ الاعتراف للقسِّ كفيلٌ بمغفرة الخطايا ودخول الملكوت الأعلى بغير حساب ولا عقاب؛ فمصير كل نصراني متأرجح بين شفتي القس إن شاء أصدر في حقه صك غفران أو يصدر في حقه قرار حرمان[170].

---

163 - عبد العزيز شلبي، **المرجع السابق**، ص 42.

164 - سورة لقمان، الآية: 7.

165 - سورة الزخرف، الآية: 17.

166 - محمد بن الناصر الشتري ، **المرجع السابق**، ص 10.

167 - سورة البقرة، الآية: 113.

168 - سورة الأعراف، الآية: 143.

169 - عبد الجليل شلبي، **الإرساليات التبشيرية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، [د.ت]. ص 41.

170 - محمد بن الناصر الشتري، **المرجع السابق**، ص 3.

2_ مراحل تطور الحركة التنصيرية

جاءت دعوة المسيح استجابة لمتطلبات الحياة في العهد الروماني، وفي عصرها الإمبراطوري، حيث طغى الانحراف والجفاف الروحي، وكذا ضآلة الشعور بالمعاني والقيم الأخلاقية، حيث كان الحكم الروماني على المستعمرات بالجزء الغربي للعالم القديم وحوض البحر الأبيض المتوسط هو المسؤول عن الظّلم والفاقة الذين عاشتهما شعوب تلك المنطقة، فجاءت دعوة المسيح لإصلاح القلوب العامرة بالكراهية والحقد و"إعلان مملكة الضمير واحتقار المال"[171]؛ إذ دعا سيدنا عيسى إلى عبادة الله وحده لا شريك له والتخلي عن الخضوع للبشر والميول إلى التسامح؛ وقد برهن لهم بمعجزات منحها الله له من إبراء الأكمه والأبرص وكذا إحياء الموتى بإذنه تعالى[172]، وما ألقى هالة عليه فيما بعد هو صعوده من الأرض.

وأخذت المسيحية ودعوتها بعد ارتقاء عيسى عليه السلام إلى السماوات، تتشكل من جانبين:

- فكري؛ يخصّ فكر وعقيدة هذه الدِّعاية.
- تنصيري؛ وهو الدعوة ونشر التعاليم من الدعاة بين الناس.

ولما كان تلاميذ المسيح من قليلي الحظ في العلم وهم خارجون بها إلى الناس التقطها رجل يسمى "بولس"، وهو يهودي مشبّع بالثقافة الهيلينية _الإغريقية_ عاش في زمن عيسى عليه السلام و لم يلتقِ به و لم يرَهُ، وكان أولَّ من أضفى على الدعوة عناصر أخرى من بينها الربوبية والبنوّة الحقيقية وخليطاً آخر من التعليمات، منها منع الختان تخفيفاً على الوثنيين، وفكرة تحوّل الخمر إلى دم والخبز إلى لحم، وقد دخل "بولس" في جدالٍ مع أصحاب الدعوة الأوَّلين (الحواريون) وكان أقوى منهم تأثيراً فأسكتهم، بينما خرج بها هو من بيت المقدس وفلسطين إلى بقية الأمم، وأضاف إليها في تعاليمها ما يجعلها مقبولة لدى حكام عصره[173].

اختفت تعاليم المسيحية الحقيقية مع "بولس" وأحاطها بالغبش، وعملت هذه المسيحية الجديدة على استيعاب مزايا ديانات عصرها، فورثت عن اليهود كتب العهد القديم وطريق الرهبنة وزادت عليهما، واستوعبت قوانين اليهودية الأخلاقية، وأخذت عن الفلسفة الرواقية فكرة الإخاء، ومن الأفلاطونية جوانب صوفية، ورأى الدعاة إليها أن اتحاد الله بالجسد أمرٌ مستحيلٌ لفساد الجسد فلابد إذن من وسيط، ولأنَّ المسيح شخصٌ عاش وراءه الناس وكان أكثر فاعلية في نفوسهم من الآلهة التي سمعوا عنها و لم يروها فقد جُعل منه الواسطة[174]؛ ومن تمّ خالط المسيحية في أوروبا الرومانية القيم والتصورات الوثنية، وأخذ من النظام الروماني الوثنية كسلوك وكتصور وحامي لها فيما بعد القرن الرابع[175].

---

171 - محمد بن الناصر الشتري، **المرجع السابق**، ص 5.

172 - سورة آل عمران، الآية: 49.

173 - عبد الجليل شلبي، **المرجع السابق**، ص 47 .

174 - عبد الجليل شلبي، **المرجع السابق**، ص 48.

175 - عماد الدين خليل، **أحقاد وأطماع التبشير في إفريقيا المسلمة**، المختار الإسلامي، ط2، القاهرة، 1979. ص 7.

ومما زاد من ميول الناس إلى هذه الديانة هو ذلك الاضطهاد الذي عانى منه أفرادها طوال القرون الثلاثة الأولى من طرف الأباطرة الرومانيين، مما جعل الناس يبحثون في فحوى هذه الأفكار وخاصة فكرة المخلّص المرتقب، فظلّت العقائد تترنح وتتأرجح لغياب القاعدة الثابتة؛ حتى عندما تم إصدار "مرسوم ميلانو" المرخِّص للمسيحية على أرض الإمبراطورية الرومانية لم تدل هذه الخطوة إلاَّ على أنه كان عملاً سياسياً بحَت الإمبراطورية من خلاله توجيه هذه العقيدة بما يخدم أغراض الأباطرة بعد إحساسهم بزيادة أتباعها وتوسع رقعتها وضعف سلطانهم في جسم الإمبراطورية[176].

انتشرت الدعوة إلى النصرانية من خلال "بولس" و"بِرنابا" و"مُرقس" صوب كامل فلسطين وسوريا حتى أنطاكية ومصر؛ وانتقل "بولس" و"بطرس" إلى روما وانتهى بهما الحال مقتولين واضطهد الإمبراطور "نيرون" (Néron) كلَّ من يؤمن بأفكارهما، مما أضاف إليهما هالة أخرى، وكذلك قتل "بُطرس" و"مُرقس" ومَثَّل بهما في مصر؛ ولكن التنصير لم يتوقف وتواصل في الانتشار خاصة في ظل فكرة "المنقِذ المخلِّص" اليهودية، والتي خرجت من ضيق اليهودية المقتصرة على الإسرائيليين إلى فضاء المسيحية الأوسع الذي يمكّن الاستفادة من الخلاص للجميع، فتوسعت الدعوة خلال القرون الثلاثة بحثاً عن هذا الإنقاذ حتى كثُرت الآراء والأقوال والعقائد في القرن الرابع مما عجل بالإمبراطور إلى اتخاذ الترخيص للديانة المسيحية في محاولة لاحتوائها ورومنتها[177].

ومن ذلك التاريخ بدأت النصرانية تنتشر بشكلٍ رسميٍّ عبر الأشخاص الذين يسمُّون بـــ"الرسول" (Apôtre) والجماعات الذين يعرفون بالجمعيات الدينية (Congrégation) وأغلبهم كانوا يكرِّسون حياتهم لهذا العمل، منعزلين في الأديرة والكنائس، ولما أخذت كنيسة روما موقعها كأم على الكنائس تشريفاً لمكان مقتل "بُولس" الرسول، وكبر شأنها كمركز للدعوة في أوروبا وبعد أن أعلن البابا ليو (440-461م) في عام 455م من روما خضوع كلَّ الأساقفة[178] الذين يرأسون الكنائس المحلية، وضرورة العودة برأيهم إلى روما لتوحيد العقيدة التي تعدّدت تعدّد الكنائس؛ لكن أساقفة المشرق لم ينصاعوا له في جملتهم[179]، بينما تبعته الكنائس الأخرى الأوروبية.

بعد هذه الخطوة أصبح للبابا بروما منذ ذلك الوقت نفوذٌ قوي بحكم مكانته على أعلى الهرم الكَنَسي، وقد كسب ولاَءَ الشعوب الأوروبية له، فتدخل في سياسة أوروبا خلال فترة العصر الوسيط، وقد تكونت في صلب الكنيسة الجمعيات الرهبانية للقساوسة المهتمين بأعمال مهمات نقل النصرانية ونشرها بين الناس وأقدمها "الدومينيكان"(Ordre des dominicains) و"الفرانسيسكان"(Ordre des Frères mineurs ou franciscains) والتي تكوّنت في بحر القرن السادس، وبعد ذلك ظهرت أيضاً جمعيات "آباء رفقة المسيح"(Les pères de la

---

176 - عبد الجليل شلبي، **المرجع السابق**، ص 65.

177 - علي ابراهيم النملة، **التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته**، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1993. ص 13.

178 - يرأس الأسقف "كنيسة أسقفية"، وهي مقاطعة جغرافية مقسمة بدورها على الأبرشيات وهي الأحياء والمدن التي بها عدد معتبر من المسيحيين. القانون الكنسي، droit Canonique .369 ،

179 - شلبي، **المرجع السابق**، ص 89.

Compagnie de Jésus)، و"قساوسة المهمات الخارجية" (prêtres des missions étrangères)، و"اللاَّزاريت" (Lazaristes)، ثم توسعت الجمعيات الرهبانية إلى نوعين: منها التابعة مباشرةً للبابا وتكون ذات بُعدٍ عالميٍ، ومنها التابع لأسقفيات محلية وهي "الجمعية الأسقفية"[180]، ومنها التابعة للجمعيات الأقدم[181]، فانقسمت الكنيسة على أساس الأسقفيات وعلى أساس الجمعيات الرهبانية.

ولما كانت النصرانية تنتشر ــعلى انحرافهاــ في أصقاع المعمورة كان نور الإسلام قد بزغ وانتشر منذ القرن السابع ميلادي، وأخذ ينتشر في أصقاع العالم ليبدّد معه الخرافات السابقة؛ فشعرت سلطة الكنيسة بتهديد مكانتها في ظل امتداد دولة الإسلام إلى آسيا الصغرى شرقاً وإلى جبال البرانس غرباً، فقد أحس الغرب المسيحي بخطر زوال دولتهم مما دفعهم بردود فعل بلغت أوجها في عصر الحروب الصليبية عندما دبَّ الضعف بالمسلمين في القرن 11م وسرى التفكك والانقسام فيهم، فكانت فرصة سانحة للهجوم على المسلمين، فأعلنت الكنيسة الحرب الصليبية على البلاد الإسلامية بدعوى استرجاع الأرض المقدسة والحصول على الرضوان؛ ودام الصراع في قلب العالم الإسلامي لمدة قرنين من الزمن (1099-1291) لم يتأثر فيها الصليبيون من حضارة المسلمين إلاَّ قليلا، وتحول الصراع إلى غرب المتوسط حيث كانت حركة حرب الاسترداد (La Reconquista) في الأندلس والسواحل الشمالية للبحر المتوسط[182].

ولكن مع بداية العصر الحديث بدأ الأوروبيون يشعرون بأنَّ الدِّين الذي خضعوا له أصبح حجر عثرة أمام تقدمهم، حيث لاحظوا من خلال الحروب ضد المسلمين في الشرق وفي الغرب بأنَّ العلوم قد بلغت بالمسلمين كلّ مبلغ وأن التطور حاصلٌ عندهم، فبدأ نوعٌ من محاولة الفصل بين سلطات الحكام المشجعين للعلم وسيطرة رجال الدِّين الذين لا يزال العامة في أوروبا يؤمنون بهم فجعل حكام الممالك والإمارات الأوروبية يحافظون على مكانة طبقة رجال الدين الدينية والأدبية مع جعلهم دون تأثير على سلطتهم؛ ورافق هذه المرحلة الانفتاح الأوروبي خارج القارة، فيما يعرف بحركة "الكشوف الأوروبية"، فسارت الدعاية الدينية مع هذه الحركية للاندفاع خارج أوروبا على أساس الإقناع لا الإكراه بالحروب بعد الفشل الذّريع الذي منيت به الحروب الصليبية، وأُوكل لهذه المهمة المتمكنون من علوم النصرانية كما أنشأت مدارس خاصة بفنون التنصير في أوروبا وقامت كل طوائف المسيحية تدعوا على منهجها إلى النصرانية؛ ووجد المستعمرون في "الإرساليات التَّنصيرية" خير عونٍ لهم فأمدوها بالمعونات، فكانت كلها قوى متساندة يشدُّ بعضها بعضا[183].

---

[180] - في حديث شخصي مع "الأب جان بيار هنري" المسؤول السابق عن أرشيف الأسقفية في دار الأسقفية بالجزائر، في جوان 2011.

[181] -M. J. Roy, **Histoire Abrégée des Missions Catholiques**, dans les déverses parties du monde depuis la fin du XVe siècle jusqu'à nos jours, Ad Mame & Cb imprimeurs-libraires, tours, 1858. p 4 .

[182] - شلبي، **المرجع السابق**، ص ص 85-94.

[183] - **المرجع نفسه**، ص 159.

حملت الرحلات الاستكشافية معها رجال الكنائس والأديرة لمرافقة الأوروبيين إلى الآفاق الرحبة خارج القارة، حيث يوكل إليهم إنشاء كنائس في تلك المناطق والقيام بكلِّ ما هو مناسبٌ في سبيل التنصير وتثبيت أقدامهم، فتحمست الجموع النصرانية وبدأ البابا يُوفد إرساليات مع السفن إلى أفريقيا وآسيا والعالم الجديد[184]، وبدأت المهمّات تنموا في إفريقيا وآسيا، وكانت البداية في غرب إفريقيا مع "الدومينيكان" أين أوفدت بجمعيتين رهبانيتين[185]؛ وفي القرن الثامن عشرة أرسل "مجمع نشر الإيمان" (Sacrée congrégation pour la propagation de la foi) بعضا من الرهبان ورجال الدين الفرنسيين إلى ضفاف حوض الكونغو لتتبع مسار التنصير هناك.

وأمَّا في شمال إفريقيا لم يتمكن المجمع الموكل إليه المهمة التنصيرية في هذه المنطقة "مُجمَّع نشر الإيمان" من التحرّك فيها قبل احتلال الجزائر في عام 1830، حيث استقرت أولى المؤسسات وهم "اللازاريست" (Lazaristes) باسطوالي أو "مصطفى والي" على الساحل الغربي للجزائر العاصمة، قبل أن يرسل الملك في 1838 طلباً للكرسي البابوي لإنشاء مقعد أسقُفيي ثابت _أسقفية كاملة_ خاص بالممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا[186] فعين "ديبيش" (Dupuch) أسقفا على الجزائر في 28 أكتوبر 1838، ودخلت جمعيات رهبانية كنيسة الجزائر ومنها جمعية "أخوات القديس فانسون دي بول" (Sœurs de Saint Vincent de Paul)، و"جمعيات نساء الرحمة" (Les femmes de la Charité)، وفي سنة 1868 أنشأ لافيجري جمعية رهبانية هي "مُنصِّري إفريقيا"[187].

3_ التنصير وعلاقته بالاستعمار الحديث

كان هدف التنصير في ظلِّ الاستعمار الحديث مع بداية القرن 19 هو ملازمته له ومساعدة الواحد للآخر، حيث قال "زويمر" (Zwimer) _أحد كبار منصّري القرن الماضي_ في مؤتمر القدس سنة 1935[188] مشيراً في هذا الصدد إلى العلاقة بين التَّنصير والاستعمار: "إنكم أعددتم شعباً نشأ لا يعرف الصِّلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام و لم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء النشأ الإسلامي وفق ما أراده الاستعمار: لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء؛ وقد انتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم الكنيسة ورضي عنكم الاستعمار فاستمروا في أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الله"[189]؛ وكانت الهجمة التنصيرية التي رافقت البلدان الإسلامية قد رامت تحقيق :

- تخريب ضمائر المسلمين وزعزعة عقيدتهم، لصرفهم عن عبادة الله.

---

184 - محمد بن الناصر الشّتري، **المرجع السابق**، ص 3.

185 -M. J. Roy, **Op cit**, p 26.

186 - **Ibid**, p 110.

187 المبحث الثاني، 2. - انظر لاحقا

188 - انظر المؤتمرات التنصيرية العالمية، وخاصة مؤتمر كلورادو: عبد الرزاق ديار بكر لي، **تنصير المسلمين بحث في أخطر إستراتيجية طرحها مؤتمر كلورادو التنصيري**، دار النفائس، ط1، الرياض، 1989.

189 -عبد الرزاق ديار بكر لي، **المرجع السابق**، ص 22.

- الحيلولة دون دخول النصارى في الإسلام، أو ما يسمى في الأوساط النصرانية بـــ(حماية النصارى) من الإسلام.
- الحيلولة دون دخول الناس في الإسلام، ومنع انتشار الإسلام بإحلال النصرانية مكانه أو على الأقل الإبقاء على العقائد المحلية الموروثة.
- نشر بذور الاضطراب والشك في القيم الإسلامية بحيث يزهد المسلم فيها، وتموت غيرته وحمِيّته للدفاع عنها، وبذلك يسهل التحكم في سلوكيات المجتمع وتوجيه أفكاره لصالح النصرانية.
- الإغراء بالتعاليم النصرانية ومحاولة إقناع الجماهير بفضلها وفعاليتها ومواكبتها لروح العصر، على أساس الزعم بأنَّ لها صلة بالتفوق المدني والعلمي والأدبي، مع أنَّ الدّول الأوروبية لم تتقدم إلاَّ بتخليها عن النّصرانية.
- الإيحاء بأنَّ تقدم الغربيين في العلوم المادية سببه تمسكهم بالنصرانية وأنَّ السبب في تأخر المسلمين المادي هو تمسكهم بالإسلام، مع أنَّ تقدم الأوروبيين وقع يوم وقع فيه فصل الكنيسة عن العلم والدولة[190].

وهكذا يبدو طبيعياً حدوث التعاون الوثيق بين الاستعمار والتنصير لإيقاف الخطر الإسلامي عند حده، ومحاولة سحقه ومِن ثمَّ فإنَّ هذا الرباط الحتمي وجد فيه المنصّرون إمكانات مادية ومعنوية واسعة الآفاق، سياسية وعسكرية، ثقافية وإعلامية[191]، وغيرها من الوسائل المساعدة على التنصير من إرسال البعثات العلمية المتبادلة بين المجتمعات النصرانية وغيرها، بحجة التخصص والدراسة الميدانية، حيث يوفدون لدراسة قضايا جغرافية وطبيعية واجتماعية إلى مناطق تحتاج إلى متابعة حقائقها وتطوراتها وإجراء إحصاءات مما يسمح لهم بالمكث الطويل في البلد والتمركز والاحتكاك الكبير بين المنصرين والمراد تنصيرهم[192].

كما ركّز المنصرون على التعليم، الذي لم يكن الغرض منه الأخذ بيد الأجناس الأخرى لمواكبة ركب التقدم والحضارة، وإنما التأثير على تفكيرهم وروحهم بحيث يصبح من السهل اقتيادهم وإخضاعهم واستتراف ثرواتهم؛ وقد قال أحد المنصّرين في هذا الموضوع: "إنَّ التّعليم في المدارس المسيحية إنما هو فقط واسطةٌ إلى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية، ولكن عندما يخطوا التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في حد ذاته وليخرج لنا خيرة علماء الفلك... فإننا لا نتردد حينئذٍ في أنَّ رسالة مثل

---

190 - انظر أكثر : محمد الشتري، **المرجع السابق**، ص 14.

191 - عماد الدين خليل، **المرجع السابق**، ص 7.

192 - محمد الشتري، **المرجع السابق**، ص 12.

هذه قد خرجت عن المدى المسيحي إلى مدى علماني... ومثل هذا العمل لا تقوم به الجمعيات التنصيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فقط"[193].

كما يرى المنصّرون ضرورة استغلال مهنة الطب وجعلها معيناً على التنصير، حيث تأسّست العديد من مراكز التّطبيب والتي بدأت كمراكز للعلاج والتمريض، وتشغّل الراهبات فيها للتأثير على المرضى، لأنَّ فُرص المنصِّرين السانحة للتنصير تكون قويةً حيثما وُجد المرض والجوع والحرمان[194]؛ ورغم المشاهدات العديدة على عدم دراية المنصرين بأمور التطبيب شيئاً، إلاَّ أنَّ المستعمرين كانوا يسمحون لهم بذلك لترويج أفكارهم وعدم تضييع جهود الأطباء المتخصصين في علاج الأهالي الذين لا يساوون شيئاً بالنسبة لهم[195].

وقد أدرك المنصرين بأنَّ هذه الطّرق التقليدية في التنصير كثيرة العيوب؛ فمن عيوب طرق التنصير السابقة، أنها طريقة بطيئة جدّاً ولا تتناسب مع روح العصر وتطوره السريع؛ كما أنها لا تتناسب مع اتساع رقعة العمل الفسيحة والمتاحة أمامهم بفعل الاستعمار، وأنها طرق تؤدي إلى اقتلاع الفرد من بيئته ومجتمعه مما يجعله مشلول الإرادة منبوذاً من قومه، كما يصبح عبئاً على الكنيسة التي نصّرته بعد ذلك، فضلاً عن أنه لن يستطيع التأثير في من حوله ذلك التأثير المطلوب والمرغوب فيه[196]؛ ولذلك ظلّوا يطوّرون طرقهم مع الظروف وحسب ما تقتضيه الأحوال[197].

المبحث الثاني : الحركة التنصيرية بالجزائر في القرن 19

1_ النشاط التنصيري بالجزائر بين (1830-1892)

1_1_ الفترة الأولى (1830-1867)

اعتُبر احتلال الجزائر سنة 1830 بالنسبة للمنِّصرين حلقةً هامةً ضمن الحركة الكبيرة التي جرت في أوروبا في تلك الآونة وغيّرت مصير أفريقيا بالكامل، حيث قابل التقدم الأوروبي ذلك الجدب الإفريقي؛ فكانا مبدءاً للحركة الاستعمارية الكبيرة التي اجتذبت القوى الأوروبية التي هرعت إلى دواخل إفريقيا وعجّلت في تقسيم وسبر أغوار أعماقها، وفتحت معها السُّبل للرهبان وبشكل نهائيٍّ وكاملٍ أمام حماسهم لهذه المهمة الجديدة فقد كان للكنيسة المبادِرة في هذه الحركة دورٌ قوي في توجيه الأمور[198].

---

193 - عبد العزيز الكحلوت، **التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء**، منشورات كلية الدعوة الإسلاميةن ط2، طرابلس، 1992. ص 103.

194 - محمد الشتري، **المرجع السابق**، ص 21.

195 - عبد العزيز الكحلوت، **المرجع السابق**، ص 89.

196 - عبد الرزاق ديار بكر لي، **المرجع السابق**، ص 32.

197 - علي ابراهيم النملة، **المرجع السابق**، ص 39.

198 - **Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7.2-1.

رغم هذه الظروف التي سمحت لرجال الجمعيات الرهبانية بالتنقل مع الحملات الأوروبية الاستعمارية نحو الآفاق الرحبة في إفريقيا وآسيا إلاَّ أنها لم تكن كلها تصبُّ في صالح ما يرغب فيه رجال الدين وذلك لأسباب سياسية متعددة؛ فقد أتى مع الحملة الفرنسية على الجزائر 17 مرشداً دينياً عسكرياً (Aumônier)، وبعد إتمام الاحتلال لمدينة الجزائر تم تسريحهم وإرسالهم إلى فرنسا، وخلال السنوات الأولى للاحتلال كانت الجزائر مغلقة بعض الشيء على القساوسة بداعي عدم استفزاز الأهالي بالقضية الدينية، ولَمَّا تقررت وضعية الجزائر النهائية كوزارة واستقدم المعمرين أصبح من الضروري ضبط وتنظيم الأمور الدينية للكاثوليكيين بها[199]؛ فبعث الملك في أكتوبر 1838 بوصية إلى الكرسي البابوي يدعوه فيه إلى تفعيل دورها الديني في الجزائر.

وعُيّن ديبيش (Dupuch) أسقُفاً على الجزائر بتاريخ 25 أوت 1838، وإلى جانبه ثلاثة قساوسة موظفين، وبعد عام من بداية نشاطه كان قد قدم إلى المستعمرة 25 قسِّيساً وشيّدت ثمانية كنائس وسبع كنائس خاصة ومعهد للاهوت وثمانية مدارس كاثوليكية، وملجأ للأيتام ومستشفى أهلي تحت إدارة جمعية "أخوات القديس فانسون دي بول".

وكان "ديبيش" مندفعاً برغبة وحماسة لتنصير الأهالي مما تسبّب في ذعرٍ كبيرٍ للسلطة العسكرية المتخوفة من ردود الفعل المحلية، فلم تتأخر في تبليغ إخطارٍ إليه يخبره: "إلاَّ السكان الكاثوليك هم وحدهم الذين يُهتم بهم من طرف رجال الدين في الجزائر"[200]، وقد أحسَّ رجال الدِّين أنَّ السلطة العسكرية في الجزائر تضيِّق عليهم، حيث ما إن وصلت أنباء وصول أسقف سوريّ، متكلم بالعربية، سيتزل في ميناء سكيكدة سنة 1839 حتى انتفض الموظّفون الساموا لعمالة قسنطينة في حالة من الهيجان وأعطوا الأمر بتوقيفه حال نزوله، كما قد أعطيت الأوامر بترع الصلبان من قاعات مستشفيات مدينة قسنطينة[201]، بحجة أنه يكدّر المسلمين فلا يأتون للمداواة؛ وقد دفعت الأمور بالأسقف ديبيش إلى الاستقالة مع نهاية 1848[202].

خلف الأسقف بافي (Pavy) الأسقف ديبيش (Dupuch) على رأس أسقفية الجزائر، وبروح تنصيرية لا تقل حماسة عن سابقه في تحويل المسلمين عن دينهم من أول يوم من أيامه بالجزائر، وهو مندفع في خدمة هدفه، ولكنه لم يلبث هو أيضاً أن اصطدم بعوائق تحد من حرية عمله حيث أقيم على مدخل الكاتدرائية مخفراً يمنع العرب من الدخول إليه وكان ذلك تحت طلب قبائل قسنطينة.

وقد طلب "بافي" من الحاكم العام أن يبدأ المهمّات التَّنصيرية لكن المكاتب العربية التي استشارتها الحكومة أجابت بأنَّ مثل هذا الطموح سيصطدم بالمستحيل "فلم نَهدِ ــكما جاء على لسان هذه المكاتبــ المسلمين ولن نقدر على ذلك أبدا"؛ وقد هُدّد بالسجن مسؤول المدرسة التعليم الديني، الرئيس الديري جيرارد، عندما أراد أن يجمع في مدرسته أيتاماً من الشارع، فحتى هذه المدرسة التي أسسها الأسقف "بافي" في سنة 1856 قد طالبت بعض

---

199 -Luis-Eugène Lovet, **Les Missions Catholiques au 19e siècle**, Société de Saint Augustin, Paris, [s.d]. p 265.

200 - Brébion, **Op cit**, p 37.

201 -**Ibid**, p 38.

202 -**Ibid**, p 38.

الجهات بإقفال أبوابها لإرعابها الإدارة لأنها كانت مدرسة للتعليم الديني تعمل على التنصير، فطالبت بغلقها وقد أرسلت الوزارة أمراً بطرد الأب جيرارد بعد هذه الحادثة، واستوجب تدخل الجنرال "بيليسيي" للسماح له ببقائه في الجزائر، شريطة نسيانه أمر الترويج بالتنصير.

فقد كانت الأعمال التنصيرية تأخذ طريقها طوال المدة الممتدة من (1830 إلى 1869) بوثيرةٍ بطيئةٍ، بسبب موقف الإدارة العسكرية غير الواضح والمتردد، والتي تدعو إلى عدم إثارة مشاعر الأهالي بهذه الشؤون، ورغم ذلك فالجمعيات الرهبانية بدأت تنسلّ شيئاً فشيئاً إلى داخل الجزائر بداية "بأخوات القديس فانسون دي بول"؛ وفي تلك الفترة أخذت معه التنظيمات الدينية مكانها بالجزائر؛ ففي 1842 على الخطى الحثيثة "لدي كورسال" (De Courcelles) استقر "الترابسيت" (Trappiste) في اسطوالي على الأرض التي وقعت فيها معركة اسطوالي، وكان جيرارد رئيس ديري للمدرسة التعليم الديني السابقة الذكر من مؤسسة "اللازاريت" (Lazariste)[203].

1_2_ الفترة الثانية (1866-1892)

خلف الأسقف "لافيجري" الأسقف "بافي" على رأس الأسقفية المحلية سنة 1866، وهو شخصية فذة وقوية فرضت نفسها على الواقع الجزائري؛ فلم يكن شخصاً حالماً بالتنصير فحسب بل كان رجلاً واقعياً ورجل ميدان، يرسم الخطة ويسارع إلى وضعها موضع التنفيذ، مسخّراً لذلك كل ما يحتاج له من إمكانيات، حيث يقول عن نفسه أمام الرأي العام الفرنسي: "إنّي سعيت معكم لتحقيق الفتح ولجعل الأرض الجزائرية مهداً لأمة عظيمةٍ سخيةٍ مسيحيةٍ، فرنسا أخرى، وبعبارة أخرى لننشر من حولنا النور الحقيقي لحضارة يكون الإنجيل أساسها ودستورها، ولننقل هذا النور إلى ما وراء الصحراء إلى قلب هذه القارة الكبيرة الغارقة في الظلام والتوحّش بربط إفريقيا الشمالية بالوسطى بحياة الشعوب المسيحية وهو المصير الذي اختاره لنا الربّ"[204].

فكان من بين جهوده توسيع المقاطعة الإدارية الدينية في الجزائر بإنشاء مقعدين أسقفيين، ليصبح هناك أسقفية الجزائر وأبرشيتي وهران وقسنطينة في سنة 1866، ولَمَّا أخذت المجاعة والطاعون بالجزائر مأخذهما في سنوات 1867-1869 مخلّفة الكثير من الضحايا، تشكلت للكردينال لافيجري الظروف المناسبة للانغماس في المهمة التنصيرية التي لم نتطلق بشكلٍ فعليٍ حتى ذلك الوقت؛ حيث كان يعتبر هذا المنصّر الكبير هذا الاستعمار: "ما الحرب على الجزائر في الواقع ولن تكون إلاَّ حرباً صليبيةً أخيرة ضد "الهمجية" الإسلامية التي أغلقت الباب في وجه المسيحية في أفريقيا"[205].

وتلقى لافيجري كل الدعم من البابا بيوس التاسع (Pie IX) إذ أجاب على طلب له أرسله إلى روما يطلب منه دعماً مادياً ومعنوياً للسعي وراء ضحايا المجاعة واستقطابهم إلى أحضان الكنيسة، في رسالة إذ يقول فيها: "...نحن نحيِّيك من أعماقنا على هذه المهمة، وعلى انتصارك على المشاكل العويصة، وعلى تخطيك العقبات بمزيد

---

203 -Luis-Eugène Lovet, **Op cit**, p 266.

204 -Louis Baunard, **Le Cardinal Lavigerie** , t1, Librairie Ch. Poussielgue, paris, 1869. p 164

205 -Charle Lavigerie, **Lettre à un séminariste de Belgique sur La Société des Missionnaires d'Afrique**, Bureau de l'Ouvre des Ecoles d'Orient, paris, 1880. p 4.

الإصرار؛ كما نعتقد أنَّ علينا بتحيّةٍ خاصةٍ للذين ساهموا بسخاءٍ وكرمٍ لدفع مهمتكم والذين هم معك... واصل بكل ثقة في مهمتك، فلن تزيدك العقبات إلاَّ إرادةً؛ لأنه في وسط المثبطات غالباً ما تستمر المهمات الربانية في مسيرها وقوتها"[206]؛ وهذا المشروع سيظهر في المحافظة الرسولية للصحراء بالقولية سنة 1892، كما سيأتي بيانه.

كانت انطلاقة لافيجري في المهمة من جمع الأيتام وتكوين قرية عربية للأيتام في حوض الشلف، ثم فتح مهام الارساليات في القبائل والصحراء، وقد صرف جهداً كبيراً في هذا السبيل خاصة قرى الأيتام حيث تمنى أن يرى في المستقبل القريب "مشتل للعمال النافعين المؤيدين للاستعمار الفرنسي والأصدقاء له، حيث ينشأ جيلٌ من الأهالي النصارى الذين يفتحون الطريق أمامنا في بني جلدتهم"[207].

كانت سياسة لافيجري واضحة حيث كان لا يطلب من الحكومة غير شيء من الاقتناع ومزيداً من الحرية؛ وحتى الحرية التي كان ينشدها لم يكن يريد استغلالها للتنصير المباشر بين المسلمين، وهذا ما لا تحبذّه فرنسا، بل كان يرى أنَّ التنصير بلا حذرٍ وعن عجل يجعل من المهمة أمراً مستعصياً بعد ذلك، ويخلق التعصّب، فيقول في هذا الصّدد: "أعتقد أنَّ التَّقارب يجب أن يكون شيئاً فشيئاً بالمُثل والعمل الخيري وبالإحسان، الذي هو الحراك الطبيعي لكل الأشياء المستدامة"[208].

وقد ترجم لافيجري هذه الأفكار في تأسيس "مؤسسة مُنصِّري إفريقيا" وقرى الأيتام[209] وتوسيع مجال نشاطه إلى الجنوب الجزائري حيث عيّن الكرسي البابوي المطران لافيجري مندوباً رسوليّاً عليها في نفس سنة بداية مشاكل المجاعة في الجزائر أي سنة 1868، ووسع مهامه في منطقة القبائل بعد ثورات سنة 1871، وتونس عام 1875 أين وكّل أسقفاً مسئولا عليها أيضاً إلى جانب أسقفية الجزائر ونيابة الصحراء؛ واهتم بإنشاء كنيسة القديس لويس بقرطاج، وأنشأ فرعاً لمؤسسة الآباء البيض في تونس، وعمل على التحضير لإدخال تونس في حظيرة المستعمرات الفرنسية حيث يعدّ المرجع الرئيسي لكل من "قامبيتا" (Gambita) و"جل فيري" (Jules Ferry) ودليلهما في وضع خطة لاحتلال تونس[210].

ثم تعّهدت فرنسا لمؤسسته التي أنشأها، رعاية محراب "القديسة آنْ" ببيت المقدس في سنة 1878، كما تمكن أعوانه في ذات الجمعية من الدخول إلى السودان عبر السنغال في سنة 1885[211]، إلاَّ أنه ورغم ذلك فقد كانت العقبات تعترض لافيجري، حيث حذفت غرفة النواب في سنة 1885 حصة تقدر بـــ(100000فرنك) كانت موجهة لمدارس التعليم الديني بالجزائر، وراح لافيجري يجري في فرنسا من مرسيليا على روان إلى باريس لإلغاء

---

206 -Charle Lavigerie, **Lettre**, p 6.

207 - ممدوح، مدخل إلى تاريخ، ص 76.

208 -Louis-Eugène Lovet, **Op cit**, p 268.

209 -انظر لاحقا الفصل الثاني المبحث الثاني.

210 -Maurice Barrès, **faut-il autoriser les congrégations ?**, Librairies Palm, 3e éd, Paris, [s.d]. p 65.

211 - ممدوح حسين، **مدخل إلى تاريخ حركة التنصير**، دار عمار، ط1، الأردن، 1995. ص 80.

القرار، وهو ما تم في ذلك العام، لكن المجلس عاد ليصوت على حذفه في العام الموالي[212]، وكانت الميزانية الموجهة لرعاية النصرانية بالجزائر تقدر بـــ(209000 فرنك) بينما كانت قبل ذلك في حدود 350 ألف فرنك[213].

ولو أنه من غير المجدي الحديث عن النفقات المصروفة من الحكومة الفرنسية في المجال الديني بالجزائر، لأنَّ النفقات التي تنفقها لتنظيم الدين الإسلامي، ولو على النّحو يخدمها من تجنيد المنابر والمفتين لخدمتها، أو تلك المتعلقة بملل أخرى معترف بها من قبل الحكومة الفرنسية لا تقبل المقارنة، فنجد :

320 ألف كاثوليكي	تصرف عليهم الدولة	920,000	فرنك	
7500 بروتستانتي	"	"	83,000	"
35665 إسرائيلي	"	"	26,100	"
2842497 مسلم	"	"	216,340	"[214]

2_ مؤسسة منصّري إفريقيا

2_1_ ميلاد مؤسسة منصّري إفريقيا

ولدت مؤسّسة منصّري إفريقيا (Société de missionnaire d'Afrique) في خضم النشاط الدعائي الذي تقوم به الكنيسة الرومانية في العالم؛ وكانت الجزائر وشمال إفريقيا مُتعهّد بها لمجمع "نشر الإيمان"[215] (la Propagande de la Foi) التي ينتظم تحت لوائه العدد المعتبر من القساوسة الفرنسيين، وأنّ الفرنسيين هم العدد الأكبر من المنصّرين بها في الخارج بين الأمم مجتمعة، حيث من بين 6106 منصّرٍ منتمين للمنظمة هناك حوالي 4500 فرنسيا أي 75%، ويساعدهم عدد معتبر آخر ممن ليسوا من القساوسة ينتمون إلى ذات التنظيم يتكفلون بالترميم والورشات وبالتدريس والبناءات أو بالحقل الثقافي، ويبلغ عددهم 1700؛ وهناك 2600 فرنسيا أخاً ينتمي إلى الجمعيات الدينية التعليمية، هناك كذلك 10500 متدينة تقوم على رعاية وتربية الأطفال وتعليم البنات وعلى مهام الإسعاف في المستشفيات والمستوصفات والزيارات.

ويساعد القساوسة الفرنسيون في المهام الخارجية الأهالي الذين تم تكوينهم وحملوا نفس الأفكار الفرنسية وتطوعوا في وسط الجنود الفرنسيين وهم أوفياء لفرنسا يصل عددهم إلى 1500 قسيس و500 أخ و2500 أخت[216].

---

212 -Piolet Jean Baptiste, **Nos Missions & Nos Missionnaires**, Librairies Blaud & Cle, Paris, 1904. p 16.

213 -Abbé millot, **La civilisation chrétienne en Algérie**, Imprimerie Victor Coupy, Paris, 1877. p 12.

214 -Louis Rinn , **Op cit**, p 268.

215 -هو المجلس التابع للكرسي البابوي المكلف بتنظيم الإرساليات والمهام التي تكون في الأراضي الغير المسيحية من الأساس أو تلك الغير الكاثولكية.

216 -Piolet jean baptiste, **Op cit**, p 6.

من بين الجمعيات التابعة لكرسي البابا في روما الناشطة ضمن مجال التنصير المنضوية تحت تسيير منظمة مجمع نشر الإيمان، مؤسسة منصّري إفريقيا (La Société de Missionnaires d'Afrique)، والمشهورة بالآباء البيض[217]، والتي أنشئت في الجزائر على يد الكاردينال لافيجري الذي تحمس لها عند توفّر الظروف قائلا:"في ظل الوضعية التي تشهدها الكنيسة بإفريقيا، ومنذ أربعين سنة من دخول فرنسا الجزائر لم تستجب هذه الأرض لنداء الرّب فيها، فاحتلال الجزائر لم ولن يكون في الحقيقة إلاَّ ذلك المسار من الحروب الصليبية ضد "همجية" الإسلام التي لم تكن في إفريقيا إلاَّ للعبودية وإغلاق الباب أمام النَّصرانية، رغم الدعوة الملحَّة للقيام بالدعوة إلاَّ أنَّ السلطات قد قمعت صوت الإنجيل"[218].

ففي سنة 1867 وقعت آفتين مهولتين هما: "المجاعة والطاعون"، وقد غيّرتا كثيرا من مجرى الأحداث، إذ خلّفت آلاف الضحايا خاصة من الأطفال اليتامى والمعدمين، فسارع إلى نجدتهم رجال الدّين النّصارى بالجزائر حيث أخذوا مجموعات منهم لرعايتهم، ولم يتردّد البابا بيوس التاسع في تشجيع هذه الأعمال باعتبارها بداية للمهمة التنصيرية الكاثوليكية لفرنسا بالجزائر[219].

وقد ارتقت إلى أذهان رجال الدين في المستعمرة فكرة التقرب من الأهالي وإنشاء علاقات معهم بعد أن كانت الحكومة بالجزائر قد منعت كل اتصال من رجال الدّين بغير الأوروبيين، فكانت المشكلة في وسيلة الاتصال وهي اللغة العربية التي لم يكن يعرفها رجال الدّين، فعندما التفت لافيجري حوله لم يجد مؤسسة رسولية (Apostolique) رجالية تقف بجانبه في هذه المهمّة.

وكلمة مهمة (mission) يعني بها في الاصطلاح التنصيري مرادف كلمة الإرسال في اللاتينية (missio)، المشتقة من "رُسل"، وتعني تلبية دعوة المسيح كما ورد في إنجيل "متَّى": "...اذهبوا وتلمذوا جميعاً الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح المقدس، وعلموهم الانصياع إلى كل ما أوصيتكم به"[220].

وكلمة مهمة أو إرسالية تُطلَقان على كلّ حركةٍ تنصيرية وتبليغٍ لرسالة المسيح في إقليمٍ محدّدٍ لفترةٍ طويلةٍ من أجل الترويج بالنصرانية ثم الاستقرار النهائي هناك، بما يعني التوسيع من مدى انتشار الدّين النصراني وتأسيس كنائس جديدة في العالم، وذلك تحت رعاية الكنيسة البابوية بروما والمجالس المتصلة به والمكلّفة بمثل هذه المهام؛ بحيث يأخذ التنصير مع أطرافه شكل الصليب[221] الآتي :

---

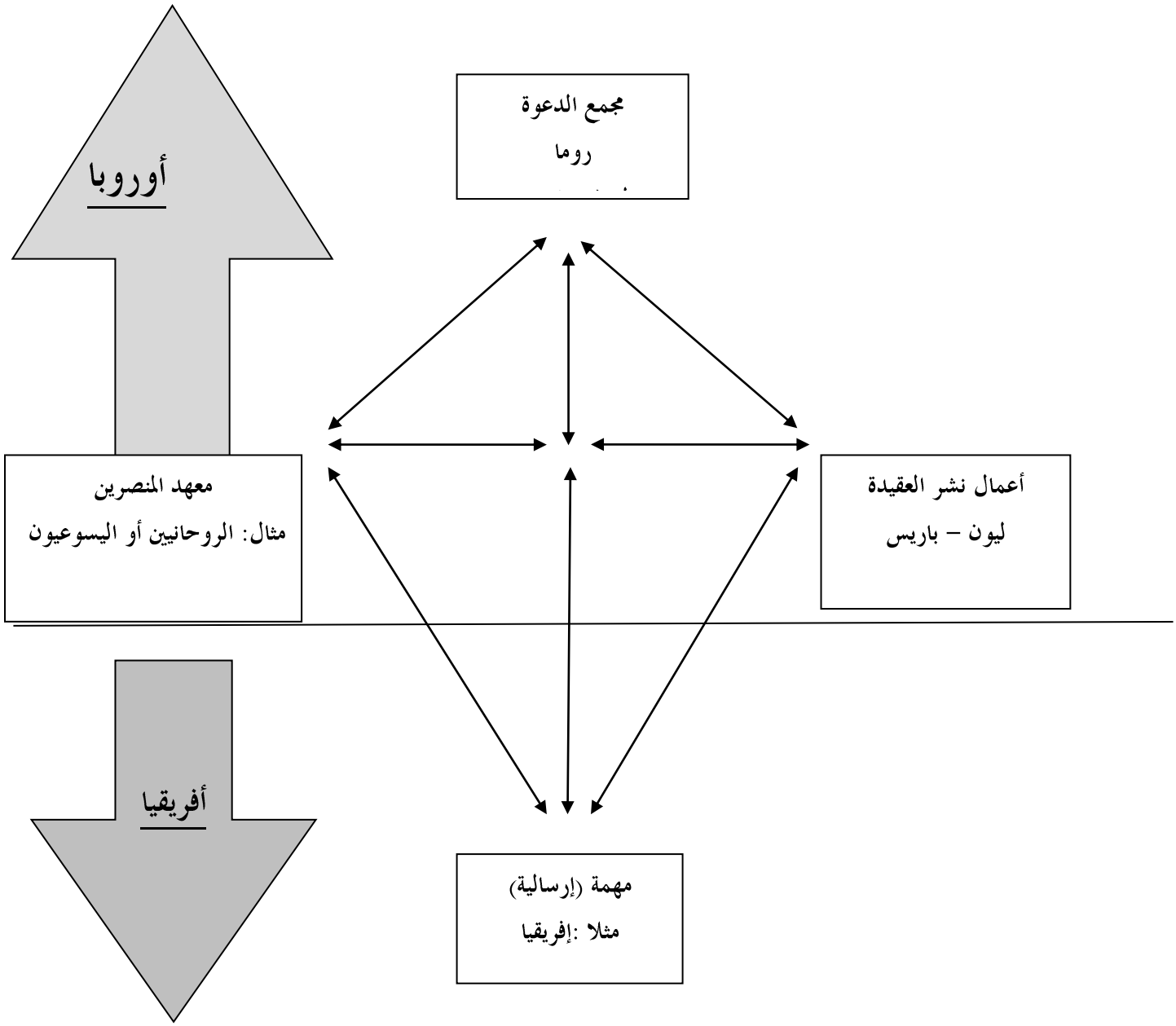
217 - هذا يعود إلى الغندورة والبرنوس الأبيضان اللذان يلبسونهما كزي رسمي تشبُّها بلباس سكان البلاد المغاربية.

218 -Lavigerie, **Notice sur La Société des Missionnaires d'Afrique, les Pères Blancs,** Noviciat des Missionnaires d'Afrique Mison Carrée, Alger, 1886. p 7.

219 -**Ibid**, p 9.

220 -(28:19-20).

221 -Jean Vasquez, **Op cit**, p 43.



وفي تلك الأيام دخل "الأب جيرارد" (Girard)[222] رئيس المدرسة التعليم الديني بالقبة بالعاصمة الجزائر على المطران لافيجري في الأيام التي حصد فيها الوباء والمجاعة أرواح الأهالي وكثر الأطفال المشردون، وجرى بينهما حديث طويل فيما يمكن فعله في هذه الظروف لإنجاح المهمة التنصيرية، وكان جيرارد رجلاً كبير السن جاء مع الحملة في سنة 1830، وكان يحمل نفس فكرة لافيجري القائلة بضرورة إعمال الإنجيل إلى جانب السلاح منذ أن وطئت أقدامه الجزائر[223]، وقد انتهى الحديث بينهما وانصرفا وهم مقتنعين بأن هذه هي الفرصة

---

[222] -Le père Girard ، هو الذي قام بهذه المحاولة سابقا عندما جمع بعض المشردين وإيوائهم، فهدد بالطرد لولا تدخل الجنرالات لصالحه. انظر الفصل الثاني المبحث الثاني، 1-1.

[223] -Lavigerie, **Notice**, p 13.

المواتية؛ وأحضر جيرارد للافيجري بعد أيام ثلاثة تلاميذ من المدرسة، وقدمهم له على أساس أنهم هم من سيقوم بالمهمة الإفريقية؛ ومنهم ستتشكل البداية لتحقيق غايتهما.

جلس هؤلاء الأربعة إلى لافيجري طويلاً وتحدثوا عن السُّبل والوسائل التي يمكن أن تُتخذ، وعن نيتهم في التضحية من أجلها، وفي الوقت الذي لم يكن قادراً هو على الاهتمام بتكوينهم فقد تعهَّد بهم إلى شخصين ناشطين أحدهما في "جمعية رفقة المسيح" والآخر في جمعية "قساوسة سان سيلبس"؛ واكترى لهم لافيجري منزلاً بالأبيار بأعالي الجزائر[224]، وبعد سنة من الجهود الحثيثة للكردينال لافيجري تشكَّلت النواة الأولى للجمعية المسماة "مؤسسة منصّري إفريقيا" التي بدأت في أخذ شكلها النهائي تحت الإدارة المباشرة للأب "ديقري" كمسؤول أعلى عليها وممثل للافيجري فيها، وفي العام الموالي أي سنة 1869 انبثق منها فرع الإناث هو "أخوات المهمة الإفريقية"[225]، منتهجين نهج الحواريّ المنصّر وآملين في اجتذاب الناس إلى الملة النصرانية وإلى كنيستها ومتفقين على أن لا يتقهقروا أمام أي عائق، حتى ولو تعلق الأمر بالموت[226].

بعد ست سنوات من الترتيب والتنظيم على يد لافيجري صار المنصّرون مستقلّين في تسيير أنفسهم تحت سلطة رئيسٍ ديريٍّ يختارونه بأنفسهم، وذلك بعد أن رخّص الكرسي البابوي لمهمتهم؛ وبدأ العدد يتضاعف حيث أصبحت تظم أكثر من مائة أسقف وعديد الإخوة، وحازت من الهياكل بيتان للرهبان الإخوة وللأخوات، وكلية للاَّهوت ومدرسة رسولية أين يتكون المنصِّرون، وتُحصِي أكثر من 230 طالباً مترهبناً[227].

كما كوّنت المؤسسة قريتين للأيتام في العطَّاف بسهل الشلف، ونقلت الأطفال الذين جمعتهم بعد أن شردتهم الآفات التي ضربت الجزائر بين سنوات 1867- 1970، وسمّت القرية الأولى على "القديسة مونيكا" والثانية على "القديس سيبريا"، حيث كان هؤلاء الأطفال خلال السنوات الأولى مع الآباء بالدار المربعة (Maison Carrée)، وهو مقر المهمة والجمعية (Maison mère) بالجزائر؛ وتواصلت عملية تنشئتهم بها، وزُوّج فيها الشباب بالشَّابَّات لإنشاء عائلات على تعاليم النَّصرانية.

أمَّا خارج قرى الأيتام فقد أنشأت مهام الإرساليات بين الأهالي في الصحراء ومنطقة القبائل، حيث تعهّد الكرسي البابوي لمنصّري إفريقيا بالنيابة الرسولية على الصحراء والسودان، أي فيما وراء التراب الأسقفي للجزائر الذي كان تحت السلطة الدّينية لأسقفية الجزائر، أين سيقومون بتثقيف الأهالي ومعالجتهم وتضميد جراحهم، وكسب ثقتهم وتعميد من استطاعوا منهم؛ إلى جانب ذلك فقد أوكلت أليها رعاية المعبد الذي أقيم بتونس على أنقاض مدينة قرطاج تخليداً للملك لويس الفرنسي، بعد فرض الحماية على تونس في سنة 1881.

---

224 -**Ibid**, p 14.

225 -Lavigerie, **Lettre**, p 8.

226 -Lavigerie, **Notice**, p 19.

227 -Lavigerie, **Notice**, p 16.

وفي أفريقيا السوداء فتحت المؤسسة مهمات بالمستعمرات الإفريقية وتوغلت في الدواخل الإفريقية فاتحة للآفاق أمام العلم الفرنسي؛ وكذلك كُلفت في بيت المقدس، من طرف الكرسي البابوي، برعاية مقدسات محراب القديسة آن (Sainte Anne)[228].

رغم هذه المهام التي تسعى هذه المؤسسة من أجلها والتي يمكن اعتبارها رائداً ضرورياً وأمامياً كانت تجده فرنسا في الطليعة في كثير من الأحيان، حتى قبل أن يتواجد جنودها في منطقةٍ ما بشكلٍ فعليٍ ونهائيٍ وعسكريٍّ، إلاَّ أنَّ عدد المنخرطين في الجمعية عُدَّ قليلاً وضئيلاً بالمقارنة إلى حجم الخدمات الجليلة المقدمة لفرنسا[229] والجبهات العديدة التي فتحتها في بيت المقدس وبإفريقيا الاستوائية وفي القبائل بإفريقيا الشمالية وفي الصحراء الكبرى.

هذا الانخراط الضئيل يعود ــحسب بَريس (Barrès)ــ إلى وجودها غير المضمون والثابت بصفة قانونية، فالمؤسسة ولمدة طويلة جاوزت نصف قرن من ظهورها لم يكن مرخصٌّ لها من الناحية الإدارية والقانونية بالنشاط، أو الحصول على دعم من الحكومة، فوجدت صعوبة في التوظيف: فمعدل الانخراط الذي كان بين سنوات 1891 و1900 كان مقدراً بـــ 16,4 فرداً في السنة، ارتفع بين سنوات 1900 و1910 إلى 26,6 فرداً في السنة عاد لينخفض إلى 8,7 بين 1911 و1920[230].

فقد أجبر القانون المتعلق بإنشاء الجمعيات لسنة 1901 في فرنسا تقديم ملف طلب للترخيص لكل الجمعيات الدينية غير تعليمية الصّفة، من أجل أن ترخص لها الوزارة (الداخلية) بالعمل في التراب الفرنسي كونها جمعية بابوية، وهو ما قامت به في 30 سبتمبر 1901 لدى وزارة الداخلية، كما حددته المادة 18 من ذات القانون، أودعت المؤسسة ملفّها لدى مكتب مجلس الشيوخ، لأنَّ قانون الجمعيات كان يستثني الجمعيات الدينية والرهبانية، وسجل المجلس ملف المؤسسة بتاريخ 02 ديسمبر 1902 تحت رقم 364 حاملاً مشروع قانون يتضمن قبولاً جزئياً لهذا المطلب، لكن هذا المشروع لم يكن مادةً أي تقريراً فيما بعد ولم يطرح للمداولات؛ وبقي الأمر على هذه الحال إلى غاية سنة 1914 حيث استفسرت وزارة الداخلية مجلس الشيوخ بشأن الملف المشار إليه ليتم إخضاعه للمباحثة من جديد، ولكن فوجئ أعضاء الجمعية بأنَّ هذا الملف لم يُعثر عليه تماماً، في حين أنَّ الجمعية ومنذ 20 سنة كانت ترافع من أجل الترخيص ولم يُستجب لها ولم يتم إدراجها تحت أي نوع من إجراءات التصفية[231].

وقد مررت الحكومة مشروعاً تحت رقم 5292 إلى مكتب غرفة البرلمان في 1922/12/20 يقترح عليهم الموافقة على الترخيص القانوني للجمعية الرهبانية المسماة "مؤسسة منصّري إفريقيا" داعيةً فيه إلى الانتباه إلى مسألة المهام الكاثوليكية الفرنسية بالخارج وأن لا تأخذها نفس محمل "إخوة المدارس المسيحية" بفرنسا، أو تلك

---

228 -**Ibid**, p 18.

229 -Louis Barrès, **Op cit,** p 80.

230 -**Ibid,** p 80.

231 -فمادة القانون تفيد بمصادرة كل أملاك هذه المؤسسات وتأميمها إن هي بقيت مزاولة لنشاطها دون الترخيص، ولكن هذا لم يكن حاصلا مع هذه المؤسسة. انظر تفاصيل **Ibid**, p 64.

الجمعيات التي تستند إلى المادة 2 من القانون الصادر بتاريخ 1904/07/07 في حين أنَّ تلك المادة من القانون لا تنطبق إلاَّ على الجمعيات الرهبانية المرخص لها على أساس أنها تعليمية، بينما الحكومة تطالب بإعطاء الترخيص الشرعي للجمعية بموجب المادة 13 من القانون الصادر بتاريخ 1901/7/1[232].

2_2_ الصفة التنظيمية لمؤسسة الآباء البيض:

لا ينضمّ الراغب في العضوية بالمؤسسة إلاَّ إذا أتم ستة عشر سنةً تامةً، وبالنسبة لمن هم دون السن فيوجهون إلي مدارس تحضيرية تحمل اسم بيت الرهبنة الصغير أو المدرسة الرسولية، ويدخل المنخرط للتعلم بيت الرهبنة الكبير استعداداً للعضوية، لا يقبل في هذا البيت من لم يتم دراسته الدينية متدرجاً إلى مادة الفلسفة بالخصوص، ما عدا الحالات الخاصة التي تخضع لقرار المجلس، أمَّا بالنسبة للكبار فالذين يتقدمون إلى الجمعية سواء كان علمانياً أو رجل دين أو قسّيساً فيتوجب عليهم الإقامة وإمضاء سنة تجريبية واختبارية كاملة في بيت الرهبنة الكبير، بعد أن يلبس الكسوة[233].

أما السنة الثانية فيمضيها في كلية اللاَّهوت من لم يكن في سلك القساوسة، وفي منزل التعليم بالنسبة للقساوسة، عدا ذلك ففي أوقات العطلة على القساوسة أن يعودوا ليمضوها في كلية اللاهوت.

وخلال كل ذلك الوقت يأخذ المتربص في تصحيح عيوبه والتّمكّن من "فضائل الرسولية" وخصوصا: الطاعة والخضوع، وهذا تحت إشراف رئيس ديري[234] وذلك خلال تلك السنة من التّرهبن، والتي ينعزل فيها الآخذون بالترهبن تماما عن بقية المنصّرين، لا يقومون بشيء من الدراسات إلاَّ الأخذ في تعلم لغات الأهالي والكتابات المقدسة[235].

بعد الحكم الذي يصدره كلّ من رئيس بيت الرهبنة والرئيس العام لمجلس المؤسسة في شأن قبول المنتسب وأنه أهلٌ للانتساب؛ فإنَّ المتربص وبعد إتمام سنّتي التَّرهبن يمضي ثمانية أيام في عزلة تامة وصمت، ثم بعدها يعلن المنصّر التزامه عن طريق القسم التالي[236]: "أنا فلان، واضع القسم على الأناجيل المقدسة على أن أنذر من الآن وصاعداً وحتى مماتي حياتي للعمل في المهام الإفريقية بحسب قوانين ودساتير مؤسسة المنصّرين العلمانيين للجزائر الموضوعة تحت حماية السيدة الإفريقية؛ وأتعهد بالخضوع لرؤساء هذه المؤسسة في كل ما يتعلق بالأعمال التي أُكلّف بها وبالطريقة التي أتممها بها بحسب قوانين ذات المؤسسة"، ويُكتَب هذا التعهد بخط المترهبن ويوقّعه على مقاعد قاعة الصلوات، ثم يعطى لأمين أسرار الجمعية ليحفظه بالأرشيف.

بهذا تنتهي مدة الترهبن، ويدفع الأعضاء تعهدهم، والأعضاء الذين لم يكملوا دراستهم الفلسفية واللاهوتية هم ملزمون بإتمام هذا العلم في المدرسة الدينية أو في كلية اللاهوت الخاصة بالمهمة، والمخصصة لسلوك طريق

---

232 -Barrès, **Op cit**, p 63.

233 -Lavigerie, **Lettre** , p 17 . واللباس يتمثل في لباس البرنوس الأبيض كما سيأتي، انظر لاحقا.

234 -Lavigerie, **Notice** , p 21.

235 -Lavigerie, **Lettre** , p 17.

236 -Lavigerie, **Lettre**, p 22.

الرهبنة، ويمكن قطع دراستهم في حالة الاستعانة بهم للعمل وللخدمات في المهمة داخل المؤسسة لبعض الوقت، لكن هذه حالات نادرة[237].

وعندما يصبح المتأهل عضوا في هذه المؤسسة، والتي تبرم التزاماً إزاء هذا المنصّر، لا تستطيع بعده أن تردّه الجمعية أو تفصله إلاَّ في حالة الزّلل والخطأ الجسيم أو عند عدم المقدرة الظاهرة على الانسجام مع المجموعة في الحياة العادية والتّنصيرية؛ وعبر طريق قرار مبَيّنٍ من المجلس، وأما من جانب المنصِّر فعليه بالعمل وعدم استخدام تعهده لأي شكلٍ أو آخر، وبأعذارٍ واهيةٍ وبطرقٍ تدليسيةٍ لأغراضٍ أخرى خارج القوانين[238].

بإنهاء المنصر الفترة التحضيرية وإلقاء التعهد الكهنوتي وحفظه بالأرشيف، يصبح المنصِّر مُعدّاً تماماً للخدمة في أعمال المهمة، سواءً في أحد البيوت التي يتم فيها تنشئة أطفال الأهالي أو بالمحطات بالقرب من الأهالي، أو في الإدارة العامة للمهمة، على حسب رغبة المسؤولين[239].

يبقى المنصِّرون في جماعة أو في رفقة من ثلاثة أعضاء على الأقل، حيث أنه وفي كل الحالات ومهما تكن الذرائع لا يسمح للمنصرين بتاتاً بالبقاء دون ثلاثة معاً، سواء كان هؤلاء القساوسة أباءَ أو إخوةً، وسواء كانوا داخل منزلهم لوحدهم، أو عندما يكونون في مهمة خارجية فلا يحيدون عن القاعدة، ويرفض أي من العروض الإمتيازية أو المستعجلة التي يكون فيها تجاوزٌ لهذه القاعدة، فهذه تعد من القوانين الجوهرية للمؤسسة.

تُفتح في كل مهمة جديدة صيدلية، يوزع منها الدواء مجاناً على المرضى من الأهالي وتضمد فيها جراحهم، كما يفتح في كل المهمات مدرسة لأطفال الأهالي، وتقسم الأعمال والأنشطة بين أعضاء المحطة كما تقسم الوظائف والإجازات التي تطلب أو تمنح، وكلّ ما يدخل في الحياة المشتركة والحياة التنصيرية، والمنصّرون هم تحت سلطة الرؤساء المحليين ويجب أن ينقادوا له كممثل للرب.

يجتمع رجال المهمة كلّ أسبوع في يوم محدد لتبادل النصح تحت رئيسهم المحلي، ويعقد اجتماع في أول الشهر وفيه يعرض المقتصد حساباته على أعضاء مجلس المهمة، كما ينظمون كلّ خمسة عشر يوماً محاضرات في اللاَّهوت في يوم محدّد، ويكون ذلك اليوم محدداً على الدوام لكلِّ مهمة، وكل المنصِّرين المنتمين للمحطة ملزمون بالحضور ويكونون بهندامهم الرسمي، والمسائل التي تناقش في هذه المحاضرات يشار عليها من المجلس وتنتقى على مدى زمني بحيث تكون موضوع فحص وتمحيص لمدة سنة[240]، وكلّ المنصّرين ملزمون بالخضوع للامتحانات في اللاهوت مرتين كل عشر سنوات؛ بحث يكون امتحاناً شاملاً لكلِّ المسائل اللاَّهوتية العقدية والأخلاقية، ويكون شفهياً وكتابياً، يرعاها المجلس[241] الذي يرسل ممثلين، ويكون الامتحان الشفوي في كلِّ السنوات في فترة الخُلوة السنوية أو قبلها، حيث يمثُلون أمام لجنة يعينها المجلس؛ أمَّا الاختبارات الكتابية فتشتمل جداول تحليلية أو تعليمات

---

237 - **Ibid**, p 19.

238 -Lavigerie, **Notice** , p 23.

239 -**Ibid**, p 19.

240 -Lavigerie, **Notice**, p 25.

241 -وهو مجلس تسيير الجمعية، الذي ينتخب سنويا.

في رسائل، يكون عليها مجرى الامتحان نهاية السنة، وترسل كل ثلاثة أشهر إلى اللجنة المعينة من المجلس لهذا الغرض[242].

بصفة عامة بالنسبة "لمؤسسة منصِّري إفريقيا" في كل المسائل الأخلاقية والعقدية، ليست هناك قواعد خاصة تؤخذ، إلاَّ تعاليم الكنيسة البابوية، والتي تقرّ وتخضع له المؤسسة بالاستسلام التام. والإخلاص للحبر الأعظم (البابا) هي مفخرة أولى وميزة خاصة بهذه المؤسسة الصغيرة[243].

بحسب قانونها الذي وضعه لافيجري يكون الاستيقاظ على الخامسة فجراً؛ وهذه النقطة تعدّ مهمة وموصى بها بشدة وعلى كلِّ الأعضاء إتباعها، ويُتبع الاستيقاظ بالصلوات بما في ذلك التراتيل الجماعية، وتكون تلاوتها وترتيلها جهراً وجماعياً.

كما يقوم المنصّرون بأنفسهم بترتيب أفرشتهم وغرفهم ويعملون على تنظيم وترتيب البيت وأوقات أداء السر المقدّس والمطالعة الرّوحية والتّموين الخصوصي والواجبات، بما في ذلك الوقت المسخّر للدراسة في الكتابات المقدسة، واللاَّهوت ولسان الأهالي، وتثبّت مع النظام الخاص بكلِّ محطّةٍ بما يتناسب مع مختلف الحالات، ويكون الخلود إلى النّوم على الساعة التاسعة، والصّمت متعيّن في كل مترل وفي كل الأوقات إلاَّ في أوقات الترويح عن النفس أو في خضمّ الأعمال أين يكون من اللازم التّحدّث[244].

تترك التفاصيل لكل مترل ليتمّم البرنامج بحسب الحالات والمتطلبات، لكن على الأعضاء ملء وقتهم بورع حيث تحدّد الأعمال عن طريق قانون داخلي، وكلّ محطة أو مهمة تتبنّى نظاماً خاصاً يصادق عليه الرئيس العام أو الزائر المكلف بمتابعة المهام[245].

ففي محطة غرداية في أكتوبر 1890 ومن خلال تقارير اليوميات (Extraits de Diare) والتي يبدوا من خلالها أنه كان في هذه المحطة أكثر من برنامج في السنة، حيث ينطلق برنامجٌ شتوي في الفاتح أكتوبر وفيه :

– القيام على الخامسة صباحاً ثم إقامة القدّاس، ثم صلاة التأمل، ثم الفطور فاستئناف العمل.

– في التاسعة التسابيح؛ وعلى العاشرة يستأنف العمل ويفتح قسم العربية على العاشرة والنصف.

– على الحادية عشر والنصف تأخذ الأشغال الأخرى الخاصة؛ وفي منتصف النهار يتناول الجميع الغداء، وبعدها تأخذ استراحة ساعة ونصف، تتبع بالإنشاد على آلات موسيقية حتى الثانية والربع.

– يليها تمرين عسكري لواحدة من المجموعتين؛ وعلى الرابعة يأخذ قسط من الراحة، وعلى الرابعة والنصف يستأنف العمل حتى الساعة الخامسة أين يفتح القسم وتدرّس اللغة العربية إلى غاية الساعة السادسة و45 دقيقة حيث ينتقل المنصّرون للتسبيح في المصلى وقراءة الروحانيات.

– ثم العشاء، فترفيه وصلاة، وعلى التاسعة تطفأ الأنوار[246].

---

242 -Lavigerie, **Notice**, p 25.

243 -**Ibid**, p 27.

244 -Lavigerie, **Notice**, p 26.

245 - يوجه من مجلس المؤسسة للتفتيش داخل المهام المختلفة.

246 -**Chron-trim** 1892-01-00, 53-1, 6-10.

ومن حيث اللباس لكل منصّر لباس وثوب خاص به، للعمل التّنصيري في المهمات الخارجية لإفريقيا الشمالية، وليس هنالك ألبسة مبتذلة[247]؛ وثياب المنصّر هي لباس الأهالي نفسها، وتتكون من كساء وغندورة وبرنوس، وتكون كلها من القماش الأبيض، يضاف إليها السبحة الوردية (Rosaire) حول الرقبة، من غير أن يضاف إليها سوار، وتنتهي بصليب مشكّل من حبيبات ذات السَّبحة؛ وتُلبس أيضاً شاشية أو طاقية (غطاء الرأس) من الصوف الأحمر وتكون الجوارب بيضاء، ويكون شكل الحذاء متوافقاً مع متطلبات المنطقة والاستعمال السائد في الخورنيات[248] الأوروبية في شمال أفريقيا أو في المناطق الأخرى؛ وإذا رأى ضرورة في حمل المنصّر "القبعة الكنسية" يلبسها، كما يستطيع أن يلبس على لباسه الأبيض بذلة سوداء مثل رجال الدين العلمانيين[249]، فيظهر التماثل على كل لباس المنصّرين بحسب اختلاف المناطق التي يتواجدون بها؛ ولا يبدِّل الرؤساء وفي كل الأحوال هذا اللباس مهما كانت الخصوصية.

يكون الغداء المتناول في المهمّة التنصيريّة صحّياً وكافياً؛ ويكون مثل طعام الفقراء متكوناً من نِتاج البلد لِيُذكِّرهم أنهم يعيشون على الصدقات، "وأن رغيفهم قد مَنّ به لهم الكاثوليك المساكين الذين يقتلعونه من حاجاتهم؛ فحياة المنصّر ذاتها ــكما يصفها لافيجريــ هي أيام توبةٍ قاسيةٍ ودائمةٍ" وأثناء الوجبة تقرأ الكتابات التي تتحدث عن إفريقيا أو عن المهمات؛ وفي حال لم يكن قساوسة يُقرأ في بداية الوجبة فصل من الكتابات المقدسة، وفي نهاية الوجبة تقرأ قراءة أخرى[250].

على المهمة أو المترل الذي ينتمي إليه المنصّر دفع مصاريف الرحلات ولو لمسافة صغيرة، على أن تكون هذه الرحلات ضمن العمل في المهمة وبأمر من المسئول[251]، وتمنع الزيارات الفردية إلى الأهالي، فيجب أن تكون هنالك رفقة أثناء الخرجات، وكذلك عند زيارة غير الأهالي من الأوروبيين؛ كما لا يخرج أحد قبل استشارة المسؤول أو من حل محله إذا غاب، ويمنع الذهاب للغداء في المدينة مقر الإقامة خارج المترل إلاّ إذا كانت زيارة إلى أسقفٍ.

تكون الرعاية المقدمة للعرب كلها بالمجان ولا يقبل من الأهالي ولو كعكة تينٍ أو كمية من الدقيق؛ فعلى المنصّر أن يردّ بقوله عندما يُستفسر لِمَا يفعلون كل ذلك: "لأنَّ السيادة المسيحية تستلزم مني أن أحبك كأخٍ وأن لا يكون لي معك إلاّ قلب واحد في كلينا"، ليندهش الأهالي من هذا الرد أول الأمر، ثم لَمَّا يثقون بأنه ليس هناك اهتمامات سياسية، يستسلمون لهم ويحبونهم ويسلمون أطفالهم لهم[252] وهكذا تقتضي المرحليّة في العمل.

---

247 - لا يتشارك في اللباس أكثر من واحد.

248 -حي أو مدينة تحت رقابة وسلطة قس، والمقصود هنا المدن التي تعتبر أوربية في الجزائر.

249 -Lavigerie, **Notice**, p 27.

250 -**Ibid**, p 29.

251 -Lavigerie, **Lettre**, p 19.

252 -Abbé Millot, **Op cit** , p 10.

يسجل كل مسؤول عن مهمته تقريراً في كل شهرٍ إلى المسؤول العام "بالدار الأم" _مقر المؤسسة_؛ ويقدم كلّ منصّر مرة خلال ثلاثة أشهر تقريراً حول مسير المحطة ونشاطاتها والعراقيل التي تواجهها، وآرائه وانطباعاته الشخصية في هذه المهمة[253].

هذه التقارير[254] التي يقدمها رؤساء المحطات والمهمات، وتعرف بالتقرير اليومي يرسل من المسؤولين عن المهمات المحلية فصلياً إلى الدار المسمات بالدار المربعة[255] (Maison Carré)، التي هي دار مقر جمعية "مؤسسة منصّري إفريقيا"؛ ولم يكن الجميع ملتزما بها، كما لم تكن أحيانا أخرى ترد هذه التقارير تماما من المحطات إلاَّ الدار المربعة.

وقد سجّل مسؤول محطة غرداية تعليقاً على هذه التقارير والتي اعتبر شكلها أو الطريقة التي يطلب الكتابة بها على أساس تقييدٍ يومي لما يجري في المحطة والمحيط بالمعلومات اللقيطة، لا يفهم فحواها إلاَّ آباء المحطة مصدر المعلومات؛ لأنها معلومات مقتضبة وموجزة وتفتقد للدّقة المطلوبة في التقرير وخلوّها من الطرح في الموضوع بشكل متكامل، واقترح هذا المسؤول بأن يتجاوز المطلوب إلى الإحاطة بالتدقيقات الموضحة[256].

ورغم ذلك فإنَّ بعض المهمَّات كانت تعاني على حسب موقعها والمجتمع التي كانت تنشط فيه، حيث كانت تعاني محطة مزاب من حيث اللغة، ويقول كاتب تقريرٍ يعود إلى أكتوبر 1893، أي أحد عشرة سنة بعد الاستقرار النهائي هنالك "أنَّ اللسان المزابي هو هنا اللِّسان الوطني"، إذ هي اللغة الخاصة بالعائلة وتتحدث المرأة بها وتحت جناحيها ينشأ الأطفال، فالرجال الراشدون فقط من يعرف اللسان العربي، في حين أنَّ اهتمام المنصّرين منصبّ على الأطفال والنساء الذين لا يحسنون العربية التي تعلمها الآباء البيض، فقاموا بجهود مضنية من أجل أخذ اللسان المزابي؛ وأملوا في المدرسة والمستشفى اللذين أنشآ هنالك[257].

المبحث الثالث: التنصير في الصحراء

1_ التعهد بالنيابة الرسولية للصحراء للافيجري

تعود مطامح وأنظار المنصّرين نحو دواخل الجزائر إلى بدايات الحملة الفرنسية على الجزائر، حيث يذكر المسؤول الديري "ساش" (Abbé Sache) الذي استقر لمدة في قسنطينة بعد احتلالها سنة 1837 في رسالة له بتاريخ 1839/05/02 وجهها إلى الأسقف "دييبش" يروي له فيها أنَّ وفداً من أعيان الصحراء، يترأسهم شيخ العرب يترجَّون منه التوجه إلى الصحراء لمداواة المرضى، وسيرحبون به عندهم وسيبنون له معبداً ومترلاً في

---

253 - هذه الذي اعتمدنا كمصدر في بحثنا في النموذج.

254 - نماذج من اليوميات. انظر ملحق الوثائق، الملحق رقم **06**، ونماذج من نسخ اليوميات تمت وضعها في وعاء إلكتروني. انظر ملحق الوثائق، الملحق رقم **05**.

255 - انظر ملحق الصور، رقم 01.

256 - رسالة بتاريخ 30 جوان 1887. **Chroni-Trim** 1887-07-00-00, 35-3,7.

257 - **Chroni- Trim** 1893-10-00,60-6, 1-8.

الواحات وقد وُعد إن هو لم يألف العيش معهم فسيعيدونه إلى قسنطينة[258]، وفي مناسبة أخرى جاءه أحد كبار بعض القبائل الصحراوية يطلب صداقة المرابط[259] الفرنسي يؤكد له أن مرحب به عند قدومه إلى الصحراء[260].

فقد حضر إلى جانب الآلة الاستعمارية الفرنسية العسكرية رجال الدين الكاثوليك وهم يحاولون استعمال سياسة أخرى مع الأهالي، بالتقرب منهم وتقديم الإحسان إليهم بمداواة المرضى وتضميد الجراح التي تسببت فيها آلتهم العسكرية الحربية؛ وربما لهذا كانوا يكسبون السكان بعض الشيء ويستعطفون إياهم، وقد كتب الأب "شرميتان" (Charmitant) نقلاً عن الأب قودرار (Goudrar)، عندما ردّ على الضابط الفرنسي: "مدافعكم تمنح لكم البلد ولكنّها لم تمنح لكم أبداً السكان، أعتقد أنَّ مرابطيكم من بعدكم تركوا أثراً أكبر من ذلك الذي خلفته كتائبكم، إنها بالفعل الوسيلة الحقيقية لتحقيق التقارب الحقيقي وضمان سلطة فرنسا في الجنوب"[261]؛ بهذه النظرة اندفع لافيجري إلى التوغل في الصحراء مؤسساً "مؤسسة منصري إفريقيا"، وقد بعث برسالة إلى "ج. رولاند" (G. Rolland) أحد كبار مشروع السكة العابرة للصحراء قائلاً له: "لقد اعتبرت دوماً مسألة التوغل في الصحراء والسودان الغربي أحد النقاط الأساسية لمصلحة فرنسا والجزائر"؛ فقد كان لافيجري واعياً تماما بالامتداد الأوروبي المتصاعد على إفريقيا، راغباً في أن يصل شرف العلم الفرنسي والفرنسيين إلى هذه المجالات الواسعة، لأنَّ الأمر بالنسبة للافيجري متعلقٌ بأحد الأمرين: انتصار القضية الإنسانية ـ ممثلة في عدالة وحرية المسيحية ـ من جهة، وانتصار مصالح فرنسا من جهة أخرى، ولكن الأطروحة الثانية كانت دوماً مقدمة عنده على الأولى والتي يجب الاندفاع في الميدان من أجلها[262].

كان أول أسقفين يصلان إلى الأغواط (400 كم جنوب الجزائر؛ احتلت سنة 1852 في الواحات الشمالية للصحراء) هما "بوني وديمون" (Bonnet & Dumont) في 10 أوت 1856 ليشرعا في أولى محاولات التّنصير بالصحراء، ولكن الأصوات المعارضة التي لم ترغب في تأجيج مشاعر العداء مع المسلمين رفضت وجود مثل هذه العناصر في مناطق محتلة منذ فترة قصيرة؛ ومع ذلك فقد استمر هذان العنصران التابعان لمنظمة "القديس سان فانسون دي بول" في نشاطهما بالأغواط تحت غطاء "مرشد عسكري"[263] واستمروا في عملهم عبر تأطيرهم لأطفال الأهالي في القسم، كما أصرّ الجنرال "مارقريت"[264] على مواصلتهم في المهمة، وترأس بنفسه كلّ سنة حفلاً لتوزيع الجوائز، كما أنَّ خليفة هذا الجنرال هو "دو سونيس" (De Sonis) الذي كان يلقبه الأهالي "الجندي

---

258 -Abbé Sache, **Le Missionnaire en Algérie**, Mame Imprimeurs-Libraires, Tours, [s.d]. p 7.

259 -هكذا كان يطلق سكان الجزائر على رجال الدين المسيحيين، حيث اعتبروا أيضا مرابطين، وقد أصبح في الاصطلاح العامي مطلقاً على الرجل الذي تبدو على ثيابه علامات الزاهد.

260 -Lettre datée de 27/02/1839 voir: **Ibid**, p 10.

261 -Le Comte de Lambel, **Illustrations d'Afrique**, Alfred Mame et Fils éditeurs, Paris, 1876. p 200.

262 -George Rolland, **Le Transsaharien un an après**, Augustin challamel éditeur, Paris, 1891. p 6.

263 -(Aumônier).

264 -أحد مهندسي الإلحاق العسكري على مزاب في 1882، انظر الفصل الأول، المبحث الثاني.

المرابط"، أبدى تعاوناً وعطفاً على أعضاء التنظيم بل حتى على أخوات ذات التنظيم اللائي قَدِمنَ هنَّ أيضاً إلى الأغواط في 1859 ليستقرن بالواحات ويعالجن الأهالي[265].

مع مجيء المتحمس لافيجري على رأس أسقفية الجزائر تعهّد الكرسي البابوي لأسقفية الجزائر وأسقفها برعاية الشؤون الدينية للصحراء كجزء تابع للجزائر الفرنسية؛ فسلمها لافيجري إلى مؤسسته "منصّري إفريقيا" ـالآباء البيضـ الذي أنشأها بنفسه لهذا الشأن، ثم أوكل لها الكرسي البابوي السودان مجتمعا مع الصحراء في شكل محافظة رسولية (Préfecture Apostolique)؛ كما فوّضت لذات الجمعية مهمةً بأفريقيا الاستوائية وكذا في تونس وفي فلسطين[266].

المحافظة الرسولية في تعريف القانون الكنسي لها، هي أشبه شيء بسلطة قضائية كاثوليكية على جماعة بشرية من "شعب الله"؛ ونظرا للظروف الخاصة لا يمكن تنظيمهم في شكل أسقفية كاملة مستقلة ترعى شؤونها بنفسها، ويتعهد بها إلى محافظ بابوي يسيّرها باسم الكرسي البابوي[267]، والمحافظة ذات تنظيم ظرفي مؤقت ولو دامت لأكثر من قرن، إلى أن يجتمع العدد المعتبر من الكاثوليك لإنشاء أسقفية بالكامل، لأنَّ كنسية النيابة أو المحافظة تعتبر كنيسة "محلية" وتدخل مباشرة تحت سلطة البابا ـ كأسقف عالميـ والذي يمارس سلطته عبر المفوض أو النائب، وهذا يختلف عن سلطة القس الأسقفي الذي تتفرع سلطته من مصلحته[268]، كما يمكن أن يسيّر النيابة مباشرة من طرف أسقف من إحدى الأسقفيات الجارة أو حتى من طرف قسيس معين لفترة معينة كمسيّر، فالأسقفية هي مقاطعة أو وحدة واحدة في النظام الكنسي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي يرعاها أسقف أو مطران ـوتسمى حينئذ بالمطرانية Archevêché) ـ وبمساعدة مجموعة من القساوسة، بما يسمح بإقامة الشرائع والطقوس الدينية[269].

ساعد التنظيم الذي وضعته الكنيسة الرومانية في تقسيم المقاطعات في العالم بين الجمعيات والمؤسسات الرهبانية لضمان نشر العقائد التنصيرية في العالم أجمع، وفي نفس الوقت لتفادي الصراع فيما بينها، كما فعلت بين إسبانيا والبرتغال في بدايات العصر الحديث في العالم الجديد، لأنَّ هدف أيَّ إرسالية هو إنشاء كنيسةٍ محليةٍ والتي تتحول مع الوقت إلى أسقفية عادية؛ وهذا النظام الموحّد مطبقٌ على كلِّ الأراضي التابعة للحركة التنصيرية[270]. فرؤساء الجمعية التنصيرية يكلفون بمهمتين: تمثيل الكرسي البابوي وكذا تمثيل المؤسسة في المقاطعة المحددة، كما يتم وضع حدود أيّ نيابة ومحافظة بدقة في كل مرة وباستمرار لتفادي الدخول في صراع بين الجمعيات الرهبانية

---

265 -Brébion, **Op cit**, pp 63-64.

266 -Lavigerie, **Lettre**, p 6.

267 المادة -Can 371 من القانون الكنسي، Droit Canonique .

268 المادة -Can 371 من القانون الكنسي، Droit Canonique .

269 المادة -Can 369 من القانون الكنسي، Droit Canonique .

270 - jean-Michel Vasquez**, la Cartographie missionnaire en Afrique, L'Afrique de l'exploration à l'appropriation, au nom du Christ et de la science(1870-1930)**. thèse présenté pour le doctorat d'histoire à l'université de Lyon, 2007. p 212.

والرؤساء الذين يعينون من الكرسي البابوي؛ ولتفادي التعقيدات التي كانت تقع خاصة في القرن التاسع عشر لاتجاه المنصرين ومؤسساتهم في اتجاهين واضحين، للروح التنصيرية والنفوذ السياسي للبلد الأصلي للمؤسسة، وبالتالي تقرر أن لا تُرفع مهمة إلى نيابة أو محافظة من غير مراعاة:

1- الشعب التابع لوحدة سياسية واحدة، أي تحكمه حكومة واحدة.

2- أن تكون لغة ذلك الشعب واحدة أو من لهجات متقاربة.

3- أن تكون لها نقطة تواصل واحدة مع أوروبا (أي يستعمرها بلد أوروبي واحد)[271].

عمليا هذا النوع من المقاطعات لا يوجد إلاَّ في مناطق المهمة؛ حيث المسيحية أو الكاثوليكية لم تتجذر بعد وليس على المحافظ القيام كما الأسقف والنواب بالزيارات المسماة "آد لينا"[272] (Ad limina apostolorum) وهي الرحلة أو الحج الذي يجب أن يقوم بها الأساقفة والنواب المسؤولون إلى روما لتقديم التقرير عن سير مهامهم مرة كل خمس سنوات على الأقل.

وتعود السلطة العليا دائماً إلى الكرسي البابوي في تنظيم الكنائس الخاصة، وما إن تنصب هذه لتصبح شرعية حتى تنعم بكامل الحقوق الشخصية والإدارية؛ وتقسم المحافظة والنيابة كما تقسم الأسقفيات إلى مقاطعات وأبرشيات[273]؛ ويقوم بتسيير الأمور في المحافظات أو النيابات مجلس المهمة المعينة _في الغالب هو نفسه مجلس الجمعية_، وهو مشابه لمجلس مجمع اللاهوتيين بالنسبة للأسقفية، ويشكّل الوالي أو المحافظ مجلساً من ثلاثة أساقفة منصِّرين على الأقل ليستشيرهم ولو عبر الرسائل في أمور المهمة[274].

وبالنسبة للجزائر فقد حدد السيناتوس كونسيلت لسنة 1865 الممتلكات الفرنسية في الأطلس التّلي مما تسبب في استدعاء القساوسة ورجال الدّين من الصحراء، في حين لم يكن مسيرو منظمة "سان فانسون دي بول" راغبين في التخلي بتاتاً عن المهمة في تلك المناطق، ولكن ورغم ذلك تخلى المنصّرون عن الأغواط وهو المركز الصحراوي الوحيد الذي استوطنه المنصرون قبل مجيء الكاردينال لافيجري؛ الذي منحته البابوية لقب "الممثل الرسولي" (Délégué apostolique) للصحراء، حيث كانت هذه المحافظة الرسولية تابعة لنيابة السودان وأفريقيا الوسطى (Vicariat)، ففصلت عنها في سنة 1868، وتُعهّد بها لمنصّري الجزائر تحت الإدارة العليا للكاردينال لافيجري الذي قال حين ذلك: "بعاطفة رقيقة يلتمسها الجميع أراد الحبر الأعظم _يقصد البابا_ أن تكون هذه المناطق الواسعة الواقعة بين مستعمرتين فرنسيتين كبيرتين، الجزائر والسنغال، مُتعهّداً بها لأسقفٍ فرنسيٍ؛ فهل هناك تكهنات لاحتلال مستقبلي لفرنسا على هذه البلاد غير المعروفة، إلاَّ قليلاً، من يدري !؟"[275]، لكن "بريبيون"

---

271 -jean-Michel Vasquez, **Op cit**, p 232.

272 المادة -Can 373 من القانون الكنسي، Droit Canonique .

273 المادة -Droit Canonique Can 373 .

274 المادة -Can 495 من القانون الكنسي، Droit Canonique .

275 -Luis-Eugène Lovet, **Op cit**, p 281.

(Brébion) سجّل بأن هذا الاستحداث الذي أجراه الكرسي البابوي كان تحت طلب من لافيجري في جويلية 1867[276].

ومع إعادة الحامية العسكرية إلى الأغواط في سنة 1868 شغل الأب رُوشر (Rocher) منصب رئيس خورنائي بالقرب من الحامية العسكرية والجالية الأوروبية، في حين أقام الأب "أوليفيي" (Olévier) مدرسة للأطفال العرب ومستوصفاً للمرضى، وبتعليماتٍ من الأسقف لافيجري فقد ربطتِ الشخصيتان علاقات مع الأهالي لجمع المعلومات حول وضع القبائل الصحراوية[277].

فالصحراء في التقسيم الكنسي، لا تتبع أسقفية الجزائر ولذلك فقد تعهد لافيجري بتسييرها لجمعية رهبانية، وكانت "مؤسسة الإخوة اليسوعيين" (Les frères de Jésus) من بين الجمعيات التي نشطت في الصحراء ووُكّلت بهذه المهمة في وقت سابقٍ، لكن مطمح لافيجري كان بأن يُسيّر هذه المحافظة الواسعة رجالٌ له، تكوّنوا في الجزائر وانسجموا مع سكان شمال إفريقيا لضَمان نجاح مهمّته؛ هكذا وبمجرد تأسيس مؤسسة "منصّري إفريقيا" سارع لافيجري فور تنظيم صفوفه إلى إيفاد إرساليات لمباشرة العمل الميداني بين الأهالي؛ فمع نهاية سنة 1872 كان قد أرسل لافيجري إلى الأغواط الأب "شرميتان" واثنين معه لتعويض الإخوة اليسوعيين هنالِك[278].

ثم في سنة 1873 كان الآباء المنصّرون قد افتتحوا محطةً ببسكرة وورقلة وتقرت وجيري فيل[279]، الواقعة في حدود السيطرة الاستعمارية، كما فكّر لافيجري في منتصف عام 1875 في إطلاق مهمّة صوب "تنبكتو"، فبدأ بجمع بعض الزنوج في كنيسة القديس لويس القرطاجي ليتمّ تنشئتهم على التنصير وتحضيرهم للمهمة الإفريقية[280].

2_ التثبيت النهائي للمهمة التنصيرية بالصحراء

كان طموح لافيجري كبيراً لوصول مهمته إلى "تنبكتو"، حيث سارعت مؤسسته إلى تأسيس محطات خارج المراكز الأوروبية دون تواجد للحاميات العسكرية، فأنشأت محطة متليلي في سنة 1875 _على بعد 260 كلم من الأغواط، وكذا 140كم من ورقلة_ لتكون أولى المحطات على طرق القوافل نحو السودان وخارج حدود السيطرة الفرنسية، ومن هذه المحطة أخذ كل من الأبوين "كرمابون" و"بولميي" (Paulmier & Kermabon) في التوغل حتى القولية _200 كلم جنوب محطة متليلي_ جنوباً بهدف دراسة الطرق التي تؤدي إلى الداخل الإفريقي والتحضير للمحطة الموالية التي تكون أبعد نحو الصحراء[281].

---

276 -Brébion, **Op cit**, p 42.

277 -**Ibid**, p 65.

278 - مع إعادة الحامية إلى الأغواط في 1868 تولى اليسوعيين السبق في الصحراء من جديد، وبعد سحب لافيجري لهم من الصحراء عوض لهم لافيجري في القبائل للعمل بها.

279 -Groffier Valérier, **Héros Trop Oubliés de Notre Epopée Coloniale**, [s.l.i], 1908. p 86.

280 -Hurel Augustin-Jean, **Scène de la vie chrétienne en Afrique à la fin du XIXe siècle** Maison Saint-Joseph, Lille, 1898. p 131.

281 -Vuilot, **Op cit** , p 140.

وفي جويلية من نفس العام شن جماعة من 40 تارقياً معظمهم من التايتوك[282] هجمة على "حاسي إنفل" كخطوة استباقية لصرف الفرنسيين عن التقدم جنوباً؛ ففوجئ الطوارق بتعاون البدو في المنطقة مع الفرنسيين ما جعل هذه العملية تفشل وقُتل العديد من الطوارق بينما اقتيد الآخرون إلى الجزائر، وتعهد أحد هؤلاء الطوارق لبعض الآباء الذين عالجوا جراحه بأنه سيأخذهم إلى بلادهم، وتحت ضغط لافيجري تمَّ إطلاق صراح الطوارق الأسرى وردِّهم إلى الصحراء وأرسل معهم لافيجري ثلاثة منصِّرين لإنشاء محطة في بلاد الطوارق.

أرسل لافيجري مع هؤلاء الطوارق ثلاثة منصرين:

- بولميي (Marie-Alfred Paulmier) من أبرشية باريس.
- مينوري (Philippe Ménorets) من أسقفية نانت (Nants).
- بوشارد (Pierre Bouchard) من أسقفية ليل (Lille) .

للوصول بهم إلى بلاد الطوارق، كما صرح بهم لافيجري "إنهم في طريقهم نحو السودان"، وفي يوم 15 فيفري 1876[283] خرجوا من متليلي، ثم انقطعت أخبارهم بعد ذلك، حتى بلغ خبر مقتلهم في الطريق على يد نفس الطوارق المرافقين لهم[284].

هذه النهاية المأساوية لأولى المهمات في عمق الصحراء لم يراها "الآباء البيض" إلاَّ نهاية مجيدة في سبيل مهمتهم، و لم تزدهم إلاَّ رفعاً لحماسة إخوانهم من المنصّرين على أمل الحصول على فرصٍ ناجحة وحظوظٍ أوفر في المستقبل؛ ولكن خلال تلك السنوات التي تلت الحادثة تمّ التخلي عن جلِّ المحطات الصحراوية مع الاحتفاظ بمحطة متليلي[285]؛ وصُرف النظر عن التوغل عبر الصحراء الوسطى وسلسلة الهقار إلى التفكير في الصحراء الشرقية أين تلقّى "الأب ريتشارد" (Richard) عند زيارته لورقلة في بداية 1878 أمراً من المسؤولين في المقر بالجزائر للذهاب والتمركز في غدامس ما دامت العلاقات غير سيئة مع طوارق ناجّر، وكذا لجسّ النّبض في أقصى الجنوب الشرقي؛ فقد أصبح هذا الأب المنصّر معروفاً جدّاً في الصحراء وأَلِفَ العيش بها واعتبره الكثير من الأهالي في الجنوب الشرقي واحداً منهم حيث كان جابياً لضرائب فرنسا بالمنطقة وحتى قد عُيّن في منصب "القايد" على البعض من تلك القبائل[286].

التحق بالأب المنصّر "ريتشارد" في نوفمبر 1878 كلّ من الأب "غيليت" (Guillet) والأب "كرمابون" (Kermabon) في غدامس محاولين العمل على كسب الناس بالأعمال الخيرية، ومن تمّ الحصول على المعلومات بالاستخبارات، وفي ماي 1879 أُرسل "ريتشارد" و"كرمابون" من طرف مسؤولهم إلى زعماء طوارق "ناجّر" لدراسة المنطقة وربط علاقات مع زعماء المنطقة وتشييد محطات جديدة وفتح الطريق إلى السودان، وقد خرج

---

[282] - احدى القبائل التابعة لجزء من كونفدرالية الأهقار.

[283] -vuillot, **Op cit**, pp 141-142.

[284] -Brébion, **Op cit**, p 66.

[285] - تجمّد النّشاط في وسط الصحراء طيلة السّت سنوات التي أعقبت الحادثة. **Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7.1 .

[286] -Brébion, **Op cit**, p 67.

الاثنان من ورقلة باتجاه الصحراء الشرقية حتى وصلوا الأراضي التي تجوبها قبائل "إمنغاستْنْ"، والتي وصفها "ريتشارد" بعجب كبير: "إنه شيءٌ خارقٌ ما تبصره عيناي... أشجار كبيرة ومراعي واسعة ومخضرّةً... قطعان كبيرة من الجمال والأغنام هنا وهناك... لم يعد هناك صحراء... إنها الخصوبة... إنها الحياة... إنها ركن من فرنسا... إنها مفاجأة رائعة ستبقى طويلاً راسخة كذكرى"[287].

كذلك نقل "كرمابون" بعض انطباعاته ونقل ما قاله له بعض من مقدّمي قبيلة "إفوغاس"؛ فقد نقل عنهم: "هنا عدوكما الوحيدان: الشمس والأفاعي، أنتم ـالفرنسيونـ متوهمون عندما تعتقدون أنَّ الطوارق أعداء شرسون وتتوجسون منهم كثيراً، من دون شكٍّ هناك من بيننا كما في أي مكان هناك من لا يعيش إلاَّ على القتل والنهب وهؤلاء هم أعدائنا أيضاً كما هم لكم، ولا يجب الوثوق بمثل هؤلاء، فلا تعتقدوا أننا أعداء كلّ من يأتي لزيارتنا في بلدنا، ولا تنسوا أنَّ الذين لا يريدون رؤيتكم تختلطون معنا هم الآن في غدامس، فهم يخافون على تجارتهم؛ وسيكون من الجيّد أن تعلموهم أنكم لستم هنا لهذا الغرض، إنهم يتصدون دوماً لكم، وسيجعلونكم بعيداً من هنا قدر المستطاع"[288].

وانتظر "الآباء البيض" حتى سبتمبر 1879 ليتلقوا رسالة من "تمّاسين" تعلمهم فيها أنَّ قبائل "إفوغاس" و"إمنغاستن" سيتوجهون للتخييم خلال الشتاء في وادي "إغرغر"[289] على بعد بضعة أيام من غدامس؛ فكانت هذه مناسبة لتوطيد العلاقة مع هذه القبائل المتحكّمة في هذا الطريق الصحراوي، فقرر الآباء الاتصال بالمسؤول الأعلى بالجزائر لطلب ترخيص للذهاب إلى ذلك الجانب من الصحراء، وعادت الإجابة في فيفري 1880 مرخصة لهذا التنقل مع أخذ الأب "كرمابون" كرفيق في السفر، وتم في هذه الرحلة الاتصال بزعماء ناجّر الشماليين "امنغاستن" و"إفوغاس"، لتسهيل الطريق نحو غات[290].

فقد تمت هذه الرحلة التجريبية بسلامٍ، كما نجح المنصّرون في ربط علاقات ودية مع عدة زعامات قَبَليّة، وتشجع "رتشارد" في القيام بأعمال (رسولية) أخرى في نواحي غات، ولَمَّا عاد إلى غدامس من جديد عبر طرابلس خرج رتشارد ورفيقين معه في ماي 1880 قصد التمهيد للوصول إلى غات بزيارة "امنغاستن" المسيطرين على الطريق نحو غات ليتلقى ضمانات ودعماً في رحلتهم نحو غات[291]، وأرسل مرة أخرى "رتشارد" في طلب ترخيص للتحرك جنوباً باتجاه غات، وجاءهم الترخيص من المسؤول الأعلى في الجزائر لاستئناف المهمة باتجاه غات[292]، فانطلق رتشارد الذي كان في طرابلس في هذه الأثناء إلى غدامس قصد الانطلاق إلى غات، إلاَّ أنَّ وصول الآباء إلى غدامس وافقه وصول خبر مقتل "فلاترس" ومهمته في ديسمبر 1880، فتلقوا أمراً ثانياً بعدم التوجه إلى غات وكان عليهم الانتظار إلى إشعار جديد.

---

287 -**Ibid**, p 166.

288 -Vuillot, **Op cit** , p 170.

289 -انظر الخريطة في الملحق.

290 -Vuillot, **Op cit**, p 171.

291 -Brébion, **Op cit**, p 89.

292 -**Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7.1-2.

طال انتظار الأب "رتشارد" حتى كتب إلى لافيجري في جويلية 1881 قائلا له:" لو اعتقدت، أيها الأب الجليل، بأننا مع وجوب الطاعة _يقصد أمر التريّث المطلوب منه_ نفكّر في النوم في ساحة المعركة فنحن لم ننم، بل على العكس فأنظارنا موجهة باستمرار وعلى الداوم نحو الطريق التي سنستأنفها قريبا"[293]، فقد كان خلال كل تلك المدة على اتصال وتواصل مع قبائل ناجّر.

وفي 18 ديسمبر 1881 انطلق كل من الآباء "ريتشارد" و"مورا" و"بوبلارد" من غدامس باتجاه غات؛ ولكن في اليوم التالي من الرحلة تمت مهاجمتهم من طرف مرشديهم في الصحراء والذين يتكونون من ثلاثة من الطوارق، وبعد إجراء التحريات التي كشفت أنَّ للسنوسية يدٌ وراء هذه الحادثة[294] تم استدعاء من تبقى من الآباء المنصّرين في غدامس والمناطق التابعة لطرابلس، وطويت معه مرحلة من مهمة الصحراء.

ورغم التخلي عن مهمة غدامس في سنة 1882 إلاَّ أنه لم يتم التخلي كلية عن مهمة الصحراء فقد عاد "الآباء البيض" من جديد إلى الصحراء الوسطى، بداية من متليلي 1882 ثم دخول مزاب 1884، وكذا ورقلة 1891 والقولية في 1892 و"منطقة الأبيض" أولاد سيدي الشيخ سنة 1899.

وبالنسبة للسودان فقد انطلقت المهمات بها عبر السنغال وصولاً إلى داخل السودان، وكان على الآباء الانتظار حتى سنة 1894 حين ارتفع العلم الفرنسي في "تنبكتو" أين تمكن المنصّرون من دخول هذه المدينة، كما تمّ في هذه المرحلة التنظيم الفعلي والنهائي للمحافظة الرسولية للصحراء[295] وتوجيه الكثير من الاهتمام إلى الحركة التنصيرية بين الأهالي في هذه المناطق، خاصة مع توفر الظروف الملائمة ومنها التقدم الفرنسي جنوباً في الصحراء حيث لم يتسنّى لهم دخول مزاب طوال الفترة السابقة رغم كل المحاولات، إذ اكتفوا بتواجدهم في متليلي، ولكن ما إن تم احتلال مزاب في نوفمبر 1882 حتى هرعوا للدخول إليها في ديسمبر 1883، بعد أن عادوا منذ فترة وجيزة إلى الاستقرار بمتليلي في نوفمبر 1883 وكانوا قد انقطعوا عن هذه المحطة منذ 1876.

أراد الكاردينال لافيجري في هذه المرحلة إحياء أمجاد "فرسان مالطا" (Cavaliers de Malte) والإخوة الاسبتاريين (Hospitaliers) وفرسان القديس يوحنا لبيت المقدس (Cavaliers de Saint Jean)، تحت حلة جديدة وذلك بإنشاء فرقة "الإخوة المسلحين" (Les Frères Armés du Sahara) أو جند الصحراء كرسل لحماية الإنجيل وإعاقة تجارة الرقيق، ولكن هذه الفرقة لم تُهيأ للعمل العسكري فحسب فما إن استقرت هذه الفرقة في بسكرة وورقلة والقولية أخذت مبادئ في الطب وتعلم أعضائها لغات إفريقيا الوسطى[296] وتلقوا تعليماً خاصاً بالزراعة والوسائل المتاحة لاكتشاف نقاط المياه وحفر الآبار الارتوازية وصيانة وإنماء الواحات[297]، كما أسّس

---

293 -Brébion, **Op cit** , p 116.

294 -Groffier Valérier, **Op cit**, p 94.

295 - انظر خريطة محافظة الصحراء الرسولية البابوية، ملحق الخرائط رقم **04** .

296 - من أعضائها المسؤول عن هذه الفرقة المنصر أوغسطين هاكارد Auguistin Hacquard الذي أصبح أول نائب رسولي بابوي في السودان (1897–1900). انظر :

Jean-Claude CEILLIER, **Mgr Anatole-Joseph TOULOTTE**, S.m.A, Rome, 2006. P 3.

297 -**Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7.1-2.

الكاردينال معهداً لذات الغرض ببسكرة ومترلاً للترهبن، وأقام شهرين ببسكرة تحضيراً لتأسيس الفرقة تحت إشرافه بين ديسمبر 1890 وجانفي 1891[298].

وما أن بلغ مسامع السلطات العسكرية في الصحراء نية الكاردينال تلك حتى سارعت لدفع المشروع لأنه يساعدهم في فتح الصحراء أمامهم من دون استتراف للقوات النظامية في الصحراء؛ فقد أبدى النقيب "قودرون" (Godron) قائد الدائرة العسكرية لمزاب في 27 أفريل 1890 نيته في تكوينه لجزء من منظمة إخوة الصحراء التي يعتزم لافيجري إنشاءها للتوغل في الصحراء والسودان[299].

وكما زار الحاكم العام "كامبون"[300] في ماي 1890 برفقة "جول فيري" الكاردينال لافيجري ودار بينهم حديث حول المشروع وإمكانية استعمال فرقة "الإخوة المسلحون" في الحملة العسكرية المعتزمة على واحات "تْوات"، مما سيوفّر على الحكومة إرسال فرقة نظامية بنفقاتها؛ فقد كان الآباء قبل ذلك معاونين في الفرق العسكرية خاصة الفرق الصحراوية كمرشدين (Aumônier)، وكانوا يطلبون هذه الوظيفة لضمان وقوف السلطة العسكرية إلى جانبهم وأخذ السبق في المناطق المستعمرة[301].

وبتاريخ 14 ديسمبر 1890 بُلِّغ الكاردينال لافيجري بترقية المحافظة الرسولية للصحراء والسودان إلى مستوى نيابة رسولية (Vicariat Apostolique) وهو نائباً عليها؛ وقد كانت منذ 06 أوت 1868 محافظة قد فصلت من مهمة أفريقيا وأفريقيا السوداء؛ ليعاد في 15 جويلية 1893 تنظيمها بعد وفاة الكاردينال لافيجري، ثم تفصل في سنة 1901 نيابة الصحراء عن نيابة السودان لتصبحا نيابتين منفصلتين.

وفي ظل هذا المجال المتاح للعمل التّنصيري حاولت "مؤسسة مُنصِّري إفريقيا" أن يؤسس لمنطقة نصرانية جديدة، عاصمتها مزاب ومنها يكون المنطلق نحو الآفاق الرحبة في تلك الصحراء المتباعدة الأطراف، ويكون التركيز أولاً على المناطق ذات التجمع السكاني الهام في الواحات ثم البدو من الأهالي، ومراعاة الطبيعة العرقية للسكان حيث عدّت منطقتي مزاب والهقار الأمكنة الأفضل والأنسب لإيقاد نير النصرانية التي خبت جذوتها منذ أزمنة بعيدة وذلك لتوفر عوامل الكثافة السكانية والعرق المحلي (autochtone).

---

298 -**Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7-3.

299 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 47-3, 7-23.

300 - الحاكم العام للجزائر بين أفريل 1891 وسبتمبر 1897.

301 -Groffier Valérier, **Op cit**, p 94.

الفصل الثالث:

المحاولات التنصيرية الأولى في مزاب والهقار

المبحث الأول: مهمة مزاب

المبحث الثاني: المجتمع في مزاب والمنصّرون

المبحث الثالث: التنصير والسياسة الفرنسية في أقصى الصحراء

الفصل الثالث: المحاولات التنصيرية الأولى في مزاب والهقار

رغم التقدم الفرنسي في الصحراء الجزائرية إلاَّ أنَّ دخول مناطق مزاب أو الهقار كان مستحيلاً على طلائع رواد التنصير، فقد باءت أولى المحاولتين بالفشل الذريع ومقتل المنصِّرين، وكان لابد من انتظار توفير الحماية العسكرية لعلم السكان بطبيعة وأهداف المنصِّرين التي تتنافى مع أعراف وتقاليد سكان المنطقة ولاشتغال هؤلاء كعيون لفرنسا عليهم، فمنذ 1853 تاريخ وصول الفرنسيين إلى مزاب لم يتمكنوا من الدخول إليها إلاَّ بعد إلحاق مزاب عسكريا في 1882، ومن ثمَّ بدءوا في نشاطهم بها، وكذا في الهقار ورغم أنَّ محاولة "دو فوكو" كانت منعزلة وفردية إلاَّ أنها هي أيضاً لم تطُل رغم إحاطة الفرق العسكرية بها من الشمال الصحراوي ومن الجنوب السوداني، وتعثرت الحركة التنصيرية بها إلى ثلاثينات القرن الماضي.

المبحث الأول : مهمة مزاب

1_ إنشاء محطة مزاب

تأسست محطة متليلي كأول محطة لمؤسسة منصّري إفريقيا بالصحراء، كمؤسسة مكلّفة بمهمّة الصحراء في سنة 1874 من طرف "القس بوليي"، لكنه تم التخلي عنها بعد وقوع المقتلة لآباء ذات المهمة[302]، والذين أرادوا الخروج نحو السودان مع الطوارق، وبقيت هكذا إلى غاية 3 نوفمبر 1883 أين أرسل الكاردينال لافيجري إلى هذه المحطة كل من :

- الأب مالفريت (p. Malfreyt)
- الأب كرمابون (P. Kermabon)
- الأخ أوغسطين (F. Augustin)

وقرر مجلس المؤسسة أنَّ الآباء الموجهين إلى منطقة مزاب سيتجهون أولاً إلى متليلي أين يمكنهم التحضير لإنشاء مركز مزاب؛ منتبهين إلى قواعد الحصافة[303].

وكان خلال فترة الانقطاع الماضية قد زار الأب أوليفيي (P. Olivier) محطة متليلي مع مطلع عام 1879 قادماً إليها من الأغواط عبر القرارة بمزاب، يريد الاطلاع على الأوضاع في مزاب حيث كان يحاول ربط اتصال مع المزابيين بعد أن اطمئن إليه أهل متليلي، والبحث عمّا إذا كان بالإمكان أن يكون مرحّباً بهم عندهم، وكان المنصرون يجمعون المعلومات عن طريق الاتصالات وبفعل الاحتكاك مع القوافل المتجهة مِن وإلى مزاب، حيث يسجلون مشاهداتهم تباعاً عن الوضعية، خاصة عن دخول العبيد إلى مزاب[304]؛ وقد سجلت مهمة غدامس في

---

302 - انظر الفصل الثاني، المبحث الثالث.

303 -**Chroni-Trim** 1883-10-00, 20-1, 1.7.

304 -Le Comte de Lambel, **Op cit**, p 196.

تلك الفترة بأنَّ القبائل الخاضعة للفرنسيين كانت تشارك المزابيين في هذه التجارة، وكيف أنَّ "آغا ورقلة" يشجع هذه التجارة "السَّافلة" ويخفي ذلك عن الحكومة[305].

عاد الآباء البيض إلى الاستقرار بمتليلي بداية من نوفمبر 1883 وهي السنة التي تلت الإلحاق العسكري لمزاب، وكانوا قد تخلوا قبل ذلك عن هذا المترل لمدة تزيد عن ست سنوات على ذمة أحد سكانها، ولكنه وبحسب التقرير المسجل من آباء المحطة فإنَّ المتعهَّد له بالمترل لم يرع مترلهم كما ينبغي فوجدوه مُهملاً بعد عودتهم إليه، ويقع هذا المترل إلى جوار مترل قايد المدينة "مولاي حمودة"[306]، وقد رحَّب بهم القُيّاد والقاضي والسكان وأحضروا لهم التمر والرّمان، وسألوهم عن أحوال "سي عبد الله" _هكذا كان يسميه سكان المدينة_ وهو الأب "بولميي"[307] (وكان قد قتل في مهمة غدامس).

في ليلة 28 ديسمبر 1883[308] أفاق الآباء مذعورين تحت وقع سقوط جزء من المترل خاصة جهة قاعة التراتيل أين تكسرت الكأس وصندوق الحلّة الخاصة بالقدّاس، ووقع الضجيج في اليوم الموالي على هذه الحادثة وحيكت الروايات والقصص واجتمع المرابطون _حسب الآباء المنصرون_ وغنوا شُكراً في أحد منازل الجيران[309]، واضطر الآباء إلى الاستتار بوضع أغطية على الحائط المتهدم؛ وأرسل الآباء إلى "الدار الأم" بالجزائر برقيّة تعلمهم بالموضوع.

وخلال تواجد الآباء بمتليلي كانت تمر عليهم القوافل القادمة من الصحراء باتجاه مزاب يتوقفون عندهم خاصة يهود مزاب ويتعهدون بالتعاون معهم في حالة قرروا المجيء إلى مزاب وإدخال أبنائهم القسم، فقد كانت مطمح الآباء والمبشرين منذ طلوعهم الأول في الصحراء الجزائرية، وتوقعوا منها الكثير في مهمتهم حيث كانت تصلهم عن مزاب أخبار منذ زيارة "الأب شارمتان"، وهو من طلائع المنصّرين: كيف أنّ هذا الشعب "خِلقتُهُ كلها لا تزال مسيحية، فرغم الاضطهاد الطويل استطاع حفظ بعض العادات وكذا بعض الممارسات الكاثوليكية الجوهرية"[310]؛ وكان المنصّرون يتمنون أن يعيدوهم إلى ديانتهم الأولى بعد أن "أُجبروا على الإسلام"، وأنه ليس لهم من الإسلام إلاَّ نذر العقيدة _يعني الشهادتين_ "فقوانينهم ليست إلاَّ كآثار ثمينة للعادات والممارسات الكاثوليكية، كما أنها محتواة في قانونٍ كالقانون الكنسي، بالإضافة إلى أنَّ رجال الدين لا يُوظَّفون كما هو الحال عند المسلمين بالتوريث والدم ولكن كالمسيحيين عن طريق الاختيار وانتخاب الشخصية الكُفء بتبصُّرها وعِلمِها

---

305 -**Chroni-Trim** 1894-01-00, 2-8, 1.5.

306 -وهو ما جعله يتصدع ويسقط جزء منه لاحقا، انظر التالي.

307 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-10, 9.

308 -**Ibid**.

309 -وهذه الأيام من حيث لا يدري الآباء هي متوافقة لليلة المولد النبوي الشريف وربما لم يكن اجتماع الشيوح إلاَّ لإحياء الليالي بالمديح على النبي صلى الله عليه وسلم و لم تكن شكراً على هذه الحادثة.

310 -Père Charmetant, **Les Peuplades Kabyles et les tribus nomades du Sahara**, Des presses à vapeur de La Mineve, Montréal, 1875. pp 6-7.

كما نجد عندهم أيضا التقاليد التي يمكن تسميتها بالرَّسولية، فالإقرار أمام الملأ والحرمان (الهجران أو البراءة ما زال سارياً حتى الآن في مزاب)، أضف إلى ذلك التشدُّد الذي يشبه القرون الأولى للكنيسة"[311].

وقد علّق الآباء على هذه الأصداء آمالهم وتمنوا أن يكون لهم أثر طيب وسريع في مزاب فقد جاء بعد "شارمتان" الأب "أوليفيي" وقدم مثل هذه الملاحظات أيضاً ما جعلهم يتحيَّنون الفرصة لدخول مزاب ومباشرة العمل بها[312].

بلغت البرقية "الدار المربعة" مُعلِمة بتهدّم منزل المحطة، وأنَّ آباء متليلي سيذهبون للاستقرار بمزاب التي كانت مبلغ رغباتهم وتطلعاتهم[313]، و لم تطل حتى عادت البرقية من الجزائر تسمح للآباء المنصّرين في متليلي بكراء منزلٍ في غرداية في الحين، والاستقرار النهائي بمزاب[314]؛ وكان "أ. مالفرايت" (Malfreyt) في ذلك الوقت بغرداية حيث تلقى هذه البرقية وشرع في البحث عن منزلٍ للكراء، وبعد يومين من البحث لم يجد إلاَّ يهودياً يسمى "إسحاق بن داوود" ليكتري له داراً في حارة اليهود بمبلغ 250 فرنكا، 150 دفعها حيناً ومبلغ 100 فرنك في مدة خمسة أشهر، وهو مبلغ جدُّ مرتفع بالنظر إلى الحالة المتهرئة للمنزل المكترى[315] كما وصفه الآباء.

تجهز الآباء المنصرين للرحيل النهائي من متليلي يوم 14 جانفي 1884 وفككوا أثاثهم، وشحنوا الجمال للرحلة في 15 جانفي 1884 نحو غرداية وتركوا "كرمابون"[316] في متليلي لجمع ما تبقى من متاع المنزل وتركِ المنزل لمن يقوم عليه[317]، وصلت القافلة المقلة للآباء مساء ذلك اليوم ووجدوا المنزل المكترى على غير ما وعدهم اليهودي من النظافة واللباقة[318].

بدت علاقة الآباء مع السلطات العسكرية في الصحراء تتسم بالكثير من التعاون والتعاطف، مع وقوع بعض المضايقات من حينٍ لآخر؛ خاصة حينما تتعارض مع المصالح الاستعمارية، كاستفزاز السكان بالمسألة الدينية، حيث كان الآباء خلال السنوات السّت التي سبقت احتلال مزاب عسكريا عام 1882 وبعد انتقالهم إلى مزاب سنة 1884 في اتصالات دائمة مع السلطات ولو في شكل زيارة من دون هدف واضح ــزيارات مجاملةــ حيث سجل في 10 ديسمبر 1883 آخر هذه الزيارات لغرداية من قِبل الآباء قبل انتقالهم للاستقرار بها، وذلك من أجل زيارة السلطات المحلية[319]، وأحياناً لما تصل المؤن من الجزائر إلى المنصّرين يهدُون منها بعض الأشياء للسلطات؛

---

311 -**Ibid**, pp 11& suivants.

312 -Le Comte de Lambel, **Op cit**, pp 197-198.

313 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-1, 2.31.

314 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 24-1, 1-10.

315 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-10, 13.

316 - من قدامى المنصّرين في الصحراء كان رفيق "رتشارد" في مهمة غدامس قبل مقتل هذا الأخير.

317 -بيع هذا المنزل في عام 1887. **Chroni-Trim** 1891-07-00, 51-1, 7.1-2 .

318 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-10, 16.

319 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 10-21, 4.

كما حدث وأرسلوا في 29 ديسمبر 1883 قارورتي نبيذ أبيض للمقدم "ديديي" القائد الأعلى لدائرة مزاب واثنتين أخريين إلى "مسانتيي" (Msantier) رئيس المكتب العربي[320].

ولما استقر الآباء بمزاب توالت الزيارات من السلطات على مترل الآباء المنصّرين، حيث زارهم بعد خمسة عشر يوماً من وصولهم بعض القادة العسكريين وقائد فرق القناصة الجزائريين ومعاونيهم، والذين قدموا في مهمة إلى مزاب تمهيدا لزيارة الحاكم العام "لويس ترمان" المرتقبة في 20 فيفري 1884[321].

كما سايرت وتابعت السلطة العسكرية الآباء البيض في مراحل تقدمهم بمهمة بمزاب، حيث كان القائد العام على رأس الحاضرين في حفلة أقامها المنصّرون لوضع حجر الأساس لتشييد المترل الذي عزموا على بنائه في القطعة الأرضية التي اشتروها خارج أسوار مدينة غرداية على ربوة "تِضَفْتْ"[322]، كما كان يحضر بعض الضباط أحياناً قدّاس الأحد.

وقد وصف الأب شونيفاس (Chenivèses) العلاقات بين 1884- 1890 بالفترة اللازمة لتوطيد أقدامهم بمزاب، بالجدّ ممتازة بينهم وبين السلطة العسكرية المحلية، وامتلاء السلطات عطفاً اتجاههم وهي من النقاط الأساسية والقاعدية التي كسبها المنصّرون خاصة في منطقة "تؤدّي فيها هذه العلاقات دوراً حيوياً"[323]، فكما كانت الزيارات تُتبادل كانت مصالح الآباء تقضي تدخّلاً من السلطات في كثير من المناسبات، حيث وجدوا صعوبة في الحصول على القطعة الأرضية لبناء مترل للمنصِّرات بعد قدوم الأخوات للعمل في مزاب، حيث حرمهم المزابيون من أي فرصةٍ للحصول على قطعة أرض، حتى تدخل الجنرالات في ذلك، ومكنوهم من الحصول على قطعة أرض من أراضي العرش لشرائها[324].

2_ تطور محطة مزاب

بدأ الآباء المنصرون في توطيد أقدامهم بالمنطقة ووضع برامجهم العملية والميدانية، فمن الناحية التنظيمية لمهمتهم من الداخل أراد الآباء في مزاب _كمركز للنيابة الرَّسولية للصحراء والسودان ولا تخضع لأسقفية الجزائر_ أن يتحرروا بعض الشيء من الكونكوردا[325] الفرنسية التي تحدد العلاقات بين صلاحيات الدولة وصلاحيات المؤسسة البابوية، خاصة من حيث إحياء الطقوس الكنسية التقليدية التي لا تقوم بها الكنيسة الفرنسية.

قام المنصرون بمزاب يحيون المناسبات على هذه التقاليد منها طقوس الدفن المقدسة والقربان وقرع الأجراس، حيث أتموا مراسيم دفن أحد رجال الكتيبة التابعين للمكتب العربي لغرداية في 28 أفريل 1887 على قرع

---

320 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 10-21, 9.

321 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 10-21, 24.

322 -انظر لاحقا.

323 -**Chroni-Trim** 1890-04-00, 46-4, 7.5.

324 -**Chroni-Trim** 1894-01-00, 61-6, 10-2.

325 -**Concordat** voir: Em. Sévestre**, L'Histoire le Texte et la Destinée du Concordat de 1801**, Imprimerie Deslis, 2e éd, Tours, 1905.

الأجراس رغم بعض المعارضة من العسكريين، إلاَّ أنه تمت المراسيم كما خطط لها الآباء[326]، خاصة وأنَّ الناقوس قد ثُبّت على سطح المترل إلى جانب الصليب في نفس الشهر[327].

بقي المنصّرون في المترل الذي اكتروه من اليهودي إلى أن تحصلوا على قطعة أرضية في أقصى الحي اليهودي، وشرعوا في بنائها في 05 جوان 1888 بعقد حفلة صغيرة لوضع الحجر الأساس للشروع فيها، وألقى المسؤول عن المحطة خطبة حماسية أمام القائد العام للناحية والسلطات يشرح فيها أهداف المهمة الإفريقية ويذكّر بالتضحيات التي قدمها هؤلاء في هذا السبيل.

وانطلقت من فورها أشغال بناء هذا المترل، وقد كانت السلطة العسكرية ترسل لهم الدعم اللازم عند الحاجة إليه، فقد كان العقيد "ديدبي"[328] خير عونٍ لهم في الأشغال حيث كان يرسل لهم البنّائين والنّجارين والحّدادين من كتيبة المكتب العربي بمزاب للتركيب والتأثيث، خاصة وأنَّ المترل سيكون عاصمة لنيابة الصحراء، حيث حُوِّلت محطة مزاب إلى عاصمة للمحافظة الرسولية و لم يكن لمحافظة الصحراء والسودان مقر دائم قبل ذلك، فكانت تدار من الدار الأم لمؤسسة منصري إفريقيا بمدينة الجزائر منذ أن رُقّيت إلى نيابة رسولية للصحراء في 06 مارس 1891، وقد جاء الأسقف "تولوت" (Toulotte) [329] ليسير أمور النيابة انطلاقاً من مزاب؛ فأخذت العاصمة الجديدة للنيابة في التحضير لفتح محطة القُولية وإعادة الاعتبار لمحطة ورقلة، حيث كان من المزمع إنشاء مركز للمبشرين وآخر للإخوة المسلحين بها[330].

ووقع نظر الآباء على قطعة أرضٍ تابعةٍ للعرش شاغرة قرب حي العرب وحارة اليهود، فأرادوها مكانا يبنى فيه مترل للأخوات اللائي جئن في 17 أكتوبر 1891 للاستقرار بمزاب والعمل على المهمّة قرب الأهالي في هذه المنطقة، وأرادوا شرائها من العرش لكن الأمور كانت عسيرة أمام إصرار السكان على أن لا يباع للآباء البيض قطعة أرض واحدة خاصة بعد حصولهم على القطعة الأرضية التي بني عليها المترل الأول، وبعد تدخل الجنرال "سويتز" (Swinez) أصبحت هذه القطعة ملكية الآباء بعد دفع ثمنها، كما حصلوا على قطعة أرض أخرى في ربوة "تضفت"[331] المقابلة لقصر غرداية وبدأت الأشغال بها في 22 مارس 1894[332]، وبدأت بذلك مَهمَّة غرداية تشهد توسعاً متواصلاً، وبلغ عدد المشتغلين بها في 1891 من آباء وإخوة ومعاونين من زنوج 23 عضواً؛ وما إن فتحت السلطة العسكرية واحة "ضَّايا" على مدخل غرداية الشمالي الغربي ووطّنت فيها البدو الذين يسكنون الخيام

---

326 - **Chroni-Trim 1884**-04-00, 10-21, 4.

327 - تبتت في 09 أفريل 1887.

328 - **Chroni-Trim** 1892-07-00, 51-1, 4-1.

329 - انظر الأساقفة الذين تعاقبوا على أسقفية الصحراء إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ملحق الوثائق، ملحق رقم **11**.

330 - **Chroni-Trim** 1892-07-00, 51-1, 5.5.

331 - أشارت التقارير إلى شرائها لكن الطريقة التي تحصلوا عليها أو كيف تمكنوا من ذلك فلم يذكر؛ وروى لي الأستاذ عبد الرحمن حواش أن هذه القطعة كانت محل خصومة بين ورثها وأراد أحد الجيران أن يبخس ثمنها ففضل أحد الملاك بيعها للمنصرين على أن يبيعها لأخرين من عمومته.

332 - **Chroni-Trim** 1892-07-00, 62-5, 1.5.

بنواحي مزاب، حتى حصل فيها الآباء على بستانٍ به منزل طوبي[333] يفي للتقرب من الأهالي في فصل الصيف، عندما ينتقل السكان للإقامة بالواحات، وهكذا امتلك المنصّرون بمزاب إلى غاية عام 1895 ثلاث قطعٍ أرضيةٍ وبستاناً، شرعوا في بنائها لتكون مراكز للمَهمَّة الصحراوية، وفرقتين عاملتين من المنصّرين والمنصّرات.

كُللت أولى مجهودات التوسعة الحاصلة في مَهمَّة الصحراء بتأسيس محطة القُولية في 03 ديسمبر 1892 من طرف النائب الرَّسولي على نيابة الصحراء والسودان في مزاب "الأب تولوت"؛ حيث أرسل الأبوان المنصران "مينوري" و"مشرال" (Micherel) برفقة الزنجي "بيقا" (Biga) للانتقال مع المكتب العربي إلى المركز العسكري الجديد والذي أقيم مع احتلال القُولية، واستقبلهم العقيد لامي (Lamy) حيث بقوا لمدة ضيوفا في إقامته الخاصة في البرج العسكري المستحدث، تحضيراً للعمل الميداني وتشييد مقر للمهمة.

ففي فصل الشتاء تكون القُولية شبه فارغة حيث يقيم في قصر القُولية الزناتيين والزنوج في واحاتها "الحراتين"، في حين يجوب حولها بدو الصحراء الذين يدخلونها مع بداية الربيع والصيف، وقد منحت الحامية العسكرية للمنصّرين قطعة أرضية واسعة غير بعيدة عن القصر ليشيّد عليها منشآت للمَهمَّة وإقامة مستصلحة فلاحية وحفر بئر ارتوازية، خاصة وأنَّ ما كان يفكر فيه الآباء في المحطة و"الأب تولوت" هو إقامة قرية للزنوج في الصحراء على غرار ما هي عليه قرى الأيتام بالعطَّاف في حوض الشلف، على أمل جمع الزنوج المضطهدين والجائعين[334]، ولتجسيد طموح لافيجري في هذا الشأن لَمَّا أرسل إلى قرطاج زنوجاً لتعليمهم وتنشئتهم للمهمة الإفريقية[335].

ولما تمت التحضيرات لإرسال أولى البعثات، التي ستسكن بالخيام أولاً ويكون على عاتقها بناء منزل المهمة، أرسل "تولوت" بالأب "ماري" (Mary) كمسؤول على محطة القُولية واثنا عشر فرداً تحت رعايته جلّهم من الأطفال الزنوج ليكونوا اللّبنات الأولى لمخيّم الزّنوج الجديد، على غرار قرى الأيتام في حوض الشلف[336]، منهم أربعة كانوا قد تكونوا في مزاب هم: "بيقا" و"إمانويل" و"مسعود" وآخر جديد اسمه "صالح"[337]، و لم تنطلق رحلة المهمة من مزاب قبل نهاية سنة 1893، وبعد ثلاثة أشهر من البداية لم يتضح أن شيئاً قد تأكدّ بعدُ للمجموعة، غير البئر الارتوازية التي حُفرت، وهذا لأنَّ الأرض التي مُنحت لهم لا تتبع بعقدٍ أيَّ مالكٍ ظاهرٍ، فكان الآباء متوجّسين من أن يأتي مالكُها ويطالب بها، رغم أنهم قد دفعوا عنها للمكتب العسكري 50 فرنكاً رمزياً[338].

بقيت الأوضاع على حالها و لم تستتب الأمور حتى نهاية سنة من تواجد المحطة في القُولية حيث افتُتحت مدرسة للآباء وأُضيفت داخلية تابعة للمدرسة حيث أصبح بالإمكان لحوالي أربعين طفلاً من أبناء البدو ارتياد المدرسة وإرسال أبنائهم تباعاً إليها وإلى داخليتها؛ كما صار بإمكان الآباء البيض الخروج والانتقال بين القبائل

---

333 -**Chroni-Trim** 1892-01-00, 61-6, 10-2.

334 -**Chroni-Trim** 1893-04-00, 58-6, 6.

335 -**Ibid**.

336 -انظر الفصل الثاني، المبحث الثاني.

337 -**Chroni-Trim** 1892-01-00, 61-6, 10-2.

338 -**Chroni-Trim** 1894-04-00, 62-5, 2-1.

البدوية ودخول خيامهم بسبب الخدمات المقدمة من التمريض والعلاج[339]، هذا وإلى جانب محطة القُولية كانت ورقلة هي أيضا قد بدأت تشهد تحركاً للمنصّرين وبخطوات متسارعة لفتح المدرسة وتقديم الخدمات للأهالي خاصة مع البدو الذين يأتون للتخييم قرب المدينة في موسم جني المحاصيل.

ولكن بعد السنة الثانية أي سنة 1894 تم التخلي لبعض الوقت عن محطة القُولية إلى غاية موسم 1897، حيث أعيد الاعتبار لهذه المحطة من جديد بعد تركز القوات الفرنسية بها؛ فقد حولتها القيادة العسكرية للصحراء نقطة تركيز للقوات والوحدات الفرنسية التي ستوجه نحو أقصى الجنوب بين سنوات 1898-1902؛ وتحمس الآباء للمدرسة وفتح داخلية بها لجعل أطفال البدو يستقرون عندهم[340]، وكانت المحطة ممر المنصِّرين نحو الصحراء؛ ومنها زيارة الوالي الرسولي للواحات الجنوبية (قُورارة وتْواتْ وتِدِكلت والسَّاورة) مباشرة بعد الاستعمار العسكري لهذه الواحات الجنوبية.

3_ نشاط محطة مزاب من 1892 إلى 1916

حاولت المهمات التنصيرية استمالة الأهالي بالإحسان إليهم، وذلك بإعطاء العلاج لكل من يتقرّب إلى المستوصف أو بالتوجه إليهم للعلاج في منازلهم، والحرص على الرقة والترحاب بكل من يتقرب إليهم وتلبية رغباته؛ حيث كان المستشفى مكاناً خصباً للتأثير على الأهالي الذين كانوا يلجؤون إليهم، كما لا يتورعون عن القيام بتعميد المشرفين على الهلاك من المرضى، وقد سجّلت حالتين في مزاب من هذا القبيل: الأولى على زنجيٍّ من ضّايا وآخر من بدو الأغواط كانوا قد قدموا للتداوي في المستشفى الأهلي، فتم عزلهم في زاوية دون القاعة الكبيرة التي يُجمع فيها المرضى أين مورست فيهم شعائر التعميد لما أشرفوا على الهلاك[341].

وقد فتح الأخوات عند استقرارهن الأول بمزاب منزلاً مكترىً من الأهالي ليكون مشغلاً ومستوصفاً، وفي سنة 1895 لما فتح الأخوات منزلهن الكبير في "تِيضَفْتْ" فتحن فيه مستشفى مدنياً للأهالي؛ وبعد ثلاث سنوات فتحن مستشفىً للعسكريين[342]؛ وفي سنة 1902 بدّل الآباء إقامتهم مع الأخوات في "تِيضَفْتْ"، حيث دشن الآباء هنالك مدرسة ومستوصفا، فأصبح للآباء مستوصفين ومدرستين وللأخوات مستوصفين ومشغلين صغيرين[343].

وإلى غاية تشييد مستشفى القديسة "ماري مادلين" في 1897 من طرف الحكومة العامة في الجزائر، كان المستشفى العسكري الوحيد والأول في مزاب[344] قد تعهدت السلطة العسكرية بالعمل فيه إلى جانب الطبيب

---

339 -Mission d'Afrique des Pères blancs, **Bulletin - Mission des Pères Blancs**, 1903, t35, Paris, 1903. p 315.

340 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-15.

341 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-4.

342 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-5.

343 -**Chroni-Trim** 1903-04-00, 97-7, 1-1.

344 -Gouvernement general de l'Algéie, **Rapport sur les Ouvres Spéciales Intéressant les Indigène**, Victor Heintz, Imprimeur, Alger, [s.d]. p 4.

العسكري للأخوات كممرضات ومُسعفات، وكانت الأخوات المنصّرات يَقُمن بنفس العمل في مترلهن الواقع في أقصى حارة اليهود وفي المستشفى المفتتح إلى جانب مترل الربوة "تِيضَفْتْ" الذي يمتلكه الآباء البيض بعد استبداله مع الأخوات اللائي اتجهن إلى مترل الحي العربي، وكما تجري الأمور التنظيمية في كل المَهمَّات هناك صيدلية في المترل يقدم الآباء المنصّرون منها الأدوية للمحتاجين، كما يأخذونها أثناء خرجاتهم الميدانية قصد الاحتكاك أكثر بالمجتمع المحلي، وبلوغ خيام البدو المقيمين على طول مجرى وادي مزاب في بعض أوقات السنة؛ وقد بدأ الإقبال على خدماتهم شيئاً فشيئاً حتى بلغت في 1890 ما معدله 220 تدخلاً، ممثلة أساسا في تقديم العلاج والمداواة أو في تقديم الأدوية[345].

وكان من الناذر أن يفتح لهم أحد المزابيين الباب لدخول مسكنه لمداواة أحد العاجزين؛ فكان المنصرون يسجلون هذه الحالات الناذرة على أنها فرصة ووهبة تحصل عليها الآباء، فخلال الفترة الممتدة من 1884 إلى 1890 حصلت حالتين اثنتين: حيث استدعى أحد أغنياء بني يسجن "الآباء البيض" لتفقد أخيه؛ وفي بنورة طلبهم خليفة بنورة[346]، وبقي دخول المنازل محظوراً تماماً على المنصّرين بعد أن تمكنوا من دخول مزاب بمعونة سلطات الاحتلال سنة 1882؛ وعبّر المنصِّر "شونيفاس" بعد عودته من رحلة بين بنورة وبني يسجن عن أساه لعدم تمكنه من التوغل إلى داخل البيوت لتعميد بعض الأطفال المتوفين في مزاب، كما هو عليه الحال في القبائل ومن ذلك قوله: "للأسف! يبدوا أنّ زمن الرحمات لم يأت بعدُ من أجل الصّغار المزابيين، ورغم ذلك نأمل أن لا يكون بعيداً"[347].

حاول الآباء الامتزاج مع العناصر المحلية بالتجوّل في المدينة سواء غرداية أو في مدن مزاب الأخرى أو حتى في الواحات القريبة، وحتى إلى متليلي _60 كلم إلى الجنوب_ للقاء الأهالي وعلاجهم إذا احتاجوا إلى العلاج، وكانوا يأخذون معهم الهدايا الرمزية أو الخبز ليوزّع على الصبية في الطريق، كما اصطحبوا معهم الأطفال للترهة في أوقات الدراسة، حيث يمنحون لهم عطلة ويأخذونهم إلى زيارات خارجية وقد اصطحبوهم إلى مدينة العطف الواقعة على بعد 11 كلم من إقامة الآباء جنوب وادي مزاب، وأيضاً إلى واحات غرداية[348]، كما كانوا يدعون الأهالي لمشاركتهم في بعض الحفلات الدينية التي يتصرفون فيها على حسب مقتضيات الحال، منها أنهم ألغوا مناسبة عيد الفصح لعام 1887 وعوضا عن خروف القربان أقيمت لعبة اليانصيب ليشارك فيها جميع الحاضرين[349].

كما كان لتركيب الصليب وصدى الجرس الصدمة والإزعاج للمزابيين الذين ذهبوا يحتجون على العملية، وارتفعت درجة السخط والاستياء وازدادت عمقاً في سنة 1887، إذ كان الآباء يستعملون قرع الأجراس أثناء

---

345 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 47-3, 7-36.

346 -**Chroni-Trim** 1890-10-00, 48-3, 7-16.

347 -**Chroni-Trim** 1890-10-00, 35-3, 7-2.

348 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 47-3, 7-8.

349 -**Chroni-Trim** 1887-07-00, 35-3, 7-6.

سير المواكب الجنائزية للجنود المتوفين هنالك كوسيلة للتنغيص على المزابيين[350]، كما كانت علاقة الآباء واليهود غير واضحة تماما، إذ لم يكن يحتمل اليهود وجود الآباء البيض إلى جوارهم، ولا يقبلون تطبيب أبنائهم أو معالجتهم من طرف هؤلاء؛ وقد وقف الآباء على بعض الحالات وسجلوها لما كانوا يحاولون التدخل لإنقاذ حياة طفل يهودي لكن أولياء الأطفال كانوا يرفضون تماما إن يقترب المنصّر من أبنائهم المرضى أو يلامسوهم، و لم تكن تلك الحالات معزولة بل تكررت مرات عدّة[351].

وفي نهاية 1902 كثف المنصّرون من نشاطهم داخل المدينة بفتح مستوصف في الشارع الجديد "أغْلاَدْ أجْدِيدْ" وهو أحد الشوارع التي تعج بالحركة داخل المدينة؛ كما توجه المبشرون لفتح مدرسة على مشارف المدينة في المكان المسمى "بَابْ الرَّاعِي"، وفَعَّلت مهمة الجولة والخروج اليومي داخل المدينة في محاولة للحصول على أكبر قدرٍ من المتعاطفين معهم[352]، وقد التقى الآباء بأحد المزابيين الذين نشئوا خارج مزاب في التل الجزائري تحت رعاية المنصّرين من "الترابيست" في ناحية اسطوالي بضواحي الجزائر وقد عمّده لافيجري، ولما عاد إلى مزاب بعد 40 عاما من الغياب سماه "أوغسطين" ووظفه الآباء حاجباً في المستشفى[353].

وبعد استقرار إدارة مهمة الصحراء بمحطة مزاب كعاصمة لها، بدأ التركيز بشكل أكبر على مزاب، وفتح المبشرون منزلاً صغيراً داخل أسوار المدينة في ناحية "بابه صالح" بعد أن اكتروه ليكون مدرسة للأطفال، لكن العدد لم يتجاوز 8 إلى 10 تلاميذ؛ كما نقل الأخوات المبشرات في نوفمبر 1902 المشغَل (Ouvroir) الذي فتحنه قرب منزلهن خارج أسوار المدينة، إلى وسط المدينة في حي العرب، أين بدأ بنات الحي في ارتياده، مما جعلهن يفكرن في مشروع فتح روضة للأطفال الصغار لاستهداف هذه الفئة وجعلها تتعلق بهم منذ الصغر[354].

وفي صيف 1903 تمكن الأخوات من الحصول على بيت في واحات غرداية ليواصلن مهمتهن قرب المزابيين الذين ينتقلون صيفاً للإقامة في بساتينهم تحت ظلال النخيل والأشجار الوارفة، وكانت تلك إحدى المفاجآت غير المنتظرة، إذ اهتاج لها المزابيون وبعد 15 يوم فقط التحق بهم المنصّرون الآباء في الواحة بعد حصولهم على منزل لهم كذلك في محاولة لخلق فجوة بين العامة والطلبة[355]، وكان عمل المنصِّرات أقوى من جانب التواصل مع النساء وأطفال المنطقة نظرا لتمكّنهن من الاتصال بهم بسهولة أكبر؛ فكان جزء هام من الأخوات المنصِّرات يقُمن بمهمة الجولة داخل المدينة والدخول إلى المنازل لنقل العلاج والحلوى للأطفال، والحديث إلى النساء واستعطافهن في محاولة لجعل أطفالهن يلتحقون بالمدرسة[356].

---

350 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 35-3, 7-19.

351 -**Chroni-Trim** 1887-07-00, 35-3, 7-13.

352 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-7.

353 -**Chroni-Trim** 1902-07-00, 95-7, 7-1.

354 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-17.

355 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-17.

356 -**Chroni-Trim** 1903-12-00, 101-1, 1-9.

بقي المنصرون طوال هذه الفترة يتجولون في أزقة وشوارع غرداية ومدن مزاب الأخرى بحثاً عن طالبي العلاج والإغاثة، فيمضون في بعض الأحيان أياماً دون أن يعالجوا شخصاً واحداً، خاصة بالنسبة للأخوات، وبخاصة في مدينة بني يسجن، ولكن الآباء بدأوا يلقون بعض الترحاب من جهة سلطة الأهالي المحلية، خاصة من المترددين للسلطة العسكرية حفاظاً على منصب القايد[357].

وقد كُللت جهودهم بتلقين سر العقيدة المسيحية لشخص اسمه محمد السعيد، أصله من "إغيل علي" في القبائل، اشتغل لسنوات طويلة في مزاب كتاجر للأسلحة مع إخوته وقد تم تعميده ورغب في أن يدخل في هذا الدين المسيحي، وأحيا المنصرون حفلة صغيرة من أجل ذلك في سُكونٍ تامٍ تفادياً لسماع الأهالي بأمره، وقد سمي بـــ"جان بابتيس" (Jean Baptise)[358].

يدور معظم نشاط المؤسسة التبشيرية في مزاب حول التعليم ورعاية المصابين، حيث كان الآباء البيض يصرفون جهوداً ضخمةً على هذين الجانبين الحسّاسين بالخصوص لاكتساب الأطفال والضعفاء، حيث ما إن وصلوا مزاب في شتاء 1884 حتى افتتحوا دارهم بحارة اليهود للتدريس طمعاً في جعل الأطفال الفضوليين بطبعهم يتعلقون بهم أكثر فأكثر، خاصة من أبناء الحي اليهود ومن العرب الذين يسكنون إلى جوارهم، وتواصل توافد الأطفال إلى المدرسة حتى نهاية شهر ماي[359].

فقد افتتحت المهمَّة مدرستها في 31 جانفي 1884 بحوالي العشرين من التلاميذ بين عربي ويهودي، بينما كان يأتي بعض المزابيين الفضوليين لرؤية ما يجري، وفي 05 فيفري 1884 قدم وليّ ثلاثة لأطفال أبنائه للمدرسة وقبل منهم اثنين والآخر رفض لعامل السّن، حيث كان صغيراً[360]، أما إقبال أبناء المزابيين على المدرسة كان شبه منعدم، إذ لم تسجل خلال السنة الأولى أي حالة أخرى[361].

وكانت وسائل تبليغ المعارف إلى الأطفال تتنوع لدى المبشرين، حيث أكد "مالفرايت" الذي كان أولّ المدرسين على تخصيص فسحة كبيرة للتركيز على التلقين الأخلاقي، بحيث يختار قصص من العهد القديم ويعرضها بأسلوب قصصي للأطفال المتشوقين، ويقوم بإدخال الأفكار الروحية والأخلاقية "العالية" دون المساس بمعتقداتهم ثم بالحركة والتفاعل وإشراك الأطفال في العملية التعليمية، وهو ذو فائدة كبيرة في أخذ التلاميذ على التقليد[362]، وكان فتح مدرسة المكتب العربي في سنة 1884 سيشكل منافسة، ولذلك تحول الترحيب بالآباء البيض في مزاب من جهة بعض المسؤولين العسكريين إلى الجفاء، وقد أمضت مدرسة الآباء البيض السنة الأولى لها من دون ترخيص لفتح مدرسة خاصة، وبعد نهاية السنة سارع الآباء البيض إلى طلب ترخيص من المكتب، حيث كان

---

357 -**Chroni-Trim** 1901-04-00, 90-8, 1-1-3.

358 -**Chroni-Trim** 1901-07-00, 91-5, 3.

359 -**Chroni-Trim** 1884-10-00, 23-10, 16.

360 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-10, 21.

361 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 21-10, 25-5.

362 -**Chroni-Trim** 1893-10-00, 60-6 , 8-1.

القائد العام قد طلب من "مالفرايت" ورقة السوابق العدلية والوثائق الأخرى المطلوبة لفتح المدرسة، ووعدهم العقيد "ديدبي" بإقرار مكتوب مع نهاية جويلية 1884[363].

ولكن يبدو أن شيئاً من هذا لم يتحقق فقد بقيت المدرسة في شكلها الغير الرسمي، لأنَّ مؤسسة منصّري إفريقيا غير مرخص لها قانونا بفتح المدرسة، وبقيت الأمور كذلك إلى غاية 1900 أين أبلغ مفتش الأكاديمية الآباء المنصّرين بأنهم بإمكانهم فتح المدرسة على الدوام[364]، وبدأ عدد التلاميذ يتزايد بفعل الأمر الصادر من المكتب العربي المعمّم لقانون التعليم الإجباري 28 مارس 1882 والذي لم يطبق إلا قليلا في مزاب، فكان المكتب يهدد بالسجن وفرض غرامات مالية لمن لا ينصاع للقانون وهذا بدءا من 1890. وهذا ما ولّد هيجانا لدى المزابيين الذين لا يقبلون الاختلاط بالفرنسيين فضلا عن أن يكونوا من المنصّرين، حيث يعبر الآباء البيض عن وجهة نظر المزابيين في التعليم في تلك الفترة بقولهم "يرغبون في البقاء أعداء دائمين لفرنسا"، "...إذا تركنا أبنائنا مع الفرنسيين، وهم يروننا _المنصّر يتحدث عن كونه فرنسيا_ نجس غير متحمل، فإن تقاليدنا وأعرافنا تتشوه كثيرا وأولادنا بأنفسهم لن يكونوا في المستقبل تابعين وحافظين ومؤمنين بالرسول محمد"[365].

كإجراء ميداني قام المنصّرون بفصل الأطفال اليهود من مدرستهم في سنة 1897 في خطوة القصد منها اجتذاب المزابيين الذين يمكن أن يتذرعوا بعدم اختلاطهم باليهود، وازدياد المناوشات والصراعات اليومية بين هؤلاء الأطفال؛ ولكن هذه الخطوة لم ترفع من عدد التلاميذ من المزابيين، حيث لم يكن يزور المدرسة إلى سنة 1901 إلا 56 تلميذا[366]، ثم بمرونة أكبر حاول المنصرون الاقتراب من المزابيين حيث اكتروا منزلا في وسط المدينة وجعلوا منها مدرسة لكن المرتادين عليها لم يتجاوزوا العشرة في أحسن أحوالها، كما وضعوا أقساما ترفيهية بعد العصر لأنَّ الأطفال المزابيين يتجهون إلى البساتين صباحاً لسقيها ولا يعودون قبل العصر؛ ثم أضافوا قسماً مسائياً للبالغين من أجل أن يحضره من يريد أن يتعلم الحساب واللغة ويستفيد منها في تجارته[367].

انتبه المنصرون إلى اجتذاب الأطفال والأولياء بالجوائز حيث ما إن تنتهي السنة التعليمية حتى يقام حفل ختامي توزع فيه الجوائز، وهذا مما لم يحدث قبل، حتى صار ذلك حديث العامة في تلك الأيام[368]؛ كما كانوا يأخذون الأطفال في النزهات إلى الواحات[369]، وتوزع الغندورات[370] على التلاميذ الذين ارتادوا المدرسة بشكل منتظم خلال الفصل، وتوزع على المنتظمين مناديل؛ وكان يحضر حفلات التلاميذ أحيانا القيادة العسكرية التي

363 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 10-21, 9.
364 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 47-3, 7-19.
365 -**Chroni-Trim** 1890-04-00, 46-4, 1-7.
366 -**Chroni-Trim** 1901-04-00, 90-8, 1-1-1.
367 -**Chroni-Trim** 1905-05-00, 116-2, 2-1.
368 -**Chroni-Trim** 1893-07-00, 59-5, 1-3.
369 -**Chroni-Trim** 1884-04-00, 23-10, 28.
370 -**Chroni-Trim** 1890-07-00, 47-3, 7-9.

كانت تعترف بأنّ مدرسة الآباء أقوى من مدرسة المكتب العربي، حيث يقول العقيد "ديدبي" قائد الدائرة، مُقراً لهم بذلك "ليس هناك إلاّ مدارس الجمعيات الرهبانية القادرة على إعطاء التربية المثلى"[371].

فتح المكتب العربي في أكتوبر 1907 المدرسة الرسمية الثانية[372] في مدينة غرداية مما ولّد فوضىً وكُرهاً كبيرين لدى السكان، خاصة السلطة الدينية والنساء، وهما القوتين المهمتين في مزاب، فصار الأولياء يأخذون أطفالهم مكرهين إلى المدرسة بعد أن أصبح لدى رئيس المكتب قائمة بالأطفال يراقب منها انضباط وحضور التلاميذ فعليا بالمدرسة[373]؛ مما جعل بعض الأولياء يفضلون أن يحضر أبنائهم إلى مدرسة المنصّرين هروبا من المدرسة الرسمية.

المبحث الثاني : المجتمع في مزاب والمنصّرون

1_ دور العزابة في مزاب

يعتبر "العزابة" الطبقة الأولى في مزاب من حيث الإكبار والتقدير والطاعة، كونها الهيئة الدينية المسيرة لكل كونفدرالية مزاب؛ فكان هذا التعامل بالاحترام والوفاء والإخلاص أن أدى إلى الاستسلام لرأيهم ونظريتهم والوقوف لصالحهم[374]، ويعود تأسيس نظام الحلقة المسمى بحلقة العزابة إلى أوائل القرن الخامس الهجري على يد واضعه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي ــرحمه اللهــ كنظام ديني ينظم حياة المجتمع الإباضي في ظل "إمامة الكتمان"، حيث كانت هذه الفترة في بلاد المغرب فترة فتن وصراعات، استمرت من تولي العبيديين على بلاد المغرب إلى غاية مجيء العثمانيين في بداية العصر الحديث[375]، وقد شرع في وضع نظام الحلقة بداية من سنة 409 هجرية في وادي أريغ في قرية "تين يسلي"[376] ولما استكمله وأرسى معالمه وقواعده، انتقل به إلى مزاب ليُعمّم فيما بعد على إباضية المغرب في جربة ووارجلان ونفوسة[377].

ونظام العزابة، نظام ديني اجتماعي مبني على مراعاة الدين والمحافظة عليه والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجهلة والأغرار، حيث كان لمجلس العزابة الإشراف على مناحي الحياة، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق العشيرة، وينتدب لهذا المجلس من اتصف بالعلم والورع وسيرته المستقيمة في حياته،

---

371 -**Chroni-Trim** 1893-07-00, 59-5, 1-20.

372 - لم أحصل على تاريخ الافتتاح، ويبدو أنها افتتحت بعد سنة 1885، ولكنه أصبحت إلزامية بداية من سنة 1890. انظر الفصل الثالث، المبحث الثاني.

373 -**Chroni-Trim** 1907-10-00, 142-6, 1.

374 - صالح عمرسماوى، **العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بمزاب**، المطبعة العربية، ط1، غرداية، 2005. ج3، ص 1027.

375 - راجع ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1995. مج 7، ج14.

376 - هي حاليا بلدة اعمر على بعد 25 كلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة تقّرت.

377 - عدون جهلان، **الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش**، نشر جمعية التراث، القرارة، [د.ت]. ص 169.

وحاز ثقة الناس بنقائه وصلاحه؛ وبعد استشارة ذوي الصلاح في المدينة يُوكل إلى شيخ الحلقة وكبار العزابة الاتصال بهذا الشخص، ويستشار هذا الشخص إن كان راغبا في أن يكون عضوا في الحلقة تسند إليه إحدى المهمات التي كانت على عاتق أحد العزابة فيتولاها، وللمجلس عزل أي شخص تبيّن فيه عدم صلاحه وأهليته لأن يكون من العزابة[378].

ومما جعل العامة والخاصة يحترمون العزابة ويقدّرونهم هو حملهم لكتاب الله ومستواهم العلمي وسلوكهم الرفيع؛ والسّلطة الأساسية للمجتمع الإباضي هي لمجلس العزابة حيث تمثل سلطة الإمام في المجتمع الإسلامي وتقوم مقامه في جميع واجباته باستثناء إقامة الحدود التي تتعطل عند الإباضية في دور الكتمان[379]، فعلى الشخص المنتمي إلى هذه الحلقة أن يكون حافظا لكتاب الله ومتفقها في الدين وملازما لأحكامه الشرعية في سلوكياته، ولا يخاف في الله لومة لائم[380]، ورئيس الحلقة هو شيخ المسجد أو المفتي وهو المتولّي للوعظ والإرشاد في المسجد وتدريب الطلبة من حلقة "إروان"، ويكون في الحلقة إمام ومؤذن ووكيل الأوقاف ومدرسون لتلاميذ المحضرة ومكلفون بالمهام الاجتماعية من تنظيم للحياة العامة في المترل والأسواق والأعراس والمآتم وغسل الموتى ومراقبة المسالخ وسواقي المياه..[381].

كما يقف العزابة على التوعية الربانية والتربية الخلقية وإرشاد الضالين وتنبيه الغافلين؛ حيث يحرص العزابة على المحاضر والكتاتيب لتعليم الصبيان القرآن الكريم وأصول الدين حيث كانت تكتظ المحاضر بالصبية في مزاب[382]؛ فهي المدرسة الأولى للفرد المزابي ولابد لكل فرد أن يمرّ منها، ويركز في هذه المرحلة الابتدائية على حفظ القرآن الكريم مع عدم إهمال المواد الأخرى الضرورية لينشأ الطفل مؤمنا ومهيأ لاستظهار القرآن الكريم وأخذ مكانه ضمن المجتمع، كما كانوا يتعلمون، وإلى غاية الاستعمار الفرنسي يتعلمون الفروسية ويتدربون عليها حتى يتأهلوا للدفاع والقتال مع مرشديهم ومشايخهم من حلقة العزابة[383] في حال العدوان على مزاب.

يتميز المذهب الإباضي عن غيره من المذاهب الإسلامية بتعدد مسالك الإمامة المقتضية تغيرا على حسب الظروف، وتسمى في المذهب الإباضي بمسالك الدين لأنه في كل الأحوال الهدف هو الحفاظ على الدين. ومسالك الدين أربعة : إمامة الظهور مثلما كانت عليه الدولة الرستمية، وإمامة الدفاع مثلما كان عليه الإمام عبد الله بن وهب الراسبي رحمه الله، والشراء كأبي بلال مرداس بن حدير رحمه الله، والكتمان كالإمام جابر بن زيد رحمه الله[384].

---

378 - ابراهيم محمد طلاي، **مزاب بلد كفاح**، دار البعثة، قسنطينة، 1970. ص 40.

379 - صالح سماوى، **المرجع السابق**، ج3، ص 1033 .

380 - ابراهيم طلاي، **المرجع السابق**، ص 40.

381 - صالح سماوى، **المرجع السابق**، ج3، ص 1027 .

382 - حمو محمد عيسى النوري، **المرجع السابق**، ج1، ص 62.

383 - **المرجع نفسه**، ج1، ص 299.

384 - بكير بلحاج واعلي، **الإمامة عند الإباضية بين النظرية والتطبيق مقارنة مع أهل السنة والجماعة**، المطبعة العربية، غرداية، 2001. ج1، ص 249.

وهذه المسالك هي الضابط للعلاقات مع السلطة الحاكمة وطبيعتها؛ فمرحلة الظهور هي الأصل فإذا توفرت الظروف وتهيأت الأسباب فهي واجبة، وإذا استبد الحاكم وطغى الظلم انتقل المسلمون إلى مرحلة الدفاع وهي الثورة، وإذا لم يستجب المسلمون تأتي مرحلة الشراء وهي القيام بالعمليات الفدائية ضد الحكام، وإذا رضيت الأمة بالذل وبالحكام الجَوَرَة جاءت مرحلة الكتمان والقيام بتنظيم المجتمع، والعمل من أجل الحفاظ على القيم الدينية والاجتماعية[385].

كان العزابة بحكم موقعهم آخذين بروح المسؤولية في الرّدّ على أي عدوان يطرأ على مزاب _فطول فترة المعاهدة (1853-1882) قبل الاحتلال كانت فرنسا تبعث بجحافل العملاء من البدو والذين تستعملهم عِوَضا عن الجيوش النظامية وكانت لها خير عون في إتمام احتلال الجزائر[386]_ يقفون ويتجندون ويعلنون الدفاع ويجتمع الناس من حولهم للخروج لملاقاة العدو قبل وصوله مزاب، وهذا ما حدث لبشوشة الذي عاث في الصحراء فساداً، فسبى وجمع المال من وراء النهب والتخريب وألحق أضرارا بليغة بقوافل المزابيين القادمة من السودان إلى مزاب عبر ورقلة، وخرب دكاكين المزابيين في ورقلة ونهبها ثم انطلق نحو مزاب فأعلن العزابة من مجلس "باعبد الرحمن الكرثي" النّفير العام تحت قيادة الحاج حمو بن باحمد بكلي للدفاع عن مزاب، ولكن بوشوشة لما وصل إليه خبر مسير المزابيين إليه ولّى نحو ورقلة[387]؛ كما أن الشيخ صالح بن كاس عندما مرّت محلة عسكرية نحو ورقلة وحطت بغرداية ومعها براميل من النبيذ، كانت قد وضعتها أمام العلن، فعمد إليها هذا الشيخ الجليل مع الطلبة فكسروها جميعها أمام أعين الحامية التي لم تستطع أن تحرك ساكنا أمام الجرأة التي شاهدوها[388].

نظر المستعمر الفرنسي للمسجد في مزاب والمتمثل في العزابة باعتبارهم السلطة إلى تسير مدن مزاب، وأن له حرية التصرف، وله دين خاص ليس هو بالإسلام المغاربي وليس بالمسيحية بل هو بين هذا وذاك في حين أنّ فرنسا ترى نفسها الحاكمة على الجزائر المستعمرة وبالتالي فلها الحق أنّ تتدخل فيها وتفرض سلطتها على مساجدها ودينها، لجعلها تخدم أهوائها ومصالحها، فلم تحاول أن تفرض نفسها على نظام العزابة بمزاب، بل حاولت أن تضفي عليها هالة وتجعل له مكانة وتحفه بشكل من القداسة على أن تكسب جانبها[389].

ولكن لما وجد الفرنسيون أنّ العزابة قساة الجانب حاولوا أن يفرضوا سلطتهم عليهم ويضغطوا عليهم بالممارسات التعسفية والضغط على مؤسستهم للحد من نفوذها على المجتمع بداية بالتدخل وإنشاء القضاء

---

385 - **المرجع نفسه**، ج1، ص 250.

386 - اللجنة العلمية لتحرير تاريخ إفريقيا (في اليونيسكو)، **تاريخ إفريقيا العام، المجلد السادس القرن التاسع عشرة في إفريقيا حتى ثمانيناته**، إشراف ج. ف. آدي أجاي، طباعة حسيب درغام، لبنان، اليونيسكو 1996. ص 519.

387 - حمو عيسى النوري، **المرجع السابق**، ج1، ص 103.

388 - حمو عيسى النوري، **المرجع نفسه**، ص 108.

389 - صالح سماوى، **المرجع السابق**، ج3، ص 1038 .

وإخضاعه إلى السلطة القضائية الفرنسية وقوانينها، فجمدوا نشاط مجلس "أمي سعيد"[390] وانتزعوا منه صلاحيته باعتباره مجلس استئناف، وإصدار القوانين التشريعية[391] فحدّت من نفوذ سلطته القضائية فقيدته بقيود.

كان العزابة والطلبة منغّصين الاحتلال الفرنسي وشكلوا جبهة صلبة في وجهه، والتي تكسر عليها كل محاولة تغلغل في المجتمع، ووقفوا بالمرصاد حتى في وجه العملاء الذين عاثوا فسادا طوال الفترة الماضية التي سبقت الاحتلال العسكري؛ فكانت فرنسا تحاول أن تضعف من نفوذ السلطة الروحية للعزابة في مزاب، كما هو الشأن عندما أراد الاستعمار الفرنسي التّقوية من نفوذ الأعيان ورؤساء العشائر للتّحرر من العزابة والعمل إلى جانب السلطة الاستعمارية؛ وهذا ما وقع في توقيع المعاهدة التي ربطها وأمضتها مزاب مع فرنسا في 1852، حيث لم تشارك فيه السلطة الدينية والتي يمثلها في ذلك الحين الشيخ امحمد بن يوسف أطفيَّش ــرحمه اللهــ، حيث اعتبر هذه المعاهدة تعاونا مع المُشركين المعتدين، ولكن ومع ذلك فقد تمّ تفعيل المعاهدة من قِبل الأعيان، ثم عادوا إلى الشيخ أطفيَّش لشرح موقفهم وطلب الصفح عنهم[392].

كما مارست ضغوطا على بعض الأعراف التي كان المجتمع والعزابة تسير بها خاصة منها إعلان البراءة من مرتكب الكبيرة أو ممّن يخالف العرف، حيث حاولت السلطات الحد من سلطة العزابة فسلّطت عقوبات على عزابة القرارة لما أدّبوا أحد العصاة، باعتباره تدخلا في صلاحيات فرنسا القضائية فنفتهم إلى "تَغَظْمِيتْ" ــمحتشد قرب الأغواطــ وحَلَقَت لِحَاهم وفرضت عليهم الأعمال الشاقة[393].

وقد دخل القطب أطفيَّش ــرحمه اللهــ في حربٍ مباشرةٍ مع فرنسا عند الالحاق العسكري في 1882، حيث احتج أمام القائد العسكري للحملة بأنَّ مزاب ليس بحاجة لخدمات دولته، ثم سُجن الشيخ أطفيَّش سجناً رمزياً خوفاً من انفلات الأمور وتحرك المزابيين إلى جانب شيخهم في اتجاه الرد العسكري، لكن الشيخ أطفيَّش لم يتوقف وراح يحرك الشعب ويستنهض الهمم ويغرس في تلاميذه كره فرنسا واحتقار المستعمر وأجهزته بداية ببعض الإشارات ذات الدلالة والرمزية حيث كان يضع الطابع البريدي مقلوباً في الظرف، ويرتفع في المجلس إلى مستوى أعلى في الجلوس عندما يأتي فرنسي أو قسيس لرؤيته قائلاً له: "إنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه"[394].

وكان لا يستنكف عن مراسلة السلطات الاستعمارية في شؤون عدة، حيث راسلهم في شأن الإلحاق ومحاولة هدم المسجد الكبير بالعاصمة يحذرهم فيها من انتقام الله تعالى ممن يقترب من بيوت الله، وفي رسالة تهكّم من الشيخ أطفيَّش بعد اعتراضه على ما تقدم عليه فرنسا من انتهاكات، وكان متزامنا مع مقتل أحد الوزراء في

---

390 - راجع عن دور هذا المجلس: **المرجع نفسه**، ج3، ص 1038 .

391 - حمو عيسى النوري، **المرجع السابق**، ج1، ص 164.

392 - انظر الفصل الأول، المبحث الثاني.

393 - صالح سماوى، **المرجع السابق**، ج3، ص 1039 .

394 - عدون جهلان، **المرجع السابق**، ص 110.

باريس، إلى "بوان كاري": "إنه وليس في الموت تشفّياً؛ لقد تمادى بكم ظلم المسلمين فكان الله يراقبكم حتى أصبح وزرائكم يُقتلون في الطرقات كالكلاب"[395].

ولأنَّ العامة والمجتمع المزابي كان يقف وراء عزّابته في المُلمات حيث وقفوا بجانب الشيخ أطفيَّش عندما أصبح الاستعمار أمراً واقعاً بعد سنة 1882 في مزاب، ما إن يعلن شيئا ضد الحكومة الفرنسية عن أيّ إجراء تتخذه يُنافي العُرف أو الشريعة حتى يعلنوا معه عصياناً مدنياً، كما وقع في قضية التجنيد الإجباري سنة 1911 عندما حاولت فرنسا فرضه على الأهالي، كان العزابة واعين بفحوى هذا التجنيد وماذا ينجرُّ عنه من تفلُّتٍ ديني وتهاون في المجندين من الأبناء، وأخطر من ذلك إشراكهم في حربٍ ضدَّ إخوةٍ لهم في الدين من الدولة العثمانية، التي يحترمها المزابيون ويجلّونها، وقد كان الشيخ أطفيَّش يتواصل مع السلطان عبد الحميد الثاني في كثير من المرات، وقد أهدى له هذا الأخير وسام استحقاق علمي[396]، كما فوّض العزابة السيد الحاج عمر بن عيس الحاج امحمد[397] من بينهم وكيلاً يُخاصم السلطة الاستعمارية في محاكمها بفرنسا بسبب التدخل غير القانوني في مزاب والتدخل في الشؤون الداخلية لمزاب[398].

وكذلك عندما أرادت الحكومة اغتصاب المواريث لإدخالها للخزينة والدومين العام بنص القانون الصادر: أن الدول ترث من لا وارث له ولاحق لذوي الأرحام في الإرث؛ رد الشيخ أطفيَّش إلى الحاكم العام برسالة مدعومة من أنصاره فيها: "...فلا تغيروا دين الله وقد ذكرت لكم الحجة من القرآن والحديث في الكتابين، فلا يكون ميراث الأرحام إلاَّ لهم، ولا يكون لبيت المال، فإن بني مضاب طلبة وعواما قضاة وقوّادا كلهم لا يُطاوعون في ذلك وقد اجتمعوا خارج القرى في الشمس على أن يضعوا طوابعهم على ذلك ويمتنعون أن يكون لبيت المال شيء"[399].

ويشير الأستاذ اسماوي نقلاً عن "جان ميليا" (Jean Melia) قوله: "منذ احتلال مزاب والطلبة يشاهدون انقراض سلطتهم المدنية والسياسية والاجتماعية والجنائية، إنَّ البراءة واللَّعنة المصرح بها باءت بدون أي أثر منذ نوفمبر 1882"؛ لكن هذه الضغوط لم تزد إلاَّ في إصرار العزابة ووقوف العامة إلى جانبهم، حيث لم يتوقف مجلس الاستئناف "أمي سعيد" عن النشاط[400].

---

395 - **المرجع نفسه**، ص 111.

396 - صالح سماوى، **المرجع السابق**، ج3، ص 1027 .

397 - مجموعة من الباحثين، **م. أ. إب، قسم المغرب**. مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، نشر جمعية التراث، القرارة، ط1، 1999. ج 3، ص 714.

398 - حمو عيسى النوري، **المرجع السابق**، ج1، ص 216.

399 - ابراهيم طلاي، **المرجع السابق**، ص 55.

400 - صالح اسماوي، **المرجع السابق**، ج3، ص 1038 .

2_ تعامل المزابيين مع المنصّرين

لما جاء الآباء المنصّرون إلى غرداية ظنّا منهم أنهم سيجدون ما صوّره لهم من زار مزاب قبلهم، على أنها من صور النّصرانية الأولى[401]؛ فقد وجدوا واحدا من المجتمعات الأشد ارتباطا بالدين الإسلامي، ويحفظ هذا الارتباط الوثيق "الطلبة"[402] الذين يجعلون من المشركين والمنصّرين والفرنسيين كلهم "نجس"[403]؛ وقد كرر المنصِّر صاحب تقريرٍ ما نقله من انطباعاته عن مزاب، هذه الكلمة ثلاثا وأضاف "إذا كان هذا هو الحد، فتخيّل أن هناك _مخاطبا المسئول_ أكثر من مائة من الطلبة موجودون لإذكاء وإثارة نار الحرب المقدسة، وأن هناك أكثر من مائة من الطلبة بأيديهم كل الطفولة، عند هذا ستفهم إلى أي حدٍّ هي روح الكُره التي تسير ضدنا هنا، وبأي جهد هؤلاء الزعماء الدينيون يحبون أن يدفعوا به للحفاظ على عالم يخافون رؤيته أو هم يشعرون أنه يسرق ويصرف من سلطتهم؛ في الواقع سيذهب من سلطتهم لذا فهم يقاتلون من أجل حياتهم الخاصة"[404].

فالعزابة يسيرون بمقتضى الآيات فهم يسعون وفق آية "إنما المشركون نجس" وهذا الشعب المزابي الذي تعلم القرآن في المحاضر وشب على فطرة الإسلام لا يحيد مع العزابة عن القاعدة؛ حتى أن هذا المنصّر أضاف في حديثه عن جهود العزابة في هذا السبيل قائلاً: "في المناسبات الدينية والتجمعات الدينية والخطب الخاصة كل شيء موجه ضد المُرابط الرّومي، الذي يرونه مفسداً للبلد"[405]

وتبيّن بعض التقارير مدى قلة حيلة المنصّرين أمام ردة الفعل وعدم كتابة شيء مفيد في دراستهم الأولية لميدان عملهم الجديد بمزاب بفعل الحنق الكبير والأجواء المشبعة التي يعيشون فيها، فالذين جلسوا إليهم وحكوا معهم عن المسائل الدينية أو عن المجتمع كانت كـــ"حديث الغريب" أو من لا يعرف المجتمع تماماً، أما العامة فكانوا يروون عنهم قصصاً وروايات على سبيل التهكم والسخرية، فحين تذكر "التقارير اليومية" بعض الجوانب من الحياة العامة بمزاب يستنتج منها عدم اطلاع كبير وتفاهة في المعلومات تعبر عن عسر في التواصل مع المجتمع وترك المنصّرين في معزل عنه، وعن عسر اتصال بالطلبة والعزابة، فكثير من المعلومات التي وردت خلال الفترة 1884-1903 تنمّ عن عدم قدرة في الاحتكاك بالمجتمع[406].

ففي حديث مع أحد العامة الذي يشتغل بنّاءاً؛ أُستخدم في تصليح مترل المهمَّة التنصيرية سُئل عن الجوانب الاعتقادية؛ يحكي هذا الأخير لأحد المنصّرين قصة بدء الخليقة، فجعل المنصّر ينقل المعلومات على نحو أن الله تعالى "عندما خلق آدم حرمه من كل الحاجات الطبيعية التي تخضع لها الذات الإنسانية من عمل وشقاء وجوع... فقد أكل من فاكهة إحدى الأشجار و لم يتأخر الله أن يعاقبه بقسوة على خطيئته فقد أحس مباشرة آدم بآلام في

---

401 - انظر الفصل الثاني المبحث الثالث.

402 - الطلبة يصطلح على الهيئات الدينية المنظمة للمجتمع بمزاب إلى جانب الهيئات الاجتماعية المعروفة باسم هيئة العوام. انظر دراسة : صالح اسماوي، **المرجع السابق**.

403 - بنص الآية، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس" سورة التوبة: 30.

404 - **chroni-trim** 1893-10-00, 60-6, 1-7.

405 -**Ibid**.

406 - **chroni-trim** 1894-04-00, 62-5, 1-4.

أحشاءه مما جعله يتقيأ، فتأوّه، وبهذه الإشارة أظهر له أنه اقترف خطأ"[407]؛ ولا نشك في أنّ هذا العامي الذي حكى له عن آدم ــعليه السلامــ يعرف قصة الإنعام عليه بخلقه في الجنان إلى آخر القصة مما يعرفه المسلمون بالضرورة، ولا ندري لما نقلت على هذه الشاكلة هل يعود إلى عامل اللغة ؟ أم هو تنويه للمسؤول عن جهل السكان ؟

ولأنه مطلوب منهم تقديم دراسات عن المجتمع، يتذرع المنصّرون عن عدم تمكنهم من المعلومات والدراسات الوافية عن المجتمع المحلي واللجوء إلى أشخاص مثل البنّاء الذي يشتغل على بناء مترلهم بإخفاء أهل غرداية لمخطوطاتهم، فقد ذكر لهم هذا البناء المدعو "حمو" أنهم سيكونون أوّل من يدخل الجنة لو يقولون "لا إله إلا الله محمد رسول الله " وما إن يتعمق المنصّر في مناقشة الأمور العقدية مع هذا البنّاء حتى يتوقف البناء عن الحديث ويساوره الشك ويخرج له "كتابه"[408] ويبدأ في محاولة إقناعهم؛ ويشير المنصّر إلى أنه استعمل هذه الطريقة لجعل المزابيين وغيرهم يتكلمون فيتعرَّف على دينهم: "وهو ما يسهل علي فهم ما هو موجود"[409]

حتى يهود مزاب الذين يعيشون منذ عهد قديم منعزلين عن بقية يهود الجزائر وكانوا يظهرون أكثر تدينا عن بقية إسرائيليي الجزائر، فكان بفعل وجود مترل الآباء في الحي اليهودي في السنوات الأولى لاستقرارهم بمزاب، هناك احتكاك محدود جدا بينهم وبين اليهود وكانوا يلاحظون عليهم هذا التشدد لمعتقدهم اليهودي، حيث يوجد في عتبات المنازل شيء من الحِكم المكتوبة بالعبرية يقبّلها اليهود عند الخروج من المترل، ولاحظوا كيف أنه لا تزال المناسبات الدينية والشعائر تقام بأبّهة كبيرة كصوم عاشوراء، واحتفال نهاية هامان، والاهتمام بالسبت (Sabbat)، وعدم إشعال أعواد الكبريت فيه، رغم بعض الآفات التي فيهم من القمار والإسراف في الشرب، كذلك لم ينسوا الإشارة إلى كرهم أيضاً للمنصّرين، الذي هو نابع من عقيدتهم، حيث "يرون أنه يوم الحساب ستتغير الأدوار وأنه مثل العربي ــوهنا لا يتجرأ على قوله مثله مثل الفرنسيــ الذي يضطهده سيكونون جمله ودابته"[410].

وازدادت الهوة بين اليهود والمنصّرين عندما قرروا فصل اليهود عن المدرسة ليتمكن المزابيون من الالتحاق بها على أساس أنه ربما جعل ارتياد اليهود للمدرسة المزابيين لا يقتربون منها لأن اليهود بالنسبة للمزابيين ــوالعشرة معهم طويلة في الزمنــ أكثر نجساً ولا يرتادون الأماكن التي يرتادها اليهود[411]، فالمزابيون واليهود في الفترة الأولى لتواجد المنصّرين بمزاب جعلوهم في معزل عن المجتمع المحلي وحرموهم من الاتصال به وكان اتصالهم مقتصرا على

---

407 -**chroni-trim** 1886-10-00, 32-4, 7-2.

408 - هذا المزابي يظهر فيه حسن النية ومحاولة العمل على ضوء ما جاء به من كتاب. لم يذكر اسم الكتاب؛ وأفترض أنه "**كتاب رد الشرود**" للشيخ اطفيش.

409 -**chroni-trim** 1886-10-00, 32-4 , 7-5.

410 -**chroni-trim** 1894-04-00, 62-5, 1-11.

411 - من الممارسات التي بقيت في الذاكرة الجماعية أن اليهودي إذا كان في السوق ولامس سلعة، مما يؤكل بالخصوص، بغرض شراءها، ورآه صاحب الدكان فسيصبح لزاما عليه أن يشتريها لأنه قد نجّسها، وأيضا إذا جلس للمسامرة مع أصدقاء مزابيين فله كأسه الخاصة به لا يشرب بها غيره. مما يروي لي والدي حفظه الله.

الأهالي من البدو وأصحاب الخيام الذين هم ليسوا من مزاب أو المتروين عن المجتمع والذين يعيشون على الهامش، أو غير المطيعين للعزابة، فإنهم مالوا إليهم ووصلوهم.

يقول أحد المنصّرين متحدثاً عن الناشئة المزابية واليهودية في شتاء 1890: "ربما يبدي الطفل بعض الرغبة في ممارسة الفضيلة؛ لكن ربّ العائلة يوقف ابنه عن المسير نحو الخير، ويوعز إليه بكلامه ومثاليته وحتى بتهديداته بأفكار أخرى غير التي سرّبناها إلى فطرته الفتية؛ وهذا الطفل وتحت التصرفات الجائرة لوالديه يبقى دوما رغم كل مجهوداتنا قلبيّا مزابيا أو يهوديا"[412].

ومما يجري أمام أعين المنصّرين وتُغضبهم كثيرا هي ردود الفعل التي تغيظهم كثيرا، ومن أمثلتها عندما كانوا يأخذون أطفال المدرسة للترهة يتفاجؤون بردّة فعل معنّفة، لهذا الذي وصفوه بالصديق _وهم ذاهبون في زيارة إليه_ تجاه أحد الأطفال المرافقين عندما غسل منديله الذي يدخل في استعمالات المدرسة في حوض المياه[413]، قائلا له : "لقد لوثت المياه بهذا المنديل ولا يمكن أن استعمله للوضوء"[414].

لم يترك العزابة والمزابيون من خلفهم في كل الظروف الفرصة للمنصرين و لم يفسحوا للفرنسيين لنشر وبث ثقافتهم؛ فكانت خطّة فرنسا في ترك النظام العام لمزاب على ما هو عليه، على أمل أن يحقق تقارباً مع فرنسا؛ ولكنها لم تحدث إلا غما خفيا كانت تعاني منه حتى السلطة الفرنسية نفسها، حيث يضيف أحد المنصّرين: "هذا النفور أثّر علينا بشكل سلبي، وأولئك الذين مرّوا من هنا قد كان لديهم الكثير من الأصدقاء، والأب مالفرايت[415] (Malfreyt) قد كسب تعاطفا كبيرا، والذي نحن نعمل اليوم على إعادته ولكن فيما يبدوا أن يده لم تتغلغل بعمق".

وحتى عندما فرض التعليم الإجباري في مزاب بداية من 1890 بأمر من القائد الأعلى للناحية "ديبورتر" (Deporter) والذي جعل المدرسة أمراً إلزامياً[416]، أصبح المزابيون يأخذون أولادهم إلى التل خارج مزاب عند أوليائهم أين يعملون أو عند أصدقاء لهم ولا يعودون بالأطفال للوطن قبل أن يبلغ الرابعة عشر والخامسة عشر[417].

---

412 -**chroni-trim** 1890-04-00, 46-4, 7-2.

413 - يأتي على حافة البئر عند نزح المياه من البئر يصب الدلو فيه أولا ثم يمر عبر السواقي إلى باقي البستان، اسمه بالأمازيغية : أَسَفِّي.

414 -**chroni-trim** 1893-10-00, 60-6, 1-7.

415 - انظر رسالة مالفرايت إلى المسؤول بالجزائر، ملحق الوثائق، ملحق رقم **04**.

416 -**chroni-trim** 1893-10-00, 60-6, 1-6.

417 - بقيت هذه العادة معمولا بها، و لم يدري الذين عُوملوا بهذه الطريقة السبب لصخر سنهم في ذلك الوقت، وقد جلست إلى بعض الكبار في السن منهم السيد الحاج سعيد يوسف من مواليد ~ 1925 _عندما كان في كامل قواه العقلية_ وروى مثل هذه الحوادث التي وقعت له ولأقرانه فقد أخذ من مزاب في سن الخامسة و لم يعد قبل سن الرابعة عشرة زائرا لها فقط.

وكان العامة على هذا النحو يتصرفون وحتى من غير إيعازٍ من الطلبة فلا يخالطون المبشِّرين إلاَّ قليلاً، ولا يتجه إلاَّ القليل منهم إلى المستوصف الذي تشرف عليه الأخوات؛ ولا يقدمون لهم خدمات فقد اعترف المنصّرون أنَّ الشخص الوحيد الذي بقي يخدمهم لمدة طويلة هو حمال الماء[418].

لم يتمكن الآباء من إيصال أفكارهم إلى الأطفال حتى اضطروا إلى أن يتحولوا إلى آباء علمانيين ولا ينطقون ولو لمرة بلفظة يسوع المسيح وإذا استعمل لفظة الرّب فإنه يستعملها كما يستعمل "الله" لكي لا يصدم المسلمين، وعندما سأل صاحب مقال في جريدة "لو فيقارو" (Le Figaro) الصحفي هيقيس لورو (Hugues Le Roux) في زيارته لمزاب عن أي نتيجة إذًا من وجهة النظر الأخلاقية ومن وجهة النظر الفرنسية يجنيها المنصّرون إذا هم هكذا مع المزابيين؟ فرد عليه أحد المنصّرين بابتسامة مقنّعة: "نحن جددٌ على هذه الأرض الإفريقية، ونحن نعيش على الآمال، العقيدة لا تثبط عزيمتنا، بل خيبة الآمال هي القاسية علينا، لقد رأيتَ هذا الولد[419] بقدر ما هو مرافق لنا في هذا الوقت، وروحه متفتحة أكثر من تلك التي عند أطفالنا في أوروبا، خلال سنيتين سينعقد ذكاءه وسينكّب كلّية إلى نزوعه الذي سيبدأ في التأليب عليه وستلقي ديانته اللجام على عنقه ولن يتردد علينا إلا قليلا، للبحث في تجارته ...أستطيع القول اليوم أنّي أعتصر في قلبي"[420].

ومما سجّله المنصرون من ردود الفعل للأطفال الصبية المزابيين، إذ هم لم "يقصروا" في تعليمهم وتعريفهم بواجباتهم، ولكن "تأنيبهم على أخطائهم وعند حثّهم على الطريق الأليق كانوا يستقبلون نصائحنا وتوجيهاتنا وتعنيفنا بابتسامة ساخرة ومستهترة"[421].

فليس من السهل على الآباء المنصرين أن يحدّثوا المزابي عن الدين، فضلا على أن يجعلوه يميل إلى غير ديانته، حتى اشتكى المنصرون من أنهم لم يحققوا مطلباً واحداً أو على الأقل تمرير رسالة واحدة بالطرق الأخرى من التعليم والتطبيب فالذين يأتون إليهم هم حالات نادرة، وعندما يرغبون هم في الذهاب وحمل العلاج إليهم يُرفض منهم؛ فهذه الطريق أيضا كانت مقفلة على المنصّرين لأنَّ دخولهم إلى مترل المزابي أمر مرفوضٌ قطعاً، فالمزابي يرى وجودهم في مترله تنجيساً لكلِّ شيء، وقد علّق عليها المنصّر: "وقطعاً ستلحق أهوال اللعنات على الأشخاص والأشياء"[422].

وحتى سنة 1890 كان القساوسة المنصّرون يعترفون بصعوبة الحصول على أي نتيجة، فأهدافهم لم تبدو واضحة حتى ذلك الحين، ورغم كل الجهود المبذولة إلاّ أنها لم تجد لها صدى في الميدان[423]، وقد شهد الوالي الرسولي الأب قيران (P. Guérin) على الروح المزابية المشككة، والمتصلّبة، "فلا أحد يقف في وجه الإنجيل بمثلهم

---

418 - Lettre du père Guérin en **Les Missions catholiques** : bulletin hebdomadaire de l'Œuvre de la propagation de la foi, Œuvre de la propagation de la foi, Lyon. t35, 1903. p 314.

419 - في إشارته إلى ولد أبدى نجابة في تعلم اللغة الفرنسية ورأى صاحب المقال كيف يكتب هذا الصبي بشكل جيد.

420 - Quotidien **Le Figaro**, 26/01/1891.

421 -**chroni-trim** 1860-04-00,46-4, 7-4.

422 -**chroni-trim** 1890-04-00, 46-4, 7-4.

423 -**chroni-trim** 1890-04-00, 46-4, 7-3.

من العقبات الكبيرة"، ويضيف قائلاً: "وإلى عهد قريب ــالرسالة تعود إلى سنة 1903ــ الجميع لا يرون مبشّراً ماراً إلاّ رموه بازدراء واحتقار، والأطفال كانوا يهربون عند رؤيتنا...، والمزابيون لا يتركوننا ندخل منازلهم، ورغم ذلك فهم الآن يروننا بعفوية نجلس إلى جانب محلاتهم وورشتهم ونحدثهم مطولاً، وقد بدأت الرؤية تتغير اتجاهنا"[424].

فالطلبة ــعلى ما وصفه أحد المنصّرين،: "جدّ متحمسين لمعاداة المسيحية ومعاداة فرنسا، ويستعملون كل سلطانهم وهيبتهم لصرف الأطفال عن المدرسة، ولمنع تأثيرنا من أن ينغرس في هذا البلد"[425]؛ فقد كان الآباء القساوسة يصطدمون بنفوذ الطلبة في كلّ مكان، ولهذا أعلن المنصّرون ضدهم حرباً غير معلنة، فحتى في فصل الصيف عندما يترل المزابيون إلى الواحات، فإنّ الطلبة ينظمّون التلاميذ في المحاضر الصيفية، ولهذا كان يرغب المنصرون في الحصول على بستانٍ للحاق بهم وبالأطفال هنالك[426]، وكذا عندما ركّبوا الجرس وقرعوه هيجوا به الطلبة والعامة لأنهم قالوا لهم إلاّ صوت الإنسان هو الأنسب للمناداة للصلاة[427].

3_ الشيخ أطفيَّش في مواجهة الاستعمار والتنصير

ظلَّ الشيخ أطفيَّش العالم البارز الذي عاصر الفترة بحق وجاهد المنصّرين بحركته الإصلاحية والاجتماعية والعلمية مجتمعة، فقد راح منذ توقيع معاهدة سنة 1853 يستنهض الهمم ضد الفرنسيين سياسياً وفكرياً، حتى راجع كثيرٌ من الناس مواقفهم، ولما نصب القايد الذي استحدثته فرنسا سنة 1853 في غرداية لجمع الضريبة لم يقبله من فرنسا أحد، فنصبت فرنسا يهوديا بدلا منه، فما كان من المزابيين إلاّ أن قتلوه[428] ثم وافقوا على تنصيب القواد ممن يختارونه.

وافق هذه الفترة تأليف الشيخ أطفيَّش أول تفسير له للقرآن الكريم من بين تفاسيره الثلاثة، وهو "همیان الزاد إلى دار المعاد" فكان يشير فيه إلى ضرورة الحيطة من الفرنسيين وعدم التعامل معهم لأنهم كفار، وكان ينهي تفسير كل سورة بدعائه : "اللهم يا رب ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبركة هذه السورة أخز النصارى وأهنهم واكسر شوكتهم وغلّب المسلمين والموحدين عليهم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم".[429]

حمل القُطب أطفيَّش على عاتقه الرد على الآلة الاستعمارية بجميع أشكالها، كما أنَّ هذا الأخير قد خاض معركة الكفاح الاجتماعي والسياسي لعدة سنوات مبيناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضاً كلَّ مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي والخضوع للسيطرة الأجنبية، فكان داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجابهًا في جهاده مختلف الأعداء، حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن

---

424 -Lettre du père Guérin en **Les Missions catholiques,** t35, 1903, p 313.

425 -**chroni-trim** 1890-04-00, 46-4, 7-1.

426 -**chroni-trim** 1893-10-00, 60-6, 1-8.

427 -**chroni-trim** 1887-07-00, 35-3, 7-11.

428 -Lettre du père Guérin, **Op cit**, t35, 1903, p 314.

429 -**همیان الزاد إلى دار المعاد**، المطبعة السلطانية، زنجبار، 1259هـ/1878م.

سخَّرهم هذا الأخير لمجابهة القُطب في جهاده الإصلاح،. وسلك القطب ــرحمه اللهــ نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، إلا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي لم يكن بالأمر الهين، نظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهاراً، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بيّن ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلا: "فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلاَّ لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي.."[430]؛ فلا شك أن المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلاَّ أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

ومن أهم وسائل الاحتلال التي يستعملها الاستعمار الحديث والتي استعملتها فرنسا أيضا هو موضوع الاستشراق أو دراسة المجتمعات المشرقية بعيون غربية ومحاولة الدخول إلى دواخلها وفهم ما يحتويها، وعلى ما هي مبنية عليه ليتمكن من بعدها المستعمر من التصرف في تلك الآليات الاجتماعية وتفكيكها وإعادة بنائها وفق ما يتماشى معه وهويته الجديدة بعيدا عن هويتها الأصلية.

وعلى هذه الشاكلة جاء مع الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 إضافة إلى الجنود المسلحين مجموعة من المترجمين والعلماء والأدباء..، فلما تم توقيع معاهدة الاستسلام شرع كل في المهمة التي جاء من أجلها؛ وكذلك فتحت هذه المجموعة من المستشرقين الطريق تمهيدا لاحتلال النهائي لمزاب فقد كانت أهم الزيارات هي زيارة المستشرق "إميل ماسكوري"، (Emile Masquery) في سنة 1296هـ/ 1878م محاولا الحصول على بعض الكتابات التي تفيده في معرفة هذه المنطقة، وتحصل منها بعد عناء على سير أبي زكرياء الذي ترجمه إلى الفرنسية و لم يجد فيه ما يفيد في التعريف بهذه المنطقة وقد قدم للترجمة بنص طويل شرح فيه الظروف والملابسات التي اعترضت سبيله وجفاء الشيوخ اتجاهه[431]؛ وكان أبرز من التقى بهم خلال زيارته إلى هناك الشيخ أطفيَّش ــرحمه اللهــ، وقد طلب منه بعض المعلومات عن المنطقة وتاريخها فكتب له رسالة سماها "**رسالة مختصرة**"[432]، سلّم له ما حضر عنده من مجموع المعلومات، يظهر فيها أنَّ الشيخ ــرحمه اللهــ كان يكتب وكله إدراك بذهنية من يكتب له وخلفياته فجاءت معلوماته مرتبة على نحو يتماشى مع ما كان يريده.

ويقع مؤلفه المسمى "**رسالة مختصرة**" في بعض تواريخ مزاب في خمسة عشرة بابا، عبارة عن مجموعة من المعلومات والحوادث التاريخية، تناولت حقبا زمنية متنوعة وأماكن مختلفة، تفتقد إلى التنسيق والترتيب، وهي لمحة مختصرة تناولت مواضيع مختلفة في مساحة ضيقة؛ هذا راجع إلى أسلوب الشيخ أطفيَّش الذي لا يُلزم نفسه التقيد

---

[430] - عدون جهلان، **المرجع السابق**، ص: 38.

[431] -Nawaw, Yahyá ibn Šaraf al- (1233-1277). **Chronique d'Abou Zakaria**. Traduite & commenté par Emile Masqueray, Impimerie de l'Association ouvrière v/ Aillaud, Alger, 1878.

[432] -Pierre Cuperly, **Aperçu sur l'histoire de l'Ibadisme au m'zab**, Al-risala i-safiya fi ba'd tawarkh ahl wadi mizab de Med atfayyas.[s.d.i],[s.l.i].

بالموضوع، ويعمد بدلا من ذلك إلى إضافة المعلومات والاستفاضة في الشروح واستعمال كل ما من شأنه أن يوصل الفكرة إلى قارئه؛ إضافة إلى تدوين كل ما يطرأ على ذهنه في لحظة تقييده للمعلومات، وذات علاقة ولو هامشية بالموضوع كتشابه في الوقائع أو الرابط الزمني الواحد إلى غير ذلك وذلك منهج بعض المؤلفين الموسوعيين القدامى من عدم التقيد بالموضوع والتروع إلى الاستطرادات وملاحقة الفوائد وتحقيق المسائل[433]، ونلمس ذلك عند أصحاب الموسوعات الثقافية، والقطب ــرحمه اللهــ من أعلامها[434]، وفيما يلي يمكن أن نلاحظ من خلال محتوى الرسالة طريقة تطرق الشيخ إلى الأحداث وتنبيهه إليها.

في الباب الأول من هذه الرسالة برهن الشيخ أطفيَّش من خلال ما جاء في التوراة والإنجيل على صدق رسالة خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم استخرج من أسفار أهل الكتاب المقدسة عندهم، ما يشير إلى تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير؛ معتمدا في هذا الباب الذي يعدّ تكملة أو استدراكا لمؤلّفٍ له كتبه قبلاً وهو كتاب "**ردّ الشّرود إلى الحوضِ المورُودِ**"[435] الذي يعتبر تحفة في علم الديانات المقارنة خصصه فقط لذات الموضوع، كما اعتمد أيضا على ما قام به ابن الحجري شهاب الدين أحمد بن قاسم الأندلسي[436] من مناظرات مع علماء النصارى جمع ذلك كله في مؤلف عنونه "**ناصر الدين على القوم الكافرين**"[437]، ولا أدري إن كان الشيخ أطفيَّش قد اعتمد على نسخة كاملة من هذا المؤلف أم استقاها من طريق غير مباشرة؟ لأنه ذكر ابن الحجري لكنه لم يشر إلى مرجع محدد، كما تصفح الشيخ أطفيَّش العهدين القديم والجديد[438] ونقل منهما فقرات تخدم الموضوع ويتخللها تعقيبات للنص على سبيل التفسير والشرح، ثم أعطى نتيجة مُحصّلة للمقارنة والاستنتاج.

ولا أدرى ما الداعي إلى وجود هذا الباب في هذه الرسالة وتقديمه على غيره من الأبواب سوى:

ــ وجود شيء مستجدّ عما لم يذكره في كتاب رد الشرود.

ــأو أن الذي طلب منه الرسالة وهو "إميل ماسكوري"؛ صدر منه ما لم يعجب الشيخ أطفيَّش، فأصاب هدفين: تزويد بمعارف تحرّى هو بنفسه عنها ثم تذكيره بأنه مسلم يواجه نصرانيا، وينبهه إلى هذه النقطة حيث

---

[433] ــ امحمد بن يوسف اطفيّش، **مختصر تيسير التفسير**، تح الشيخ ابراهيم طلاي، المطبعة العربية، 2003. مقدمة الطبعة.

[434] - تتجاوز مؤلفات الشيخ رحمه الله 300 مؤلف بين مطبوع ومخطوط، بين كتاب مختصر ومؤلف بمجلدات ضخمة.

[435] - **رد الشَّرُود إلى الحوض المورود**، طح 1320هـــ. انظر الموالي.

[436] - ابن الحجري (ت بعد 1048هـــ/1638م): بحاثة عاش في نكبة الأندلس، ترجم عن الإسبانية كتابا له في مناظراته مع علماء النصارى واليهود سماه (ناصر الدين علي القوم الكافرين)، كما ترجم وهو في تونس كتاب (العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع). الزركلى، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط11، بيروت، 1995. ج1، ص 198.

[437] - المخطوط موجود بخزانة جامع الأزهر للمخطوطات، لدي نسخة على وعاء رقمي، مشار فيها أنه وقف لله لرواق المغاربة بجامع الزهر. رقم النسخة في الخزانة: 307014.

[438] - يشكلان قسما الكتاب المقدس عندهم (La Bible)؛ محصلة مزج بين ديانتين سالفتين لرسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، اليهودية والمسيحية، judéo-chrétienne .

استفسره عن وجود التحية في دينه من عدمها متهكّماً: "لِمَا دخلت الدار يا ماسكري من دون سلام أم أنَّ ديانتكم أمرتكم بذلك"[439].

فالأمة الجزائرية أمة مسلمة والأوربيون أمة مشركة كافرة، واستعمار الفرنسيين الجزائر يعني قهر المسلمين ومحاربة الإسلام. من هذا المنطلق يرفض الشيخ اطفيش تواجد الكفار على أرض الإسلام وبالتالي فهو يمقت ظاهرة الاستعمار في أي شكل من أشكاله، ويعزّ عليه أن يهضم حق شعب إسلامي وتسلب حريته أو يناله أدنى ضيم، ولذلك قارع المستعمر بكل ما أوتي من حيلة حتى أنه دخل في حرب دبلوماسية مع الفرنسيين حين ساروا لاحتلال منطقة مزاب سنة 1882م، فقام القطب وأنصاره يعارضون الاحتلال واحتج القطب لدى قائد الحملة بكل جرأة وأنكر عليه نقض المعاهدة، وأفهمه أنَّ مزاب في غنىً عنه وعن خدمات دولته وأنهم لا يرضونه، فخاف القائد الحملة أن يُثير عليه مزاب والصحراء فاعتقله، حتى احتلت غرداية وشُحنت بالجند وأمِن على نفسه من الثورة فأطلق سراحه، لكن القطب لم يهدأ ولم يستسلم للواقع فراح يحرك الشعب ويستنهض الهمم ويثير الرأي العام كلَّما سنحت له الفرصة لذلك، وكان يغرس في تلاميذه كره الفرنسيين واحتقار المستعمرين المتجبرين.

ومما وقع عقب الإلحاق وصول عناصر "مؤسسة مُنصِّري أفريقيا" الذين بقوا مدّة في متليلي يتحينون الفرصة لدخول مزاب بعد ما كان أمراً محظوراً عليهم ــمن قبل سكان مزابــ قبل التدخل العسكري[440]، ولكن تحت حماية العلم الفرنسي دخلوا مزاب واكترى لهم الجنرال "دو سونيس"[441] داراً في بني يسجن لكن الشيخ أطفيَّش وقف لهم بالمرصاد ووقف في وجه الجنرال[442]؛ فأمر الشيخ بأن يسد بابه ببناء جدارٍ أمامه إن هم باتوا فيها[443].

وقد اهتم الشيخ أطفيَّش بكتابة مؤلف في هذا الغرض أسماه "**رد الشرود إلى الحوض المورود**" وهو عبارة عن مؤلف يتناول فيه زيغ عقيدة النصارى المحرفة وذلك من خلال كتبهم المقدسة، وقد ألفه القُطب بعد أن رأى الجهل منتشرا حتى خاف أن يَضل ضعفاء الإيمان؛ وهي رسالة في إثبات رسالة الرسول الكريم من الكتب السماوية القديمة، ومن الكرامات التي وقعت في حياته، وافقت القرآن الكريم، ولفتت الانتباه إلى خواء العقيدة الأوروبية النصرانية ودعواها الحضرية المزيفة، يقع الكتاب في 12بابا، وهو موجود كمخطوط بمكتبة القُطب أطفيَّش ببن يسجن، ويحوي الكثير من المقارنات بين أسفار العهد القديم وتناقضها فيما بينها وأيضا بين رسائل العهد الجديد؛ إضافة إلى ذلك فقد استعان القطب أطفيَّش ببعض الكتب التاريخية من كتب السير وغيرها التي تروي عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته.

---

439 - امحمد بن يوسف اطفيش، **رسالة شافية**، ور 17.

440 - انظر الفصل الثالث، المبحث الأول.

441 - انظر رسالة القطب اطفيش إلى الحاكم العام في شأن فسح المجال للمنصرين بالعمل في مزاب. ملحق الوثائق، الملحق رقم **08**.

442 - رسالة جماعة بني يسجن إلى القايد يحرصون معه على موضوع منع عملية كراء منزل للمنصرين بالمدينة. ملحق الوثائق، ملحق رقم **07**.

443 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، **تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية**، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007. ص 124.

أمَّا الرسالة الثانية من بين رسائله في هذا الشأن رسالة له في الرد على إنجليزي يطعن في الدين الإسلامي، ويشكك المسلمين بتونس في دينهم، وقد بلغ خبره عند الشيخ القطب أطفيَّش في مزاب، وذلك ربما عن طريق التجار المزابيين بتونس، وقد استشاط غضبا وعزَّ عليه أن ينكر هذا الإنجليزي رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويدعي هذا الإنجليزي أنه يثبت أن محمد لا وجود له من خلال القرآن نفسه، وكان رد الشيخ عليه مُفحماً، كما أرسل إليه بدعوة ليحضر إلى مزاب ليناظره[444] وتحداه أيضا فيها إن كان متيقّناً فليأتي إلى مزاب ليناظره وإلاّ فكلامه فارغ استغل جهل الكثير من الناس لينشر سمومه هنالك، وقد سمّى هذه الرسالة "**قذى العين على أهل القيْن**" وكانت على نفس منوال رسالته "**رد الشرود**" إلاَّ أنها مختصرة وهي تلميحات فقط لأن موضوع الردّ كان حول شخص الرسول صلى عليه وسلم نفسه وإثبات نبوته وصدق رسالته من خلال الرسائل المسيحية وكتبها.

وإلى جانب نشاطه الدؤوب في المجتمع فقد أنشأ القُطب منذ عام 1837م معهداً للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى بلدة بنورة (آت بونور) ومكث بها حوالي عشر سنوات ألَّف فيها كتبا كثيرة و لم يتوقف عن تنشئة الأجيال، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من "الطلبة"، ولما عاد إلى بلدته خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في 25 ديسمبر 1878م/1296هـ.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انتشروا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي، من مزاب وجربة ونفوسة وعُمان، أشهرهم: سليمان باشا الباروني النفوسي[445]، وسعيد بن تعاريت الجربي[446]، وإبراهيم أبو اليقظان[447]، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري[448]، وبابكر بن الحاج مسعود[449]، وصالح بن عمر لعلي[450]، وصالح بن يحي بن الحاج سليمان آل

---

444 - بحسب الرسالة نفسها فقد أرسلها له بتاريخ ذي القعدة 1320هـ، أي فيفري 1903م.

445 - سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، انظر بتفصيل أكثر: **م. أ. إب. قسم المغرب**، ج3 ص426 وما بعدها.

446 - سعيد، ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، صاحب "**رسالة في تراجم علماء الجزيرة**" و" **المسلك المحمود في معرفة الردود**" (ت: 1289هـ/1872م)، **نفسه**، ج3، ص: 375.

447 - إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، ترأس أول بعثة علمية جزائرية إلى تونس1914 عضو جمعية العلماء المسلمين، له ما يقارب 60 مؤلفا، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. **نفسه**، ج2 ص52 وما بعدها.

448 - أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري: (1886/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "**المنهاج**" بمصر، له تآليف وتحقيقات لكتب عديدة، **نفسه**، ج2 ص44 وما بعدها.

449 - بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. **م. نفسه**، ج2 ص133.

450 - صالح بن عمر لعلي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن ومزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة، **نفسه**، ج3 ص475 وما بعدها.

الشيخ[451]، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي[452]، والحاج ناصر بن إبراهيم الداغور، ويحي بن صالح باعمارة[453]، والحاج عمر بن يحيى ورّرو[454]، ومحمد بن صالح بن يحي الثميني[455]، وإبراهيم بن بنوح مطياز[456]، وصالح بن الحاج محمد الداودي، وغيرهم.

لقد أفرغ القُطب من خلال معهده كل جهده في إصلاح سلوك المجتمع ومحاربة الآفات الاجتماعية دون كلل في كل لحظة، وكان هدفه الأول هو خدمة الإسلام قولاً وعملاً، فالإسلام في نظره هو منهج للحياة التي أوجدها الله في طبيعتها الفطرية، إذ يقول الله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ"[457].

يقول الشيخ أطفيَّش :

ولولا ثلاث هن: تعليم جاهل وإرضاء ربي، والجهاد لذي الكفر

لما كنت أخشى الموت، والموت لازم؛ وإلا فما الحياة والمرء في قهر

يسترسل الشيخ أطفيَّش في كتابه "**تيسير التفسير**" بعد شرحه لنص الآية القرآنية ﴿فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[458] ناقدا أوضاع المسلمين في زمانه: "والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد، فملكهم أهل الشرك؛ ولو

---

[451]- صالح بن يحي آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات . انظر: **نفسه**، ج3 ص487 وما بعدها.

[452] - عمر بن حمو بكلي: (1922/1837م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو صاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. **م. أ. إب، قسم المغرب**، ج3 ص632 وما بعدها.

[453] - يحي بن صالح: (1938/1867م)، من مدينة مليكة بمزاب، وهو قاضيها المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة و لم يُنقَض له فيها أيُّ حُكم. **نفسه**، ج4 ص964.

[454] - الحاج عمر بن يحي ورّرو: (1921/1858م)، من أعلام القرارة ومزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتداد لمعهده الإصلاحي. **نفسه**، ج3 ص654 وما بعدها.

[455] - محمد بن صالح بن يحي الثميني: (1970/1897م)، أحد أفذاذ بني يسجن ورجالها المخلصين، ومن الوطنيين البارزين، عضو اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومبعوث الحكومة المؤقتة الجزائرية إلى أمريكا والمغرب. **نفسه**، ج4 ص803 وما بعدها.

[456] - إبراهيم بن بنوح متياز: (1981/1885م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقي التابع لجمعية العلماء، وله كتاب "**تاريخ وادي مزاب**" مخ. **نفسه**، ج2 ص19 وما بعدها.

[457] - الآية (الروم، 30).

[458] - الآية (الأنفال، 46)؛ قال الله تعالى: "وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين".

رجعوا إلى مذهبنا في الأصول وغضوا عن مسائل الخلاف، كأن لم تكن، وكانوا يدًا واحدة لغلبوا على أهل الشرك؛ وأهل الشرك الآن مشتغلون بالاحتيال فيما يملكون به غيرهم؛ وأهل التوحيد بعضهم معين لهؤلاء، وبعضهم بطّال معرضٌ، وبعضهم يعبد الله ولا يشتغل بالدعاء عليهم، وبعضهم مكبٌّ على التأليف ولا يحسن التأليف، إلاَّ ما كان على طريق الشيخ عبده، والشيخ مصطفى بن اسماعيل، والشيخ قاسم بن سعيد[459] ولذلك قلتُ: أكبّ على التأليف إذ لم نجد لنا غازيا يوما، ولا من بهم يغزو"[460].

وكانت تلك غاياته ــرحمه اللهــ: إرضاء الله وتعلم العلم وتعليمه وجهاد الكفر؛ وتأسف في بعض كتاباته أنه حقق الثانية ويدعوا الله أن يكون قد حقق الأولى ولكنه لم يحقق الثالثة، إذ لم تسمح له الظروف بالجهاد ومحاربة الاستعمار بالسلاح ورغم ذلك فإنه لم يقصّر في حربهم بالقلم والمواقف الجريئة[461].

فقد نوّع الشيخ أطفيَّش من وسائل كفاحه ضد الاستعمار، تارة بالأسلوب المباشر وفي كثير من الأحيان بتحضير جيل جديد يكون قادراً على مقاومة الاستعمار وتخليص بلاد المسلمين منه خاصة بعد أنْ رأى أنّ هذا الغزو كان تحصيل حاصل بضعف المسلمين، فهو كان يؤمن برسالته مع الجيل القادم الذي يولد في رحم الأزمة ليقود الأمة.

المبحث الثالث: التنصير والسياسة الفرنسية في أقصى الصحراء

1_ مقاومة الحركة السنوسية في الصحراء الكبرى

يرجع أول اهتمام للسلطات الفرنسية بالطريقة السنوسية إلى سنة 1855، عندما أقدم الشيخ المهدي السنوسي على الرحلة إلى الجريد التونسي لإنشاء زاوية هنالك، ووردت الأخبار من طرف الأهالي الأعوان إلى السلطات الفرنسية بأنَّ هنالك حرباً مقدسةً يعلنها شريفٌ ضد فرنسا في الجنوب؛ ومنذ ذلك الوقت أصبحت فرنسا تراقب أيدي السنوسية في كل الثورات التي وقعت في الجنوب الشرقي و لم تتمكن من توقيفها، في الوقت الذي لم ترسل فيه السنوسية إعلانا مباشرا، أو حركة باسمها[462].

---

[459] - قاسم بن سعيد الشماخي (ت: 1916) كان من أبرز من أنجبتهم يفرن بجبل نفوسة، في أواخر العهد التركي. نزل بمصر، فصاحب الأديب الصحفيَّ: مصطفى بن إسماعيل المصري، حيث كان سببًا في اعتقاده المذهب الإباضيَّ. وكافح الاثنان الأباطيل والخرافات والبدع، وساندا الإمام محمَّد عبده في حركته الفكريـــَّة. له عدة مؤلفات منها: "الحكمة في شرح رأس الحكمة" و"القول المتين في الرد على المخالفين" و"سرد الحجة على أهل الفصلة" و"مسائل البراءة وتولية والصحابة". **م. أع. إب، قسم المغرب**، ج3، ص 447.

[460] - القطب امحمد بن يوسف اطفيش، **تيسير التفسير**، تحقيق ابراهيم طلاي، ج5، ص ص 339-340.

[461] - محمد موسى بابا عمي، **حدد غايتك**، مكتب الدراسات العلمية، 2005.

[462] -Louis Rinn, **Op cit**, p 500.

وقد أعزى "لويس رين" (Luis Rinn) خطورة هذه الطريقة في أفكارها، حيث أنها ألهمت الفاعلين الحقيقيين للثورات بالجزائر، فتنظيم الطريقة الصوفية التيوقراطي[463]، وفتح الباب على مصراعيه للثوار للجوء إليهم خارج الجزائر من أجل الفرار من الأخطار المعترضة لهم، أين تستقر هذه الحركة في الصحراء جنوب طرابلس بين منطقتي الكفرة وجغبوب، إذ جعلوها "دار الإسلام" ويمكن الهجرة إليها من دار الكفر، كما قصدوا منها جمع الصفوف الإسلامية والحملة على الأوروبيين[464]، فكانت بذلك خطرا حقيقياً يهدد المشاريع الاستعمارية في شمال إفريقيا.

كما تكمن خطورة السنوسية بالنسبة لفرنسا في كبر الهدف الذي كانوا ينشدونه وهو الوحدة أو الفدرالية مع كل الطرق الدينية السّنّية بالشمال الإفريقي إلى السودان الغربي، ورد الهجمة الاستعمارية على بلاد الإسلام، وكان لها نفوذ حتى في المشرق العربي؛ حيث كان للشيخ السنوسي زاوية في مكة المكرمة على جبل أبي قُبيس المقابل للكعبة الشريفة، وكان أنصار السنوسية منتشرين في الجزائر يحرضون على فرنسا، حيث كشفت التقارير في سنة 1879 على وجود أكثر من 500 عنصر منهم في ثورات الأوراس[465].

وكان الإمام المهدي السنوسي، ابن الإمام السنوسي المؤسس للطريقة، لما انتقل إلى الجنوب مهتماً بحفر الآبار على طول الطرق التجارية والتحرز من حركة المستكشفين الأوروبيين؛ وكذا العمل على دعوة القبائل الصحراوية وإفريقيا الوسطى إلى الإسلام، فقد جاء للسودان الغربي ليقود حركة الجهاد ضد الأطماع الفرنسية بالخصوص، وقد سافر المهدي إلى "قورو" لمدة شهرين ينشر الدعوة ويجمع الصفوف ضد التوغل الفرنسي القادم من الجنوب نحو السودان الغربي، وكانت القوات الفرنسية ترابط في "كانم" فتجهز الطوارق مع "التبو" و"المجابرة" في "بير العلالي" في معركة بين الفريقين وانتصرت السنوسية وأغارت على الحامية الفرنسية ثم تقدموا نحو العلالي، لكنهم لم يقدروا على دخولها وتوفي في تلك الأثناء المهدي شيخ السنوسية[466].

كانت تضم السنوسية في تلك الفترة أكثر من 100 زاوية، ومقرها الأساسي قابع في جغبوب منذ سنة 1855 وتعد عاصمة لشبه دولة ناشئة، وتحيط هذه المدينة بسور ولها أربعة أبواب، ويخدم الزاوية 400 من الإخوان من كل الأقطار، 15 منهم فقط متزوجون والآخرون عزاب، وهذه الطريقة مسلحة، حيث ذكر "رين" امتلاكها 400 بندقية ومائتين من الحراب في الخدمة ولها 300 رجل في الاحتياط، من غير أن يذكر "رين" مصدر المعلومة[467]، ويتركز معظم أتباعها في فزان، ولكن امتداد نفوذها كان في كل الصحراء: في غات، وعند الطوارق في تدكلت وعين صالح وتْوات، وحتى السودان الغربي.

تعاون السنوسية مع القبائل المحلية فتضافرت جهود الطوارق من "أوليدن" والأهقار و"كيل أغاروس" في شمال مالي ضد المد الفرنسي، لكن الإمكانيات التي توفرت لم تسمح برد الفرنسيين طوال سنة 1907، وكان

---

463 - السلطة الدينية، انظر **المرجع السابق**، ص 2.

464 -**Ibid**, p 502.

465 -Louis Rinn, **Op cit**, p 515.

466 - محمد علي الصلابي، **الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا**، مطبعة الصحابة، ط1، الشارقة، 2001. ج1، ص 255.

467 -Luis Rinn, **Op cit**, p 509.

شيوخ "الكنته"[468] الذين كانوا زعماء تنبكتو يحاولون بكل قواهم استرجاع المناطق الممتدة من تنبكتو إلى شمال مالي، لكن ابتداء من هذا التاريخ بدأت بعض الظروف تتغير حيث تحول الصراع من صراع طارقي فرنسي إلى صراع بين الطوارق المنضوين تحت زعامات دينية والطوارق المتحالفين مع فرنسا[469].

ولكن جهود السنوسية تواصلت في شمال السودان الغربي ضد الحملة الفرنسية القادمة باتجاه تنبكتو وكل الصحراء الكبرى، ولما دان النيجر للفرنسيين في سنة 1909 هدّمت فرنسا مراكز الإصلاح والإرشاد التابعة للسنوسية، ولكن السنوسية ضلت تدعم القبائل الطارقية لمحاربة الفرنسيين في شمال النيجر حتى سنة 1911، وضلت الحرب الاستنزافية قائمة بين الطوارق في شمال النيجر وفرنسا قائمة تحت قيادة محمد كاوصن[470]، وقد حقق الكثير من الانتصارات وراسل الزعامات الطارقية لتوحيد الجهود ضد الكفار[471]؛ فقد فتح الطوارق جبهات عدة بمعية السنوسية فكانت فرنسا تعاني في شمال السودان الغربي وفي الصحراء من عدة جبهات، خاصة أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث تحرك الأزواد في شمال النيجر و"أقدز" و"كيدال" في حدود الجزائر لتحرير هذه المناطق من السيطرة الفرنسية.

استطاع الشيخ آمود مع الأحداث الجارية في الصحراء الكبرى والدعم الذي لقيه من الكنتيين والسنوسيين أن ينادي إلى الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي في المنطقة، بداية من سنة 1916 وقد ألحقت ثورته عدة هزائم بالجيش الفرنسي في الجزء الشرقي من الصحراء الجزائرية، حيث عاد ليسيطر على مدينة "جانت" التي تخلى عنها بعد معركة في 1909[472]، وحقق انتصارا في عين امقن وامتدت حركته حتى تمنغاست أين أخلي حصن "متلانسكي"، وقُتل دو فوكو[473].

تحولت المقاومة في الصحراء الجزائرية وفي شمالي مالي والنجير إلى مسألة دولية أرعبت انجلترا أيضا، لكن التحرك العكسي لبعض القبائل الصحراوية عجل بهزيمة الطوارق[474] وتشتتهم ودخولهم في صراع مع الفرنسيين ومع الطبيعة، إذ استولت فرنسا على المدن وبقي الطوارق يجوبون الصحراء مع نقص في التموين، وهذه نقطة الضعف التي استغلها الفرنسيون لصالحهم في حسم المعارك بالصحراء.

فقد كان "ديفريي" طوال مدة تواجده في الصحراء يهاب الطريقة السنوسية، حيث ينتشر نفوذها الروحي في أقصى الصحراء حيث كان يرابط أحد أتباعها ويسمى الحاج أحمد التواتي واحد من الرجال الخطرين وصاحب

---

468 - إحدى القبائل المرابطية التي ترجع بنسبها إلى عقبة بن نافع، ولهذه العائلة فروع نسبية في الصحراء الكبرى أهمها في الأزواد في شمال مالي وفي توات جنوب الجزائر .

انظر: Luis Rinn, **Op cit**, p 338.

469 - محمد سعيد القشاط، **الصحراء تشتعل 1899–1931**، دار الملتقى للنشر والطباعة، ط1، الاسكندرية، 1998. ص 39.

470 - محمد سعيد القشاط، **المرجع السابق**، ص 83.

471 - محمد علي الصلابي، **المرجع السابق**، ص 280.

472 - **المرجع نفسه**، ص 282.

473 - محمد سعيد القشاط، **المرجع السابق**، ص 85.

474 - **المرجع نفسه**، ص 89.

مشاريع بناء الزوايا وجلب السلاح وتجنيد المتحاربين للتخلص من الأعداء والمشبوهين، وكانت حركته منتشرة في تدكلت، ويعتبره ــديفيريي ــ من أشدّ المتعصبين ضد الفرنسيين وقد زكاه السنوسي ليكون مقدّماً وعوناً له على المنطقة الممتدة من فزان إلى الهقار وتْواتْ، وبقي شُعلة متحركة في الصحراء يجمع البارود والسلاح استعداداً للرد على الفرنسيين؛ وقد أفتى بجواز قتل "ديفريي" ونهبه هو ومن معه لكونه جاسوساً فرنسياً، حتى أنهم أي السنوسية عارضوا رحلة اسماعيل بوضربة في سنة 1858 إلى غات رغم أنه مسلم، إذ ثبت أنه كان يعمل لحساب فرنسا[475]، وقد حاول الفرنسيون الاتصال عن طريق الأعوان بالسنوسية في الجزائر لمعرفة مجريات الزاوية الأم في واحة الكفرة بطرابلس الغرب[476].

ثم إن تحطم المهمة الاستكشافية للعقيد "فلاترس" المتكونة من 50 قناص من الجيش الإفرقي و32 من المجندين من رجال القبائل لمساعدة المهمة العسكرية وتوفير الحماية والأمن، كان للسنوسية يد واضحة فيها، حيث أنّ إصرار هذا الرجل على العبور عبر الهقار رغم التهديد الصريح الذي وجه له، هو ما جعله يدفع ثمن اندفاعه وثقته بمن معه من الرجال المسلحين، حيث أشاروا إلى مرشديهم بتضليلهم في الصحراء ثم الانقضاض عليهم في بير الغرامة، ــ600كلم جنوب ورقلة ــ فقتل "فلاترس" وبعض أعوانه وفر الباقون ليموتوا عطشاً في العرق الشرقي الكبير بينما لم يصل إلاَّ القليل إلى ورقلة[477].

إنَّ أطماع لافيجري في أنَّ قافلة قساوسته "في طريقها نحو السودان" لم تتجاوز القُولية، فقد قتل الثلاثة الأوائل الذين ساروا من متليلي نحو الصحراء، ولكن لافيجري اعتبر هؤلاء ممن ذاقوا مذاق الموت في سبيل الله؛ وتجاوز لافيجري فكرة الصحراء لبعض الوقت علّه يصل تنبكتو، فأمر المنصّر "رتشارد" بالتركز في غدامس والتحرك منها لفتح الطرق أمام المنصّرين وإن كانت الرحلة ناجحة من هذا الأخير حيث اعتبرها فتحاً مبيناً[478]، فقد استعجل التحرك نحو قلب الصحراء نحو غات فمدينة تنبكتو، لكن أنباء مقتل "فلاترس" أوقف مشروع هذا القسيس لبعض الوقت ولما انطلقت القافلة من جديد في نهاية سنة 1881 كان نفس المصير ينتظر "ريشارد" هو ورفيقيه، وهذه المرة فهم لافيجري جيدا أن "غزو الأرض أسهل من غزو الأرواح"[479]، وقد لاقى "ريتشارد" نفس مصير "دو فوكو" في الهقار رغم استقراره بها لمدة زادت عن العشر سنوات.

2_ المنصر دوفوكو في الهقار

ولد شارل دو فوكو (Charles de Foucauld) في ستراسبورغ في 15 سبتمبر 1858؛ وبعد تعلمه الأول وفي سن الثامنة عشرة دخل مدرسة "سان سير" (Saint Cyr)، وتركها ليدخل مدرسة "سموز"، ليتدرج في المراتب العسكرية ووصل رتبة ملازم أول للفرسان، ولكن المسؤولين عليه في الحربية لم يكونوا يتحملون تصرفاته الغريبة،

---

475 - اسماعيل العربي، **تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. ص 305.

476 - Louis Rinn, **Op cit**, p 513.

477 - اسماعيل العربي، **المرجع السابق**، ص 325 .

478 - **المرجع نفسه**، ص 341 .

479 - **المرجع نفسه**، ص 342 .

فكان يُطرد من حين لآخر، والتحق بالقناصة الإفريقية، وكان يعيش حياة يكتنفها الغموض وسوء السلوك والانضباط، فما كان من النقيب المسؤول على الفرقة التابع لها دو فوكو إلاَّ صرفه من الخدمة العسكرية[480].

ومع اندلاع ثورة بوعمامة في الجنوب الغربي عاد "دو فوكو" مرة أخرى ليحمل السلاح من جديد ليحارب فيما كان يراه حربا مقدسة، ثم استقال بعدها في عام 1881 تماما من الخدمة في الجيش، وقرر التجول في المغرب وجمع معلومات عنها، فتنكر في زي حاخام يهودي مشرد وفقير، وطاف جبال الأطلس المغربي من 20 جانفي 1883 إلى 23 ماي 1884، وخرج من هذه الرحلة بمعلومات غزيرة عن المغرب جعلها في كتاب "معرفة المغرب"، وقد عبر عنه أحد الجغرافيين في تلك الفترة بالقول: "كل دراسة أخرى أمام هذه الدراسة هي عبارة عن حديث أطفال"[481]، وقام بعدها بدورة في الجنوب الجزائري، وفي عرض الصحراء من المغرب إلى تونس عبر بني عباس والأغواط وغرداية والقُولية وورقلة وتقرت نحو الجنوب التونسي حتى قابس، سائراً وفق المعالم التي رسمها له "ديفريي" الذي التقى به عدة مرات.

في سنة 1886 أخذ دو فوكو طريق التّدين، ووضع نفسه تحت إمرة الرئيس الديري "هوفلان" (Hoflan)، فعمّده وتخلى عن كل أملاكه، ودخل ضمن تنظيم "الترابيست" تحت اسم الأخ "ماي ألبير"، وأمضى سنوات 1890-1896 في دير الشّيكلي في الإسكندرونة بسوريا؛ ثم عاد إلى سطاوالي في الجزائر، ومنها انتقل إلى روما، أين درس رؤسائه في التنظيم أمر دعوته لحياة أكثر انعزالية ونبذا، فسمحوا له بمغادرة المنظمة في 23 جانفي 1897، فعاد دو فوكو إلى المشرق واشتغل بستانيا عاملا بالمحاريب المقدسة في كل من الناصرة وبيت المقدس بين سنوات 1897-1900؛ وتلبية لنداء الكهنوت والدعوة الملحة عليه عاد ليدخل إلى فرنسا ويسكن لأكثر من سنة في "دير سيدة الثلوج" قرب فيفيي (Vivier)، تحت إمرة المطران "بونه" (Bonnet) والذي أمره بالتحرك إلى الجزائر في 9 جوان 1901[482].

كرّس دو فوكو نفسه منذ ذلك الوقت للدعوة التي جعلته يستغرق فيها ويتحول إلى راهب حقيقي في فيافي الصحراء المقفرة، وبدأ نشاطه في بني عباس بين سنوات 1901-1905؛ ثم تحت إلحاحٍ من صديقه منذ أيام المدرسة في "سان سير" المقدّم لابرين (Laperrine) الذي أقنعه بأن ينتقل إلى الهقار؛ وفي ذلك الوقت كان دو فوكو في بني عباس في الصحراء الغربية للجزائر، فوافق على ذلك ورافقه في رحلة استطلاعية عبر الصحراء الشرقية، وفي ذهنه كيف السبيل إلى هداية الطوارق وتخليصهم من العذاب الذي هُم فيه[483].

وكان "لابرين" يلتمس في "دو فوكو" عمل الكثير في الجنوب عند الطوارق، حيث كاتب إلى أحد الجنرالات قائلا له: "يمكن أن تعتمد على "دو فوكو" كوسيلة كاملة لبث الهدوء والفضيلة، وسيقوم بقليل مما يفعل

---

480 -<<**Le Charles De Foucauld ermite au Sahara**>> en l'Ami du Clergé Paroissial, supplément à Ami du clergé, N35, Langres, 1931/08/27. p 503.

481 -**Ibid**, p 505.

482 -Ami du clergé paroissial, **Op cit**, pp 503-504.

483 - اسماعيل العربي، **المرجع السابق**، ص 343.

الكاردينال لافيجري في تونس من تأثير فرنسي"، وكانت رسالة دو فوكو واضحة وهي: العطاء في صمت والتضحية والعمل على أن ينجذب الطوارق نحو الإنجيل.

وهو سائر نحو الهقار التقى بمن كان ينتظره في الرحلة، وهم كل من: "إميل فليكس قوتيي"[484]، والكاتب "بيار ميلي" (Millé)[485] والجغرافي "شيدو" (Chudeau)[486]، وكان قائد الرحلة النقيب "دينو" (Dinaux) الذي يعمل تحت أوامر قيادة "لابرين"، وقد قدّمه إلى "الأمنوكل" الجديد[487] على طوارق الأهقار المدعو "موسى أق أمستان" والمقيم في تين زاواتين[488]، وكان هذا "الأمنوكل" قد وقع على معاهدة صداقة مع الفرنسيين في سنة 1904 في عين صالح [489].

ولما اشترك دوفوكو مع "لابرين" في الجولة الثانية قرر أن يتوغل في قلب الهقار أين دخل وادي تمنغاست، حيث لا مدينة ولا محطة تجارية، في قلب "أهقار دق–غالي"، القبيلة الرئيسة التي تستوطن تمنغاست في قلب جبال الهقار[490]، فبني فيها ديرا؛ أو بالأحرى رواقا مسقوفا عرضه 1,75م وطوله 6 أمتار[491]؛ و لم يكن في هذا الوادي غير بعض الفلاحين يعيشون في أكواخ من القش ولهم بعض الزراعة المعاشية من شعير وخضر، واستطاع في مدة قصيرة اكتساب بعض قبائل طوارق كونفدرالية الأهقار، بعد أزمة حمى ضربت المنطقة، مستغيثا بالحامية العسكرية: "بشيء من الضمادات، وحبوب العلاج، وبعض المطهرات، سأعمل الكثير"[492]، فكان أن اكتسب زعيم طوارق كل أهقار "موسى أق أمستان"[493] وآخر زعماء الطوارق، الذي جاء أيضا إلى تمنغاست ليستقر بها، ويجعل منه صديقاً وفياً.

تحول دو فوكو إلى مركز للأخبار والمعلومات، وضاعف العمل على جمع المعلومات السياسية والعسكرية مع الحامية العسكرية، حيث كتب إلى الحامية "أعتقد أنه يجب تشديد مراقبة المرابطين أكثر من المعتاد، وليس على الذين هم هنا، ولكن على الذين يأتون من الإقليم الطرابلسي إلى هنا، إن الأتراك يرسلون بمرسولين من طبقات دنيا معبأين بمعلومات وأخبار مشوِّشة بحثا عن تهييج الأهالي"[494].

---

484 -له كتاب مع الجغرافي شيدو Mission au Sahara, Sahara Algérien, II Tomes, 1908. .

485 -كاتب روائي من بين كتبه Images exotiques et françaises, 1912. .

486 -من أبحاثه Géologie du Sahara central, 1912. .

487 -خلف "أتيبي" الذي انسحب نحو طوارق نآجر، وقبله كان "الأمنوكل أهيتاغل" الذي قضى على مهمة فلاترس. انظر كيل أهقار

488 -René Bazin, **Charles de Foucauld (Explorateur du Maroc et Ermite du Sahara)**, Librairie Plan, Paris, 1921. p 307.

489 -**Ibid**, p 315.

490 -**Ibid**, p 310.

491 -انظر صور متعلقة بدو فوكو، ملحق الصور رقم 03.

492 -Ami du Clergé Paroissial, **Op cit**, p 505.

493 -انظر رسالة "أمستان" حول "دو فوكو" من طلب بازان، ملحق الوثائق، الملحق رقم **09**.

494 -Ami du Clergé Paroissial, **Op cit**, p 505.

وقد قال فيه لابيرين: "إن وجوده هناك ينوب عن قطعة عسكرية بأكملها"، فقد حوّل بعض من حارب التوغل في سنة 1902 من قبائل "دق-غالي" و"كل-غيلا" إلى الاستقرار، ومجابهة السنوسيين والقبائل المتحالفة معهم[495].

بدا دوفوكو متّقد الإحساس والحماس نحو الدعاية بالإنجيل عند الأهالي في الجزائر، خاصة في الصحراء بالخصوص أين يعتبر سكانها "هم المهملون والمتروكون لحالهم"[496]، فلما عاد دو فوكو ليستقر في الصحراء بعد ترهبنه، مرَّ "بالدار المربعة" ليتلقى الإذن من أسقف الصحراء بالاستقرار في الصحراء؛ ببني عباس في الجنوب الوهراني، في انتظار الترخيصات الأخرى من الحاكم العام ومن قائد الناحية، حيث ألح عليه المسؤول في "الدار المربعة" أخذ رفقة معه[497].

أخذ دو فوكو العزم على العمل التنصيري منطلقا من قاعدتين:

أولاً: دراسة لغة وعادات وثقافة الأهقاريين، حيث جمع مادة غزيرة من اللغة والثقافة الطارقية؛ معتمداً على كبار السن والعجائز بالخصوص، فجمع المفردات والأمثال والأشعار، والعادات والتقاليد؛ وحفظ الكثير عن هذا "الشعب المحارب والشادي الجوّال"[498]، ونشر هذه المصطلحات والمفردات سنة 1908، ثم حضّر لقاموس ضخم "فرنسي-تمهاغتي"[499]، زاخر بالمعلومات التاريخية والاثنوجرافية[500]، والجغرافية للبلد، ثم أرفقه بمجموعة من النصوص وثلاثة آلف قصيدة طارقية مترجمة إلى الفرنسية[501].

ثانياً: التنصير من القاعدة إلى القمة حيث كان يتجول قرب المخيمات السكنية محاولا الدخول في علاقات مع الأطفال فيقدم لهم السكر والحلوى، لكنه لم يسجل نجاحا في هذا المسعى أول الأمر، وكان يستنتج من خلال ردة فعل الأطفال كيف هو الرأي العام تجاه الفرنسيين[502].

علق دو فوكو آمالاً عريضةً على تنصير الطوارق الذين يراهم "يؤمنون بالله على حرف فلا يتبعون رمضان بالصوم ولا يقومون بالصلاة على معتاد المسلمين"، وكان يكتب في كراسٍ له توصياتٍ مما يجب أن يقوله للأمينوكل "موسى" في كل مرة، والذي من خلاله تمر الرسالة إلى من يعيش تحت لوائه، ومنها:

- شجّع على الاستقرار.
- دافع ضد العرب الأجانب الذين يأتون للاستقرار هنا لابتلاع البلد، وقد فعلوا كذلك.

---

495 -**Ibid**, p 507.

496 -René Bazin, **Op Cit**, p 188.

497 -في قوانين الآباء البيض الداخلية لا يكون المبشرون دون ثلاثة- انظر سابق- لكن دو فوكو لم يكن يتبع الآباء البيض في التنظيم وكان مستقلا بحاله، وإنما استقر في المحافظة الرسولية للصحراء والتي تتعهدها المؤسسة "الآباء البيض".

498 -Ami du clergé, **Op cit,** p 504.

499 -اللسان الذي يتحدث به الطوارق يعرف بـــ"التمهاغت".

500 -خاصة بعلم الأجناس والأعراق.

501 -انظر بعض أوراق أعماله في ملحق الوثائق، ملحق رقم **10**.

502 -اسماعيل العربي، **المرجع السابق**، ص 345 .

- أول واجب هو حب الله من الأعماق قبل كل شيء، وثانيا تحب أي إنسان كما تحب نفسك، وهذا الحب لمن معك يستتبعه قانون ثلاثي متلازم هو الأخوة والعدالة (أمارن)[503] والحرية (العبيد)[504].
- إذا جاء باحثا في: كيف يفكر الرسل ويتكلمون؟ سأقرأ له من الإنجيل.
- إذا حدّثت إلى الضابط حاول أن تذهب إليه وتحدثه على انفراد، وبدون مترجم، وانشرح له وحدثه بصراحة كصديق حميم، لا تكذب ولا يكون ظلك الكذب[505].

عكف شارل دو فوكو على ترجمة أجزاء من الإنجيل والكتاب المقدس إلى لسان "التمهاغت"، وكان ممن زاره هنالك المترجم "موتيلانسكي" وعمل على أخذ بعض القواعد التي يعمل بها دو فوكو، وقد شرح في مراسلاته الكثيرة كيف أنه يمضي الساعات الطوال في ترجمة النصوص "للتمهاغات" ويحدث بها الناس وعن الإنجيل والرّب.

كما عمد إلى مراسلة ولقاء الآباء البيض المنصرين، الذين تتبع الصحراء مهمتهم؛ وحرضهم على إرسال الأخوات البيض إلى بلاد الطوارق، لتلتقي بالمرأة الطارقية التي تبدوا أكثر قابلية لملاقاة الأوربيات والاحتكاك بهن، وخلال ذلك كان يتجه إلى الخيام ويذهب إلى "الحراتين" ويقف معهم في أعمالهم، ويجلس إلى النساء ويقدم لهن الهدايا مثل صنارات الحياكة الطويلة ويشترى صبغة الشعر لهن وبعض مواد التجميل وبالمقابل يأخذ اللغة عنهن ويجمع ما يضيفه إلى رصيده[506].

كما عمل على اكتساب المرأة هناك، تحت قاعدة "من اكتسب قلوب الإناث أصبح سيدا"[507]، ومع ذلك وبثبات كان يسير نحو هدفه قائلا عن نفسه: "حياتي متعلقة بنسبة كبيرة بالعلاقة مع من يحيط بي وتقديم كل الخدمات اللازمة التي أستطيعها بقدر ما الصداقة تزداد؛ أتكلم كل يوم أو تقريبا دائما وجها لوجه عن الرّب الطّيب، باختصار مبديا لكل واحد ما يمكن حمله، هروبا من الذنب، مانحين لكل واحد على حسب قدرته، متقدمين بتأن وبحزم"[508].

بقي في أذهان دو فوكو منذ سنة 1908 ضرورة التفكير بجدية في إنشاء منظمة أو مؤسسة تهتم فعلياً بتطوير الروح التبشيرية في المستعمرات الفرنسية؛ وتستلهمه في ذلك فكرتين:

1- علينا الآن القيام بمجهودٍ ضخمٍ من أجل التنصير الفعلي وعدم ترك الرعايا الفرنسيين جانباً.

2- علينا بجمعية ليست للتوسلات والصلوات فقط بل اهتمامها الرئيسي هو الكفّار والروح التنصيرية[509].

---

503 - هم النبلاء من القبائل.

504 - يعني به تحرير الرقيق.

505 -René Bazin, **Op cit**, p 322 & suite.

506 -René Bazin, **Op cit**, p 321.

507 -**Ibid**, p 50.

508 -**Ibid**, p 510.

509 -**Ibid**, p 321.

إلاَّ أنَّ رياح الثورة التي هبت، والتي أدارها الطوارق _الذين كان يصفهم بقليلي التدين والقابلين بسرعة للتّنصّر_ كانوا هم الذين قضوا عليه وعلى محاولة الفرنسيين الأولى للتثبت في أعالي جبال الهقار سنة 1916. وبمقتله توقفت طموحات ومشاريع "المؤسسة التنصيرية" إلى غاية ثلاثينات القرن الماضي[510].

[510] - حديث شخصي مع الأب كرجشستوف، مسؤول محطة المؤسسة التنصيرية بغرداية، بداية ديسمبر 2011.

خاتمة:

لقد رافق الزحف الاستعماري على الدواخل الجزائرية وبلدان إفريقية السوداء مدّ تنصيريٌ كبير شدّ أزر المستعمر وعاضده؛ وقد ساعد الاستعمار المنصِّرين بأن كفلهم بغطاء الحماية والأمان؛ في الوقت الذي ظهر في أفريقيا من شمالها إلى جنوبها تنافسٌ واضح بين المُنصِّرين والمستكشفين والآلة العسكرية الاستعمارية من حيث التسابق إلى التوغل في الدواخل ونصب العلم الفرنسي أو غيره تمهيداً لتكون منطقة نفوذ؛ فإذا كان الجغرافي المستكشف يقتصر على المغامرة الفردية أو المقامرة من أجل العودة بخرائط عن المسالك والتضاريس والسكان.. فإنَّ المنصِّرين وفي عمل مؤسساتي منظّمٍ كانوا يركزون على الاستقرار وبسط الأفكار تمهيداً لتقبُّل الاستعمار من قِبَل السكان كحامل للحضارة والتطور انتهاء بالتخلّي عن "الهمجية الإفريقية".

وقد بدا بأنَّ نموذج فتح المنصِّرين للطريق للعلم الفرنسي في أفريقيا السوداء كان ناجحاً نوعاً ما بدليل تنصّر الكثير من القبائل الإفريقية خلال الفترة التي تصدينا لها بالبحث والدراسة في السنيغال ومرتفعات إفريقيا الشرقية بدءاً من جنوب السودان مروراً بتترانيا وصولاً إلى جنوب إفريقيا، إلاَّ أنه مني بفشل ذريعٍ في شمال أفريقيا؛ أين وطد الإسلام أقدامه بها، وقد باءت جميع محاولات التوغل إلى الصحراء الجزائرية أو اجتيازها من أجل الوصول إلى إفريقيا بالفشل، إذ قُتل المنصِّرون الذين اجتازوا الحدود الفعلية التي يسيطر عليها الفرنسيين، كما ظلّ الرهبان ينتظرون تقدم الفرق العسكرية في كل مرة ليتمكنوا من التقدم معهم.

وبالنسبة للصحراء الجزائرية تعود أولى محاولات العمل التنصيري إلى الخمسينات من القرن التاسع عشر؛ إذ تقدم الاستعمار الفرنسي إلى ما وراء الأطلس الصحراوي بعد إنهاء مقاومتي الأمير عبد القادر سنة 1847م وأحمد باي سنة 1848م بعد ذلك، وكان يرافق الفرق العسكرية بعض المنصِّرين العاملين في الجيش كمرشدين، كما أخذ المنصرون اليسوعيون السبق بعد وصول الفرق العسكرية إلى الأغواط في الاستقرار بها كأول مؤسسة تنصيريَّة حاولت الاستقرار بالصحراء الجزائرية، وبالنسبة لمنطقة مزاب _200 كلم جنوب الأغواط_ فقد كان أول اتصال رسمي من الفرنسيين مع مسؤولي منطقة مزاب في نهاية سنة 1852 بعد الدخول العدواني على الأغواط ورفع العلم على مأذنة مسجدها، ثم فرض حصار على المنفذ الشمالي لمنطقة مزاب ومحاولة إخضاعها لاتفاق بتنازلاتٍ مقابل شروط هزيلة؛ وتم تفعيل الاتفاق أو المعاهدة في أفريل 1853، ولقد أفادت هذه المعاهدة كثيراً جُلّ المناطق المجاورة في أنها أخرت استعمار الجنوب لمدة ثلاثين سنة أخرى؛ وسمحت المعاهدة المبرمة بين مزاب وفرنسا بترك المجال مفتوحا لنصرة الثورات الشعبية في الريف والصحراء الجزائرية وتموينها بالسلاح والغذاء _كما كانت مزاب تفعل دوما قبل المعاهدة_ حيث لم يكلف المزابيون أنفسهم عناء التقيد بهذه الاتفاقية بل كانوا يموّنون الثورات هنا وهناك ويغذونها بالمؤن والأسلحة والذخيرة ما جعل فرنسا تحاول مراجعة هذه الاتفاقية مرّات عدّة ولكنها لم تشأ ذلك لأنها لا تريد فتح جبهة جديدة مع السكان يصعب غلقها، وبالمقابل حاولت زعزعة استقرار المنطقة ببث القلاقل والفتن بين السكان ببث العيون فيها كرد فعل.

ولما وجدت فرنسا الفرصة مواتيةً ألحقت مزاب باحتلاله عسكرياً وبهذا أصبحت فرنسا تراقب عن كثب ما يجري في مزاب وبخاصة كل من يدخل إليه أو يخرج للتزود، وهو ما أدى إلى غلق أهم أسواق التموين في الجنوب، وإلى ضعف المقاومة الشعبية في الجنوب فكانت 15 سنة كافية لاستكمال احتلال كل شمال الصحراء وصولاً إلى غاية "تْوات" _800 كلم جنوب مزاب_ في الجنوب الغربي، وانتهاءً إلى أعتاب "الهقار" _1400 كلم جنوب مزاب- في الجنوب الشرقي.

وقد جمعت ظروف المجاعة التي عصفت بالجزائر مع نهاية العشرية السادسة من القرن التاسع عشرة نتيجة اغتصاب الأراضي من الأهالي لتحويلها إلى الزراعة الاقتصادية، ومع مد الحكومة الفرنسية للقوات المسلحة أكثر نحو الجنوب سنحت الفرصة للمطران "لافيجري" لينشئ مؤسسة تنصيرية قارة بالجزائر من أجل وضعها تحت تصرف فرنسا والكنيسة؛ فأسس "مؤسسة منصِّري إفريقيا" سنة 1868 وأتبعها "بمؤسسة الأخوات المنصِّرات" سنة 1869، وكان على عاتق هذه المؤسسة إنجاح "المهمَّة الإرسالية بالصحراء والسودان الغربي"، ولم تتأخر بعد أن أرست معالمها وقواعدها في إيفاد أول مجموعة من روادها إلى الصحراء قاصدةً الوصول بهم إلى قلب السودان الغربي وإلى المدينة الأسطورية "تنبكتو" التي طالما سمعوا عنها ولم يروها، ولكن "مَهمَّاتهم" الأولى منيت بخيبة الأمل وذلك بعد مقتل القافلة الأولى من الرهبان المنصّرين بالجنوب الجزائري.

ومع الرغبة المُلحّة في الوصول إلى أقصى نقطة كان الوصول إلى المجموعات السكانية من الأهداف التي يمرّ بها دين النصرانية؛ على اعتبار أنه رسالة سماوية في الأصل _رغم أنها محرّفة_ فكانت المؤسسة قد وضعت محطات في الواحات الصحراوية تباعاً، ولكن لتناقضٍ غير واضحٍ في الأهداف والعمل الميداني كانت قد تخلت عن بعض المحطات بنفس السرعة التي ظهرت على غرار: "جيري فيل"، والأغواط، والأبيض سيدي الشيخ، وبسكرة، ومتليلي، غير أنَّ المحطات التي تعد محطّات لابد من المرور منها إلى الصحراء حافظت عليها مؤقتا، مثل المحطتين الأخيرتين، وهنا يكمن التناقض الأول في الأهداف: فهل المقصود من تلك المهَمَّات هو التمكين للحملة الاستعمارية وفتح الطريق للعلم الفرنسي أكثر نحو الجنوب أم هو العمل الميداني لتنصير الأهالي؟!

وبالمقابل كانت المهَمَّات تستقر بشكل انتقائي في بعض المناطق، إذ استقرت في منطقة القبائل والأوراس ومنطقة مزاب والهقار، وكان الدافع المشجع _حسب اعتقاد بعض المنصِّرين_ يعود إلى طبيعة السكان ذو الأصول الأمازيغية فهم مسيحيون في الأصل أرغموا على الإسلام لاحقاً، وأنه يمكن ضمان بقاء فرنسا هناك بشكل نهائي لو رجعوا إلى نصرانيتهم.

لكن الواقع والميدان لم يكن بهذه السّذاجة والاعتقاد البسيط، فقد وجدت هذه "المؤسسات التنصيرية" نفسها أمام مجتمعاتٍ أشدُّ تمسُّكاً بدِينها مما تتصور؛ ففي مزاب التي أحاطت فرنسا بها منذ 1857، وأنشأت علاقات مع متليلي، واحتلت ورقلة الاحتلال الأول، ولم يستطع أحد المنصِّرين أن يجد لنفسه متسعاً للاستقرار بمزاب بعد أن سدَّت في وجههم كلَّ منافذ التغلغل؛ وبقي الأمر كذلك مدة ثلاثين سنة موالية أي إلى غاية الاحتلال العسكري لمزاب 1882م، أي حتى ضمن لهم التواجد العسكري هنالك العلاقات الطيبة مع سلطاتها

العسكرية وتمكنوا من كراء منزلٍ لهم يعود لأحد يهود غرداية، حينها تمّت البداية الفعلية لمحطة مزاب إذ صارت عاصمة للنيابة الرَّسولية للصحراء والسودان.

وبالنسبة لهذه النيابة المترامية الأطراف والتي قسمت بداية من 1890 إلى محافظتين هما: الصحراء والسودان، فنظراً للظروف الصحراوية القاسية وصعوبة التأقلم بها، ثم تشدد السكان وتمسكهم بدينهم..، كان المردود ضعيفاً إذ إلى غاية الحرب العالمية الأولى لم تتأسس بها إلاَّ ثلاث محطات شبه قارة وهي: مزاب والقُولية وورقلة في حين أنَّ المحطات الأخرى بقيت معابر فقط وهي: الأبيض سيدي الشيخ وبسكرة وبني عباس، يبقى أن العمل المنعزل في قلب جبال الهقار تمثل في نشاط "شارل دو فوكو" بين سكانها من طوارق الأهقار، ورغم أنه استقر بها لمدة تزيد عن عشر سنوات كان يعتني فيها بالجانب المعرفي واللغوي واعتبرهما القاعدة قبل الوصول إلى الغاية المنشودة وهو عودة الطوارق إلى نصرانيتهم، إلاَّ أنَّ نهايته كانت مأساوية حيث قضت ريح ثورات أقصى الجنوب عليه في أيام الحرب العالمية الأولى باعتباره جزءاً من البرنامج الاستعماري نفسه.

فقد فتحت الفترة الأولى من التواجد الفرنسي على الرمال الصحراوية الباب على مصراعيه للنشاط التنصيري ولو بصفة محتشمة؛ بوجود ثلاثة محطات تابعة لمؤسسة "مُنصِّري إفريقيا"، وهي المؤسسة الوحيدة التي لها الحق في العمل بالصحراء بترخيصٍ من الكُرسي البابوي، لكن ما يمكن أن يستقى منه هو: التعاون الواضح والتقاطع في الأهداف بين التنصير والاستعمار وخدمة أحدهما للآخر؛ بالرغم من أنه عند قراءة الوثاق الإدارية والقوانين الفرنسية نجد أنّه لا فرصة للعمل التنصيري، لكن الواقع يقول أن القوانين يمكن أن لا تتجاوز حواف الأوراق إن عارضت المصلحة الاستعمارية، ثم إنَّ ما يسمى بخدمات البر والإحسان التي كان يقدمها الآباء البيض لم تكن حُبّاً في الأهالي ولا من قبيل الشفقة عليهم، بل كان ما يقدمونه على حسب متطلبات الحاجة لكسب قلوب الضعفاء واستمالتهم إلى فرنسا والتعاون معها؛ غير مدركين أنَّ كل الحرمان الذي هم فيه كانت فرنسا وآلاتها السبب في ذلك؛ ثالثا أن المجتمعات التي عدها المنصرون سهلة التغلغل فيها وتفكيكها هي على العكس تماماً، فبقائها محافظة في أطراف الصحراء رغم انفتاحها الاقتصادي ساهم بشكلٍ كبيرٍ على عدم إتاحة الفرص للمنصِّرين وللعسكر الفرنسي في النفود إلى داخلها، ولكن عدم الاحتياط وفتح المجال للمستكشفين والمستشرقين كان أول معاول شق الطريق إليها.

وقد أخذت ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى التفاعل بين المؤسسة التنصيرية والأهالي منعرجا آخر حيث بدت المؤسسات التنصيرية واقفة إلى جانب الأهالي تواسيهم في محنتهم، ومن جانب آخر تنقل للسلطات العسكرية التحركات المزمعة أو المحتملة ضدهم؛ كما بدا وكأنَّ فرنسا ستستقر بالجزائر إلى الأبد وعلى السكان أن يتكيَّفوا مع الواقع الجديد بكلِّ ما فيه من مؤسسات حتى المنصِّرين، ومن جهة أخرى إزداد المنصِّرون قوة عن الفترة الأولى بتعلمهم لغات الأهالي وفهموا طبائعهم، كما اعتاد الأهالي حضورهم بينهم، كمعلمين للصبية أو مُسعِفِين لمرضاهم؛ وهذين العملين حظيا بوافر الاهتمام فوجد إقبال وإجبار أحياناً عليهما، كما أصبح التعليم إجبارياً بينما فرض عدم وجود الأطباء والممرضين من الأهالي وانعدام المواد العلاجية إرغاماً صريحاً على الاستئناس بما يقدم على ما فيه من سموم يتجرعها الأهالي.

مرة أخرى لا تزال محدودية الوثائق خاصة ما يتعلق منها بالفترة الاستعمارية الأولى تقف حجر عثرة أمام وحائلاً دون الوصول إلى نتائج أخرى أعمق وأدق، أضف إلى ذلك ضعف المصادر المحلية والتي حالت دون إجراء مقابلة بين الوثائق الأجنبية والمحلية، لذا لم أتمكن من التعرف على محتوى المواد المدروسة في الفصول الأولى لنشأة مدرسة الآباء البيض بغرداية، رغم وجود بعض الإشارات البسيطة لأنواع العلاج المعروضة، لذلك لا تزال القراءات نسبية وتحتاج لأن تتلوها دراسات أخرى تمتد بالموضوع على البعدين الزمني والمكاني.

الملاحق

أولا : ملحق الوثائق

ثانيا : ملحق الصور

ثالثا : ملحق الخرائط

أولا : ملحق الوثائق

الملحق رقم 1 : نص رسالة المقدم ''ديبري'' قائد دائرة الأغواط إلى جماعة بنى مزاب في سنة 1853.

الملحق رقم 2 : نص كلمة الحاكم العام ''ترمان'' إلى المزابيين عند الإلحاق العسكري في سنة 1882.

الملحق رقم 3: نص رسالة بابا روما إلى المطران لافيجري مباركا أعماله سنة 1868.

الملحق رقم 4: رسالة الأب ''مالفرايت'' إلى المسؤول عام لمؤسسة ''منصّري إفريقيا'' بالجزائر حول سير مهمة مزاب في 1885.

الملحق رقم 5 : التقارير اليومية كما تمت رقمنتها في موقع المؤسسة على الشبكة العنكبوتية.

الملحق رقم 6 : التقارير اليومية مرقونة في أرشيف المؤسسة بروما.

الملحق رقم 7: رسالة جماعة بنى يسجن إلى قايد مدينتهم يوضحون فيها موقفهم وموقف الأهلي من المنصرين الذي يبحثون عن كراء منزل بالمدينة.

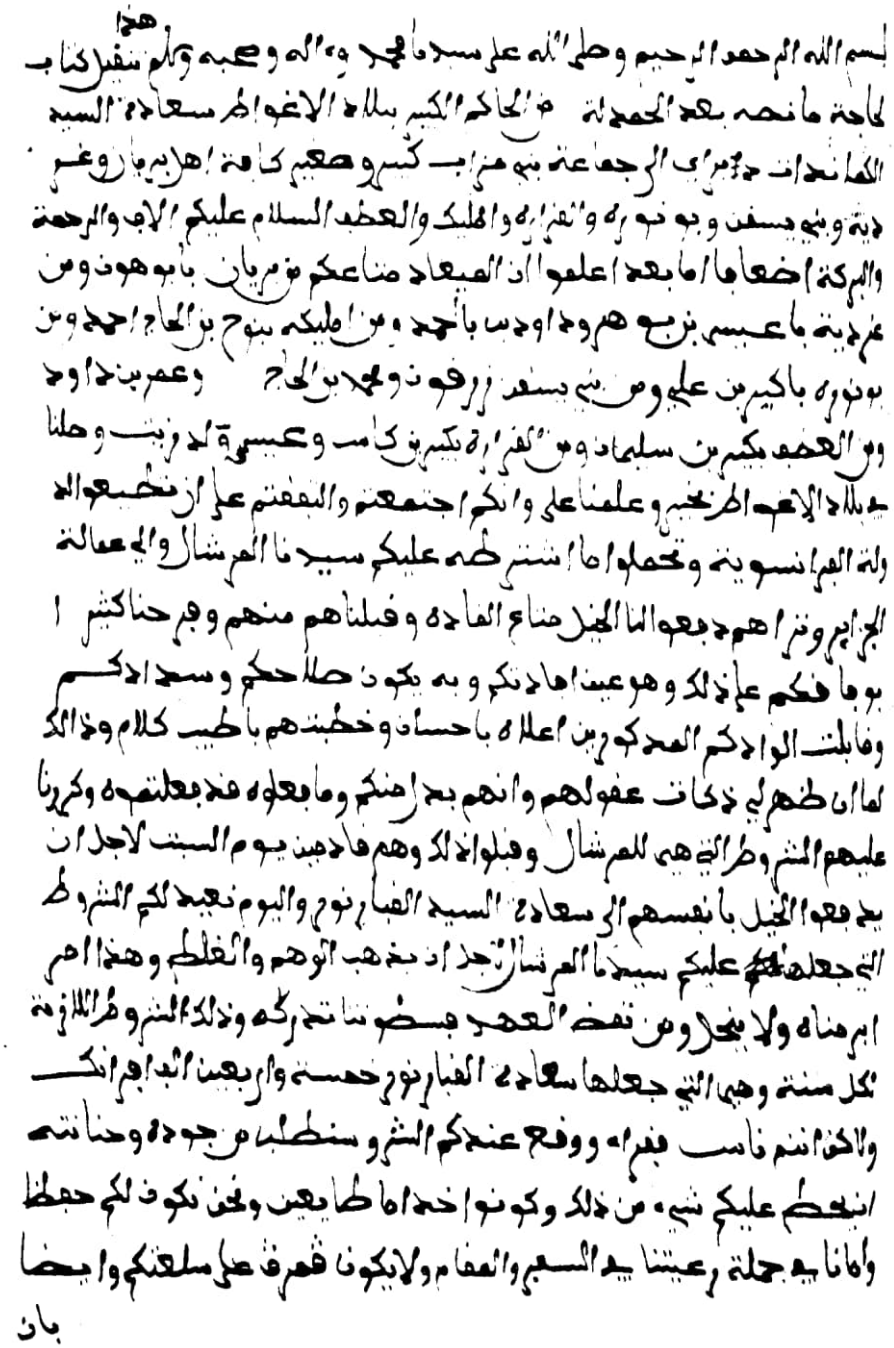
الملحق رقم 8 : رسالة من القطب أطفيّش رحمه الله إلى الحاكم العام يندّد بالترخيص للمنصرين بالعمل الميداني.

الملحق رقم 9: رسالة ''موسى أق أمستان'' أمنوكل الأهقار إلى ''روني بازان''.

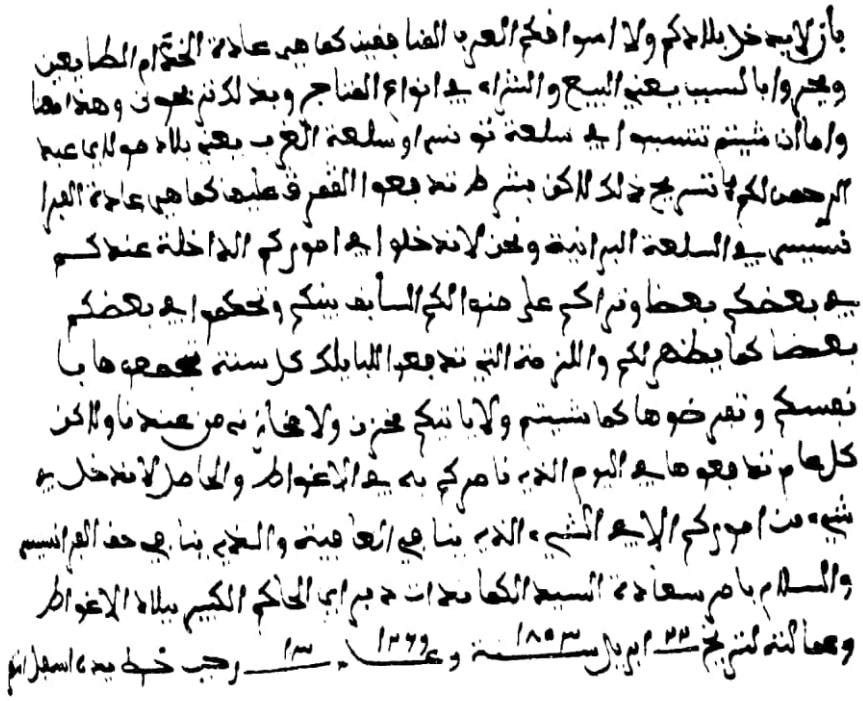
الملحق رقم 10 : صور لصفحات من قاموس ''دوفوكو'' تماهاق-فرنسية.

الملحق رقم 11: قائمة بأسماء المسؤولين الذين شغلوا منصب أسقف أو محافظ بابوي على محافظة الصحراء بين سنوات (1868-1916).

الملحق رقم 1 : نص رسالة المقدم "ديبري" قائد دائرة الأغواط إلى جماعة بني مزاب في 1853.

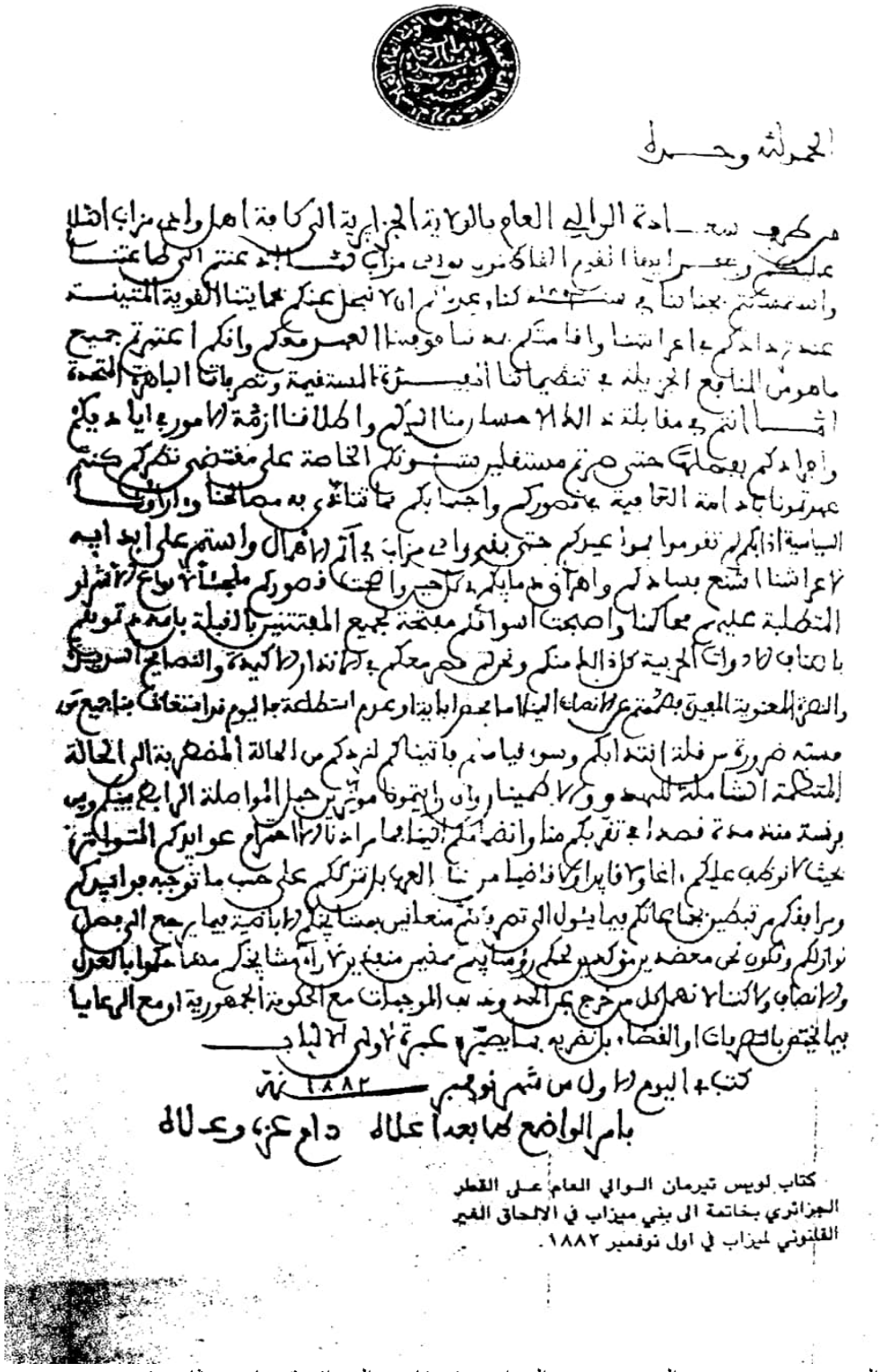


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم هذا نسخة كتاب
لحاجة ما نصه بعد الحمدلة من الحاكم الكبير بلاد الاغواط لسعادة السيد
القائد حاكم مزاب الى جماعة بني مزاب كبيرهم وصغيرهم كافة اهل ميزان وغر
داية وبني يسقن وبني نمره وتغزاره والملك والعطف السلام عليكم الاب والرحمة
والبركة اما بعد اعلموا ان الصعاد صاحبكم من ميزان باسم هود ومن
غرداية باسم عيسى بن موسى هرون داود باسم احمد ومن العلية بنوح بن الحاج احمد ومن
بنوره باكير بن علي ومن بني يسقن زرقون ومحمد بن الحاج وعمر بن داود
ومن العطف بكير بن سليمان ومن تغزارة بكير بن كاسي وعيسوة لدريب وحلنا
ببلاد الاغواط الرخيص وعلمنا على انكم اجتمعتم واتفقتم على ان تخضعوا الدولة
الفرانسوية وتحملوا ما اشترطه عليكم سيدنا المرشال والي العمالة
الجزايرية وتراهم دفعوا لنا الخيل صناع العادة وقبلناهم منهم وفرحنا كثيرا
بوفائكم على ذلك وهو عين اعادتكم وبه يكون صلاحكم وسعادتكم
وقابلت الوادكم المدكورين اعلاه باحسان وخطبتهم بالطيب كلام وذالك
لما ان ظهر لي ذكاء عقولهم وانهم بحر امنكم وما بعثوه فد بعثتموه وكررنا
عليهم الشرط التي هي للمرشال وقبلوا ذلك وهم ذاهبين يوم السبت لاجل ان
يدفعوا الخيل بانفسهم الى سعادة السيد القبارنور واليوم نعيد لكم الشرط
التي جعلها لكم عليكم سيدنا المرشال اجل اذ يذهب الوهم والغلط وهذا امر
ابرمناه ولا يحل ونقض العهد فسطر ناتحركه وذلك الشرط الملازمة
لكل سنة وهي التي جعلها سعادة القبارنور خمسة واربعين الدراهم انكم
والاخوانكم تاسبقراء ووقع عنكم الشر وسنطلب من جوده وحنانته
ان يحط عليكم شيء من ذلك وكونوا خداما طايعين ونحن نكون لكم حفظا
واماما يجلة رعيتنا يد السعي والعفاف ولايكونوا قمرقا على سلطنتكم وايضا
بان



المصدر: حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، ج1.

الملحق رقم 2 : نص كلمة الحاكم العام "ترمان" إلى المزابيين عند الإلحاق العسكري في 1882



كتاب لويس تيرمان الوالي العام على القطر الجزائري بخاتمة الى بني ميزاب في الالحاق الغير القانوني لميزاب في اول نوفمبر ١٨٨٢.

المصدر : حمو عيسى النوري ، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، ج1

الملحق رقم 3: نص رسالة البابا بروما إلى المطران لافيجري مباركا أعماله سنة 1868

رسالة البابا بيوس التاسع إلى المطران لافيجري

من البابا بيوس التاسع، إلى أخينا المبجل شارل مطران الجزائر، تحية وبركات رسولية عليكم.

قد تألمنا بشدة لنتائج الكوارث المتعددة التي أصابت أسقيفتكم، وإننا متحصرون مما آل إليه شعبكم من عناء ومتاعب يتحملونها، فإننا نحس من جهة أخرى بعدالة حقيقة عندما نجد وسط هذا العدد الهائل من المثبطات والعراقيل لمعانا لروح وفضيلة الاحسان النصراني، فتستقيم على الأعمال الخيرية المعتبرة النابعة من الدين والمجتمع، بواسطة تعبكم الرسولي، وكرمكم وشجاعتكم.

إنه بدون شك حسب الحكم الإلهي المطلق، يجب أن يلقن الإنجيل لشعبكم مثل جميع الشعوب ولكن تبقى عاداته وديانته وثوراته ضد أمتكم عقبة ضد التنصير، لا يمكن تجاوزها.

ولإزالة هذه العقبات فإن رب الرحمات أراد أن يجند العرب الذين ألمت بهم المآسي بواسطة أعمال البر النصرانية للفرنسيين، مما كشف لهم فضائل ديانة إلهية فجعلتهم يحبونها قبل أن يعرفوها.

لا تستطيعون أن تستجيبوا بشكل جيد وبفعالية أكبر للمقصد الصادر عن العناية الربانية إلا عندما تكونون في كل مكان وباستمرار، حيث تناديكم المجاعة والموت، وبحضور مساعديكم من أجل العمل على فتح ملاجئ للعجزة والمعوقين والأرامل والأطفال المشردين.

لا يمكن إذا أن نستمر في السكوت، وعلينا أن نقدم لكم من أجل هذه الخدمات الجليلة كل التي أنتم وقساوستكم المنصرون وأخوات أسقفيتكم أهل لها؛ هؤلاء الذين يشاطرونكم تفانيكم، لم يدخروا أي جهد من أجل راحة الفقراء وشهداء الإحسان و لم يترددوا في التضحية بأنفسهم من أجل أن ينقدوا إخوانهم.

يستحيل على هذا الشعب الذي برهنتم له بقانون الخير الذي سلمه لنا المسيح، أن لا يفهم بأنكم حقا خادموه وبأنكم مجدتم أباكم إلي في السماء، عندما علمتم إنجيله لهذه الأمة الكافرة بفصاحة أكيدة وبقوة أكبر مما يمكن أن تقوموا به عن طريق الكلام.

أما بالنسبة للأطفال الذين انتزعتموهم من مخالب الموت والذين تطعموهم وتكسوهم، وتعلموهم العادات الصالحة والعدالة والعمل في الحقول فكيف لا يحبون الأمة والديانة اللتين هم مدينون لها في كل شيء حق في وجودهم نفسه. كيف وهم الذين أصبحوا بواسطة العمل يتكفلون بعائلاتهم لا يستطيعون أن يقربوا بحضورهم وخدماتهم وأحاديثهم دهنيات أهاليهم من الديانة والشعب الذين قدما لهم العدد الكبير من الفضائل. فلا يتعلق الأمر بالديانة فقط، ولكن بفرنسا التي تخدمونها أنتم وأتباعكم، بواسطة خدمات الإحسان النصراني المؤثرة، وقمتم باجتذاب الأنفس إليها، وهو الأمر الذي لا يمكن القيام به بواسطة وديان من الدماء ومصاريف باهظة وسنين جهيدة من العمل.

واصلوا مهامكم بكل ثقة ولتكن العراقيل حافزا يزيد في شجاعتكم، لأنه وسط العراقيل تستمر الخدمات الإلهية وتكتسب القوة؛ وبمساعدة الرب سوف لن ينقصكم وأتباعكم العفو والقوة والوسائل المادية لبلوغ أهدافكم، نتمنى لكم هذه الأمور من صميم القلب، ونعمة الإله وعطفنا الخاص نقدم لكم البركة الرسولية أيها الأخ الموقّر ولجميع من يساند خدماتكم الجليلة، ولكل أسقفيتكم.

توقيع: البابا بيوس التاسع

Lavigerie Cardinale, Notice sur la Société des Missionnaire d'Afrique, dite pères blancs.

الملحق رقم 4: رسالة الأب مالفرايت إلى المسؤول عام للمؤسسة بالجزائر حول سير المهمة مزاب

R. P. Malfreyt.

Ghardaïa, 20 mars 1885.

Mon Très Révérend Père,

quoique nous n'y soyons pas depuis Le Mzab est définitivement devenu notre seconde patrie et, déjà attachés à ce pays encore infidèle, auquel nous devons longtemps, nous nous sommes apporter la Bonne Nouvelle de Notre-Seigneur. Ghardaïa, en particulier, ne manque ni d'intérêt, ni d'importance, surtout depuis l'arrivée de l'armée française.

Le pays est salubre, les moyens d'existence sont faciles et peu dispendieux, la population est très dense. Ce sont là d'excellentes conditions pour le développement de notre œuvre; et j'ai l'espérance que Ghardaïa sera un jour un point central, d'où les missionnaires se répandront dans tout le Sahara pour y remplir leur mission de paix et de charité.

Notre œuvre est à ses débuts, et déjà nous en recueillons les premiers fruits. Peu à peu les préjugés tombent, la vérité se manifeste, nos paroles et nos exemples agissent sur les esprits et sur les cœurs. A notre arrivée nous ne trouvions partout que défiance, et maintenant nous sommes appelés à visiter les malades à domicile nous sommes invités à entrer dans ces maisons, fermées aux plus proches voisins et souvent même aux membres de la famille.

Nous ne sommes plus des étrangers pour les Mzabites. Ceux mêmes qui naguère se montraient froids, pour ne pas dire hostiles, nous saluent aujourd'hui avec la cordialité la plus franche et la plus sympathique affabilité. C'est là le premier effet produit sur ces pauvres païens par le seul aspect de la vie chrétienne. Les Kabyles de l'Atlas que le commerce attire au Mzab, nous aident puissamment à dissiper les craintes et les soupçons de cette race naturellement défiante. Ils nous témoignent la plus grande confiance, se font une véritable fête de venir chez nous, et répètent à tous ceux qu'ils rencontrent le récit du bien que nos confrères font dans leur pays.

Nous abordons rarement les questions de religion car les gens nous ont pris d'abord pour des ignorants plus à plaindre qu'à blâmer.

Un d'eux, nommé Haman, maçon de profession, ayant travaillé quelque temps dans notre maison, fut touché de l'accueil bienveillant que nous avions pour tout le monde et de notre charité à l'égard de tous. Le pauvre homme ne soupçonnait pas l'action de la grâce dans les cœurs chrétiens. Il se hasarda donc à me dire un jour « Tu es bon, et tu entreras au ciel, si tu veux dire comme nous Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est le prophète de Dieu!»

Ne voulant pas effaroucher mon interlocuteur, je lui promis de doute parut scandaliser le pauvre Haman qui se mit à rire de pitié mais, bien persuadé du succès de son entreprise, il me promit de revenir avec ses livres. Au jour fixé, nous eûmes une longue conférence, dans laquelle je lui laissai exposer sa doctrine, lui faisant parfois d'amicales objections et me contentant toujours de ses réponses, quelle qu'en fût la valeur. L'existence de Dieu, la licéité de la vente des enfants esclaves, l'éternité des peines de l'enfer, etc., vérités et erreurs se succédaient pêle-mêle dans l'argumentation de mon docteur improvisé. Quand Haman eut fini, je me gardai bien de réfuter ses erreurs ce qui eût pu le froisser. Mais, je fis rapidement passer sous ses yeux les principaux dogmes de notre sainte religion la justice de Dieu, l'égalité des hommes devant Dieu, la mort, le jugement, etc. En entendant ces sublimes vérités, le disciple de Mahomet n'en pouvait croire ses oreilles. « Oh! oh! qui vous a appris tout cela? Je croyais que les chrétiens ne savaient rien » Alors, changeant le terrain, j'aborde l'Islamisme; et tout en me gardant bien d'attaquer aucune des croyances de mon adversaire, je lui montre que je connais sa religion mieux que lui-même. Pour le coup, c'était trop fort. Haman ne savait plus que pousser des exclamations « Oh! oh! je croyais que les chrétiens ne savaient rien S Depuis ce moment, Haman est pour nous plein de vénération et de dévouement; et si quelque païen se vante devant lui d'en savoir plus long que les chrétiens, il lui dit d'aller se renseigner un peu mieux, et il parle alors avec un ton de conviction qui donne à réfléchir aux plus ardents.

Notre réputation d'ignorance commence donc à se modifier. Aussi les bancs de notre école se couvrent-ils peu à peu; et nos petits élèves, vifs, espiègles, et amateurs des jeux, nous rappellent

les enfants de France. Parmi eux nous comptons les deux fils d'Abdallah, membre de la Djemaa de Ghardaïa. Cet homme influent est très bienveillant pour nous et nous rend de réels services. Nous avons trois petits négrillons sur lesquels nous fondons les plus belles espérances. Pleins de naïveté, d'entrain et de bonne volonté, ils nous charment par leur docilité et ce langage enfantin qui plaît tant au cœur tout en blessant les règles de la grammaire.

Quant à notre installation, elle est des plus primitives. Pendant de notre habitation qu'on serait tenté de croire antérieures à l'invention du rahot. Notre cuisine (car nous avons une cuisine) est montée sur un nouveau pied. Nous avons pu enfin mettre de côté notre batterie de campagne, et nous payer le luxe d'une cheminée.

Elle est bien défectueuse, il est vrai, mais onla trouve magnifique, quand on a passé plus d'un an sans pouvoir allumer d'autre feu qu'une lampe à pétrole. Cette mesure importante de service intérieur a été suivie d'une autre non moins utile. Nous avons trouvé de l'eau; et le frère Augustin nous prouve que l'eau du désert blancbit aussi bien que l'eau d'Alger. Jusqu'à présent, nous avions de sérieuses raisons d'en douter, par suite des préjugés de nos blanchisseurs qui, habitués à se servir de terre en guise de savon, croyaient suffisant de montrer ce dernier au linge pour le nettoyer. Il a plu à la Providence de nous envoyer une autre petite épreuve. Les provisions que vous nous avez expédiées d'Alger, sont restées longtemps en route; et nous avons dû nous réduire à un régime plus modeste encore qu'à l'ordinaire. L'épreuve toutefois n'a pas été de longue durée. Le frère Augustin, étant sorti pour faire quelques commissions, a rencontré le lieutenant de tirailleurs, qui s'est offert à nous fournir du pain et du vin à titre de vivres remboursables. Les officiers de l'armée française ne démentent pas leurs vieilles traditions. Ils ont toujours été les amis et les protecteurs des missionnaires, et je suis heureux de le constater une fois de plus. La proposition du lieutenant de Saint-Upéry ne pouvait être refusée. Dès le lendemain le régime de la galette était abandonné à la satisfaction générale; et nous accueillîmes le premier pain français avec autant de plaisir que les enfants accueillent le traditionnel gâteau des rois. Je suis allé remercier M. de Saint-Upéry, qui s'est montré charmant et m'a promis de venir nous voir à notre maison. Depuis ce jour nos relations continuent et produisent le meilleur effet sur la population de Ghardaïa. Nos fournitures sont enfin arrivées, et nous donnons à nos écoliers une demi-journée de vacances, afin de pouvoir ranger tous ces bagages. Loués par M. l'abbé Malaury, curé de Laghouat, à raison de 15 francs les £00 kilogrammes, les chameliers nous ont remis nos colis en bon état. Ils avaient même ramassé dans leur djebiras les adresses que la pluie avait détachées des caisses pendant le voyage. Après les avoir payés, nous leur proposâmes de transporter jusqu'à Laghouat un petit envoi destiné au T. II. Père Supérieur général. Les chameliers acceptèrent, mais ils partirent ensuite sans prendre ce qu'ils avaient promis d'emporter. Ce contre temps ne pouvait pas nous chagriner beaucoup les occasions de transport sont nombreuses, maintenant que les nomades vont chercher leur provision de grains dans le Tell. Le soir du même jour, Ali ben Adjaoud, armurier kabyle, établi à Ghardaïa depuis une dizaine d'années, nous amenait quatre de ses compatriotes, nouvellement arrivés au Mzab pour y vendre de l'huile. Ce sont de vieilles connaissances, parmi lesquelles j'ai vu surtout avec grand plaisir Ahmed ben Alzar, ancien cheik de Mouqua. Que de souvenirs se réveillent dans mon esprit! Nous causâmes longtemps du pays et de ses habitants, que deux années au Sahara ne m'ont point fait oublier.

Je vous ai déjà dit que le climat de Ghardaïa est sain, malgré des écarts de température brusques et parfois considérables aussi nos enfants se portent-ils à merveille. Je devrais cependant faire une exception pour l'un de ces enfants, atteint d'une ophtalmie qui menace de s'aggraver. J'ai conduit le petit malade au docteur militaire qui veut bien, toujours avec la plus exquise bonté, mettre sa science à notre disposition. L'ophtalmie est certainement la maladie la plus répandue ici les borgnes et les aveugles sont très nombreux dans la contrée. La tradition locale assure même que le nom de Bou-Noura, père de la lumière, a été donné par ironie à l'un des villages, parce que ses habitants avaient, presque tous, les yeux plus ou moins endommagés.

Quand on n'est pas trop fatigué, on peut faire, soit dans la ville, soit aux environs, de petites promenades parfois très instructives. C'est dans une de ces circonstances que j'ai pu me rendre compte, pour la première fois, de la nombreuse population enfermée dans la ville de Ghardaïa,

dont les masures, étagées ou plutôt amoncelées en amphithéâtre, ressemblent à un vaste amas de ruines. Il s'agissait de célébrer par un festin public et de solennelles réjouissances la mort de Sidi Aly, l'ennemi des Mzabites. Le rendez-vous était sur les bords de la rivière. Un peu avant le coucher du soleil les tolbas ou marabouts, en grande tenue, se mirent à réciter de longues prières. Bientôt, des trois portes de la ville donnant du côté de la rivière, sortirent des groupes serrés de Mzabites. Ils s'avançaient solennellement, portant d'immenses plats de couscous enveloppés avec soin dans des couvertures couleur de merga (sauce). Quand on fut arrivé près de la rivière, chacun alla déposer son fardeau sur le sable, en face du Chir-Baba. La foule augmenta rapidement; et un large banc de sable disparut bientôt sous une énorme quantité de plats de cous-cous. C'était le plat de bois traditionnel, ayant de 50 centimètres à un mètre de diamètre, et surmonté d'une véritable pyramide de cous-cous fumant. Au signal donné, le bruit cessa. Les convives se placèrent lentement; et mains et mâchoires se mirent à l'oeuvre avec une rapidité merveilleuse.

Assis sur la digue, je contemplais silencieusement ces milliers d'infidèles, et je regrettais de n'être pas un saint Pierre pour convier cette multitude à des agapes meilleures.

Que Notre-Dame d'Afrique éclaire ces infortunés et leur obtienne la grâce du salut!

Agréez, etc.

F. MALFREYT,

Prêtre missionnaire de Notre-Dame d'Afrique.

الملحق رقم 5 : التقارير اليومية كما تمت رقمنتها في موقع المؤسسة على الشبكة العنكبوتية

1884-04-00.21-10,1

Station de Ghardaïa (Mzab)

La station de Metlili, fondée en 1874 par le R. P. Paulmier, avait dû être abandonnée faute de Missionnaires, lors du départ de la première caravane pour l'Afrique équatoriale. Ce n'est que le 3 novembre 1883 que S. E. le Cardinal Lavigerie a pu envoyer de nouveaux ouvriers à cette portion si malheureuse de la vigne du Seigneur. Partis d'Alger les PP. Malfreyt, Kermabon et le Frère Augustin sont arrivés à Metlili, le 28 du même mois, après un voyage fatigant et monotone comme le pays que l'on traverse, mais finalement heureux. La maison de la Société, confiée pendant plusieurs années à la garde d'un Arabe, se trouvait en fort mauvais état: une partie était tombée, l'autre menaçait ruine. Que faire? Nous avons tâché de réparer le plus pressé et nous nous sommes installés de notre mieux, nous rappelant que le Fils de Dieu venant au monde avait choisi une étable pour demeure! – Je dois dire que j'ai été enchanté de l'estime et de la vénération qu'ont conservées les habitants pour leurs premiers Missionnaires en général, et en particulier pour le regretté Père Paulmier, connu dans le désert sous le nom arabe de Si Abdallah. Tout le monde en parle encore avec enthousiasme et j'ai failli être porté en triomphe pour m'être dit son frère: c'était à qui me verrait le premier, à qui me demandait si je connaissais Si Abdallah. Les Caïds sont venus nous voir, le Cadi aussi: ils nous ont apporté des dattes et des grenades.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,2

1 Décembre 1883

Nous nettoyons la maison, déballons nos caisses, les convertissons en meubles, et commençons à soigner les malades.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,3

5 Décembre 1883

Les Pères Malfreyt et Kermabon se rendent à une tente assez éloignée du Alcar pour voir un malade: ils apprennent, chemin faisant, que la maison a été habitée, pendant plusieurs mois, par une famille espagnole vivant aux frais de la tribu.

1884-04-00.21-10,4

10 Décembre 1883

Voyage à Ghardaïa; nous demandons l'hospitalité à Beni-Isguen, seconde ville de la Confédération, bâtie sur la rive droite de l'Oued-Mzab. On nous reçoit poliment dans la maison des hôtes où nous passons la nuit, après avoir pris notre repas du soir se composant d'œufs, de galette, de dattes et d'une tasse de café.

Le thermomètre marque 5° au-dessus de 0. Le lendemain, nous arrivons au but de notre voyage, voyons les autorités et rentrons à Metlili vers huit heures du soir.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,5

18 Décembre 1883

Le Frère Augustin est un peu indisposé. Les Pères Malfreyt et Kermabon vont soigner un des enfants d'Hamed-ben-Hamed qui était venu nous chercher.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,6

20 Décembre 1883

Le village est troublé par le chant de quelques marabouts qui sortent de la mosquée et se rendent au cimetière en répétant leur invariable refrain.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,7

23 Décembre 1883

Il pleut un petit peu: nous craignons que la maison ne tombe et ne nous ensevelisse vivants.

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

1884-04-00.21-10,8

25 Décembre 1883

Le Père Kermabon dit la Messe à minuit, il ne nous manque que le chant des anges pour nous croire à Béthléem. Nous chantons la Grand'Messe; l'harmonie laisse bien à désirer, mais nous ne nous en attristons pas trop, puisqu'il est dit dans l'office: “*Pax hominibus bonæ voluntatis*.”

© 2008 Missionari d'Africa - Via Aurelia, 269 C.P. 9078 I-00100 Roma – Italia – Chroniques trimestrielles et Rapports annuels 1879-1960

الملحق رقم 6 : التقارير اليومية مرقونة في أرشيف المؤسسة بروما

DIAIRE DE GHARDAIA

1 8 8 3

Mois de Novembre 1883

La station de Metlili, fondée en 1874 par leRév. Père Paulmier, avait dû être abandonnée faute de missionnaires, lors du départ de la première caravane pour l'Afrique équatoriale. Ce n'est que le 3 novembre 1883 que son Eminence le Cardinal Lavigerie a pu envoyer de nouveaux ouvriers à cette portion si malheureuse de la vigne du Seigneur. Partis d'Alger les premiers jours de novembre, les P.P. Malfreyt et Kermabon et le Frère Augustin sont arrivés à Metlili le 28 du même mois, après un voyage toujours fatigant, mais finalement heureux. La maison, habitée pendant plusieurs années par un Arabe, se trouvait en fort mauvais état; une partie était tombée, l'autre menaçait ruine. Que faire ? Nous avons tâché de réparer le plus pressé et nous nous sommes installés de notre mieux en nous rappelant que le Fils de Dieu venant au monde avait choisi une étable pour demeure. Du reste le Divin Sauveur daigne encore habiter avec nous et nous consoler par sa présence des peines et des tribulations inhérentes à la vie apostolique. Je dois dire aussi que j'ai été enchanté de l'estime et de la vénération qu'ont conservées les habitants de Matlili pour leurs premiers missionnaires en général et en particulier pour l'excellent et regretté père Paulmier, connu sous le nom arabe de Si Abd-Allah. Tout le monde en parle encore avec enthousiasme et j'ai failli être porté en triomphe pour m'être dit son frère. C'était à qui me verrait le premier, à qui me demanderait si je connaissais le P. Abd-Allah, si j'étais son frère. Les Caïds sont venus nous voir, ils nous ont apporté des dattes et des grenades, le Cadi est venu aussi et généralement les gens du Ksar se sont montrés bienveillants.

Mois de Décembre

1.- Les premiers jours, en réparations; nous ouvrons nos caisses et tâchons de nous installer. Quelques malades viennent se faire soigner, mais nous n'avons presque pas de succès; ce sont des maladies chroniques pour lesquelles la médecine se trouve impuissante.

2.- Continuation des travaux manuels; la table que nous avons apportée, nous servira d'autel en attendant que nous ayons relevé notre chapelle.

5.- Nous allons soigner une vieille femme dans une tente assez éloignée du Ksar; Nous apprenons que notre maison a été habitée pendant plusieurs mois par une famille espagnole.

10.- Les P.P. Malfreyt et Kermabon se rendent au Mzab et tâchent d'y trouver l'emplacement d'une Maison d'école. Ils voient le Commandant supérieur et le Chef du bureau arabe qui s'offrent à leur fournir un peu de pain.

11.- Les pères, partis hier, rentrent ce soir vers les huit heures; le frère Augustin gardait la maison; il est un peu indisposé.

16.- Nous chantons la messe à la nouvelle chapelle; le Bon Dieu tiendra compte de notre bonne volonté et non de l'harmonie.

18.- Nous allons voir un des enfants de Hamed ben Hamed qui était venu nous chercher. Mouley Touhami continue à arranger la maison avec une lenteur désespérante.

puisse-t'il nous combler de ses faveurs et éclairer les Infidèles qui nous entourent.

Mois de Février

1.- Nous recevons la visite de M. le Commandant des Tirailleurs; il est accompagné du lieutenant et du sous-lieutenant; il est venu à Ghardaïa et doit se rendre à Ouargla pour préparer les voies à M. Tirman dont on a annoncé l'arrivée pour le 20 courant.

2.- Fête de la purification, nous la célébrons intérieurement, occupés que nous sommes à la formation de notre classe.

3.- Dans la soirée, nous chantons vêpres et nous donnons le salut du St Sacrement.

4.- Depuis quelque temps . M. Massantié et ses compagnons passent souvent devant notre porte. Quel peut être le fait de leurs fréquentes promenades ?

5.- Hamou et son gendre amènent leurs trois enfants en classe; deux feront très bien

6.- Lakhedar, fils d'un ancien Caïd de Ouargla, ancien élève des pères, vient s'établir au Mzab afin de pouvoir continuer ses études; plusieurs adultes essayent d'apprendre le français; c'est un Arabe de trente cinq à quarante ans, il a été baptisé à la Trappe et y a passé six ans comme frère. Aurait-on jamais cru trouver un trappiste à Berrian ? Que ce soit le grain de senevé du désert !

7.- Congé alimentaire; plusieurs enfants viennent quand même pendant la journée pour causer ou s'amuser.

8.- Nous achetons au marché de Ghardaïa un peu d'étoffe afin de faire un petit tapis pour la chapelle.

9.- Comme tous les samedis, un grand nombre de Juifs viennent nous ennuyer sous prétexte de lire.

10.- Nous pouvons vivre en bons chrétiens, célébrer et assister à la Ste Messe.

11.- MouleyTouhami nous apporte quelques oeufs et une peau de mouton; nous lui payons le tout et l'engageons à venir nous voir de temps en temps.

12.- On a fait publier dernièrement dans les différentes villes du Mzab la défense de vendre des nègres, menaçant de l'amende et de la prison ceux qui seraient pris en contravention.

13.- La formation de notre classe se fait; quelques uns de nos anciens élèves se retirent, de nouveaux viennent les remplacer.

14.- Il y a courrier aujourd'hui; c'est un vrai bonheur pour les missionnaires du Sahara de recevoir de temps en temps des nouvelles du monde civilisé.

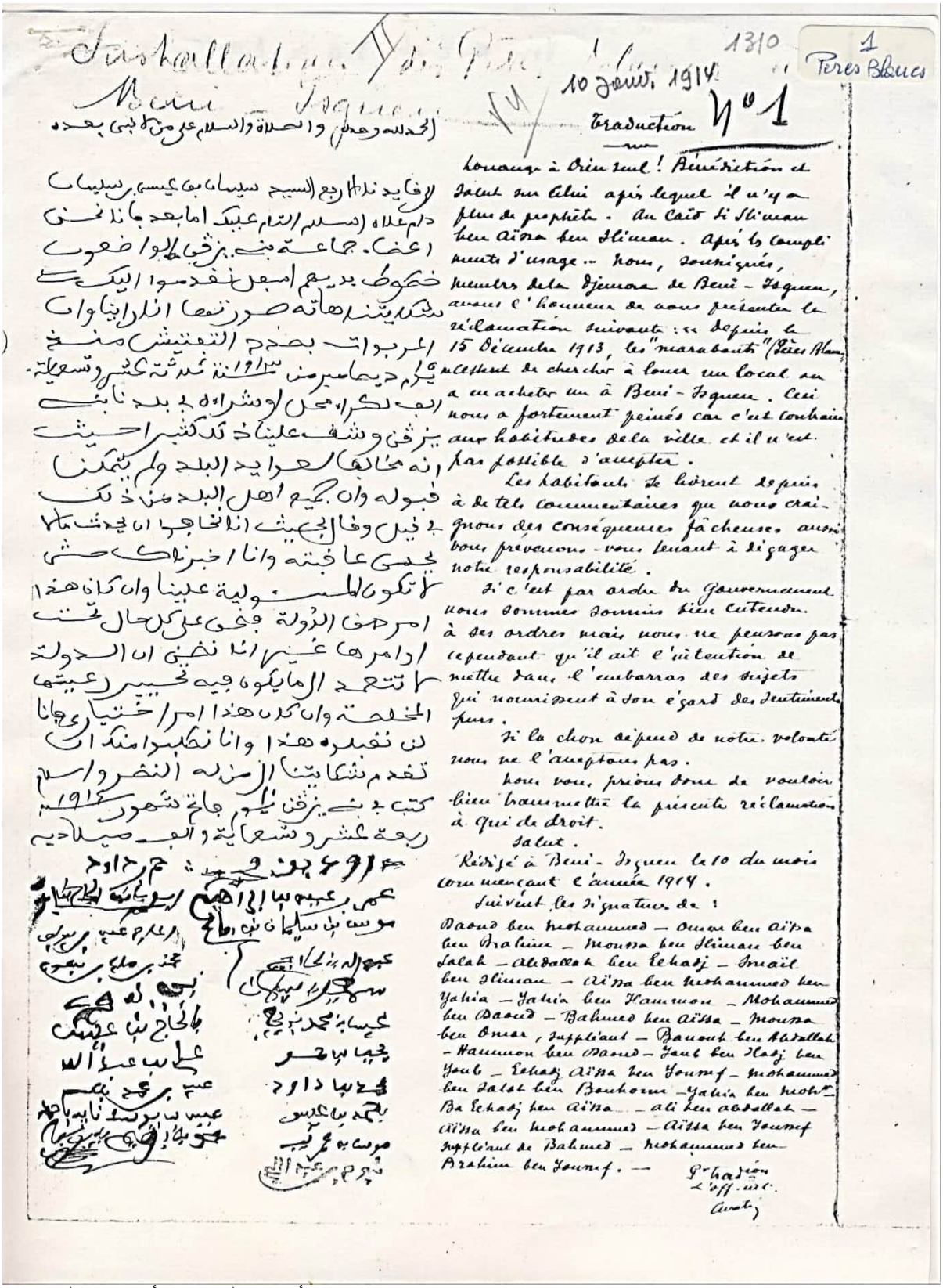
15.- Les bonnes dattes sont chères même à Ghardaïa; elles se vendent à raison de 4 francs le régime; la viande vaut 4 à 5 francs le soi-disant quartier de mouton; les oeufs, Ofr10 pièce; les pommes de terre Ofr30 le kilo.

16.- Les Beni Merzoug sont en fête; c'est une noce qui dure depuis trois jours; les élèves de cette fraction trouvent des raisons pour demander congé; il faut se montrer indulgent et faire semblant de les croire.

17.- Le tonnerre grande et il tombe une petite averse, mais cela ne dure que quelques minutes.

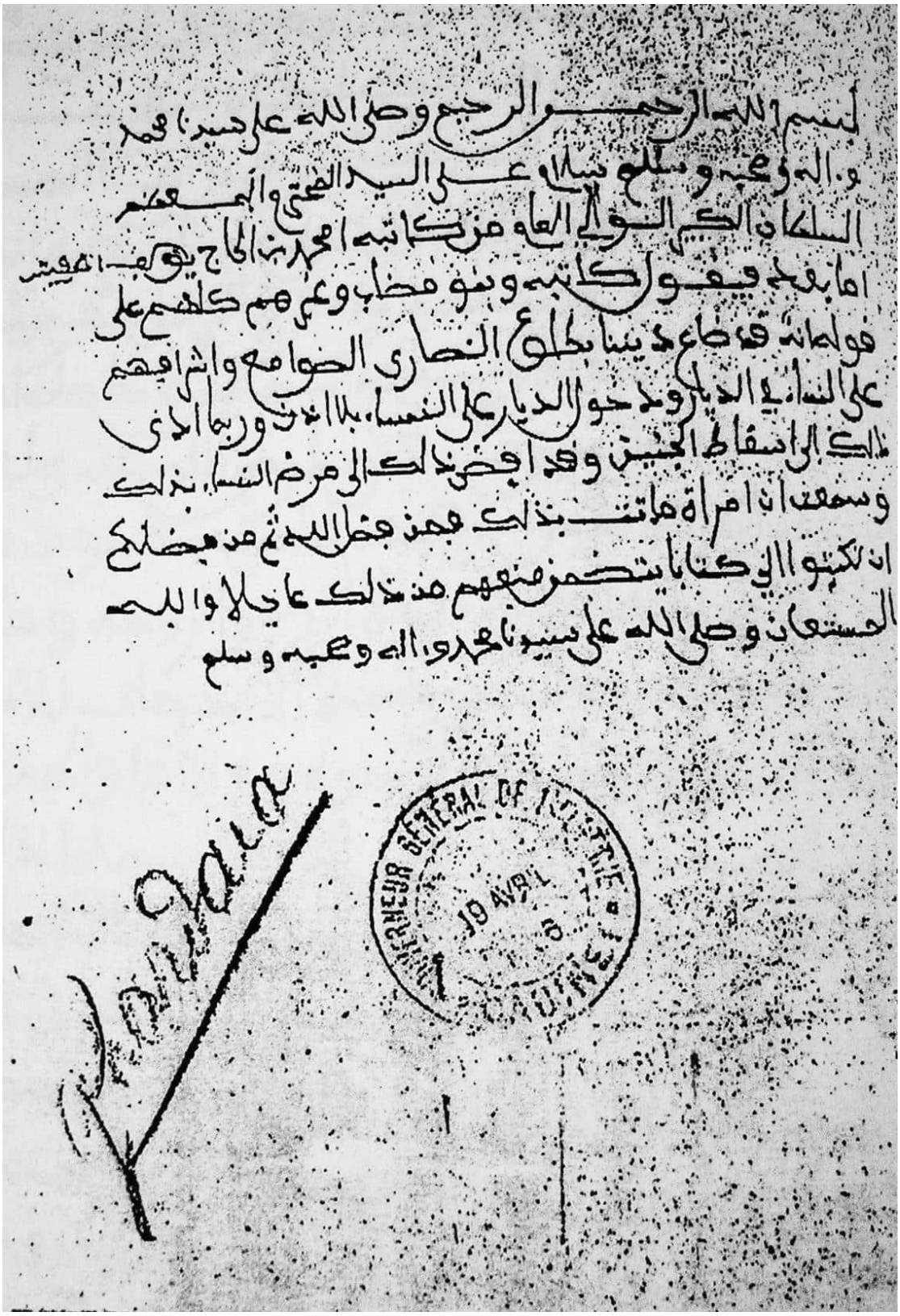
Source : dahbia Abrous : la société des missionnaires d'Afrique à l'épreuve du mythe bèrbère

الملحق رقم 7: رسالة جماعة بني يسجن إلى قايد مدينتهم يوضحون موقفهم وموقف الأهالي من المنصرين الذي يبحثون عن كراء منزل بمدينتهم.



من الأرشيف الخاص بالأستاذ عبد الرحمن حواش

الملحق رقم 8 : رسالة من القطب أطفيَّش رحمه الله إلى الحاكم العام يندد بالترخيص للمنصرين بالعمل الميداني



المصدر : من أرشيف الأستاذ عبد الرحمن حواش

الملحق رقم 9: رسالة موسى أق أمستان أمنوكل الأهقار إلى روني بازان



FAC-SIMILÉ DE LA LETTRE DE MOUSSA AG AMASTANE A M. RENÉ BAZIN.

نص رسالة موسى أق أمستان مرقونة :

الحم لله وحده ولا يوم سواه
في تمنغست في يوم خمسة أيام في شهر الله شعبان سنة
1338
إلى حضرة الأجل السيد العالم من العلام الفرنساوية السيد راني بازان الأكديمي عليكم ألف ألف سلام وألف تحية والإكرام من خديم الدولة الفرنساوية الطفل موسى أق أمستان أمنوكل نهكار فقد جائني جوابك فتسألني لنخبرك بأخبار الحبيب الكبير امتاع التوارق هكار نغمر فاعلم أن السيد المرابو شارل أنه كان يقدرني غاية الاقتدار رحمة الله عليه ويسكنه الجنة انشاء الله ان شاء الله فسنخبرك بأخباره التي سألتني عنها في حياته أولا أن الناس امتوع التوارق هيكار يحبونه غاية غاية في حياته ويحبون قبره كأنه حي لأجل النساء والصبيان والمساكين كل من جاء حدا قبره الله يعطى للمرابو الجنة لأنه كان نافع لنا في حياته أيضا. جميع الناس في هكار معظمين قبره كأنه حي بلا شك أيضا قد سألنتي لمحرك كيف الحال الذي حضر في مرض أمي يعني عم أخت أبي في مرض موتها فزارها هو والطبيب فتكلم له الطبيب بالفرنساوية بالمعنى أن الطبيب قرأ منها علامة الموت فقال لها المرابو شارل بتمهاق أكساظ مسيتنغ فمشا من عندها وغدو ماتت فرفعناها إلى قبرها وحضر معنا حين نصلوا عليها فوقف وهو متغير اللون على موتها فلما صلى معنا عليها فجعلنها في قبرها ووف على شط القبر ودفنها معنا وقال لنا أحسن الله عزاكم في تيهت والله يعطيها الجنة في قبرها وفي يوم من الأيام قبل موتها بعام فجائته في داره فلقته يصلي ووقف ورائه حتى تم صلاته وقالت له حتى أنا كنت فدعى الله وقت الذي تصلى فيه أنت. وأما اسم المرابو دائما حين في أهكار والناس الذي كان يخدم معهم الخير يعني ناس فكل معظمين قبره كأنه حي وهذا من الأخبار التي سألتني عنها بلا غلاط وهذا جوابي إليك لياتيك على يد السيد القبطان مينيي الحاكم الكبير علينا والله يبارك في عمرك
ودمت بخير والسلام.

(ملاحظة: النص منقول من الأصل دون تصرف)

الملحق رقم 10 : صور لصفحات من قاموس دوفوكو تماهاق–فرنسية

ăoe Âdem our en iemous haret ⁄ K. [est] une pers. n'étant pas une ch. (K. est qlq'un qui n'est rien ; K. est qlq'un qui ne vaut rien ; K. est qlq'un qui n'est bon à rien)).

—ănebbiddel ‖VIII sm. n.d'é. prim ; φ (pl. inebbouddâl ‖VIII ; fs. tănebbiddelt ‖VIII+, fp. tinebbouddâl ‖VIII+), dax nebbouddâl, dax tnebbouddâl ‖ m. s. q. la pr.

IVIIebden IVII va. prim ; conj. 26 "ekken" ; (ibdĕn, ibdân, éd ibden, our ibdin) ‖ paralyser (partiellement ou totalement) ‖ a aussi les s. pas. et prom. "être paralysé" et "se paralyser" ‖ p. ext. "paralyser [un membre] (en en coupant les tendons)". Souvent on coupe les tendons des jambes de pièces de gibier prises à la chasse, en attendant qu'on les égorge ; qlqf. on coupe les tendons des mains des voleurs.

—sebden IVIIO va. f. 1 ; conj. 150 "sekken" ; (issĕbden, issîbden, éd isebden, our issebden) ‖ faire paralyser ‖ se c. av. 2 acc. ‖ s'ign. aussi "paralyser" ; d. ce s. est syn. du prim. au s. act : ‖ a t. les s. c. à c. du prim. au s. act.

—bâdden IVII va. f. 5 ; conj. 220 "kâssen" ; ~~paralyser hab. ‖ a aussi les s. pas. et pron. ‖ a t. les s. c. à c. du prim~~ (ibâdden, our ibedden) ‖ paralyser hab. ‖ a aussi les s. pas. et pron. ‖ a t. les s. c. à c. du prim.

—sâbdân IVIIO va. f. 1. 7 ; conj. 230 "tarejâh" ; (isâbdân, our isebdin) ‖ faire hab. paralyser ‖ se c. av. 2 acc. ‖ a t. les s. c. à c. de la f. 1.

—ăbadan IVII sm. nv. prim ; φ (pl. ibedânen ,IVII), dax bedânen ‖ fait de paralyser ‖ a aussi les s. pas. et pron. "fait d'être paralysé" et "fait de se paralyser" ‖ a t. les s. c. à c. du prim.

—ăsebden IVIIO sm. nv. f. 1 ; φ (pl. isebdînen ,IVIIO), dax sebdînen ‖ fait de faire paralyser ‖ a t. les s. c. à c. de la f. 1.

—ănebdoun IVII sm. n. d'é. prim ; φ (pl. inebdân IVII ; fs. tănebdount TVII+ ; fp. tinebdân IVII+), dax nebdân, dax tnebdân ‖ hom. (ou an.) paralytique.

—bedden IVII sm. (pl. beddenen ,IVII) ‖ paralysie.

—bedna IVII sf. (s. et pl.) ‖ nom d'une vipère d'une certaine espèce ‖ ainsi nommée parce que sa morsure ne tue pas, mais produit la paralysie et le dessèchement du membre mordu ‖ v. ‖+ : Ketla ; ⵄⴰⴽⵎ eqqem, xaqma.

ⵄⵍⵉⵎⵄⵍⵉⵎebedeiger ⵄⵍⵉⵎ sm. φ (col. s. n. d'u.) (pl. de dim. ibedeigeren ⵄⵍⵉⵎⵄⵍⵉⵎ), dax ăbedeiger (ĕbedeiger), dax bedeigeren ‖ nom d'un fard brun rouge ‖ l'ébedeiger se fabrique avec l'écorce de l'arbre appelé tămat ; les fem. s'en fardent des parties du visage.

en remplacement de ⵄ , ⵉ , ⵊ , ⵏ .

4° +ⵄ devient ordinairement ⵃ

+ⵉ " en certains cas ⵛ

+ⵍ " " " " ⵏ

Il arrive donc quelquefois, dans des mots contenant ⵃ, ⵛ, ⵏ, que ces lettres n'appartiennent pas à la racine, mais sont en remplacement de ⵄ, ⵉ, ⵍ, suivis de +.

5° ⵍⵙ devient souvent ⵣ

ⵍⵜ " " ⵣ

Il arrive donc quelquefois, dans des mots contenant ⵣ, que cette lettre n'appartient pas à la racine, mais est en remplacement de ⵙ ou de ⵜ suivis de ⵍ.

6° ⵠⵄ devient souvent ⵠⵃ

Il arrive donc quelquefois, dans des mots contenant ⵠⵃ, que ⵃ n'appartient pas à la racine, mais est en remplacement de ⵄ.

7° Les lettres consécutives nb se prononcent quelquefois à tort mb. Par suite d'incorrections de ce genre dans la parole ou l'écriture, il peut se faire qu'on cherche dans le Dictionnaire à mb ce qui est à nb. Chercher à nb ce qu'on ne trouve pas à mb.

IX. — Pour retrouver un même mot touareg sous les orthographes différentes des dialects de l'Ăhaggar, de l'Ăir et de l'Ădṛaṛ, il est bon de se rappeler ceci :

1° Le ⵍ est très rare dans l'Ăir et l'Ădṛaṛ. La plupart des mots écrits dans l'Ăhaggar par ⵍ s'écrivent dans l'Ăir et l'Ădṛaṛ par ⵖ ; quelques uns s'y écrivent par ⵣ.

2° Le ⵜ est rare dans l'Ăir et l'Ădṛaṛ. La plupart des mots écrits dans l'Ăhaggar par ⵜ s'écrivent dans l'Ăir et l'Ădṛaṛ par ⵛ.

3° Le ⵊ n'est pas employé dans l'Ăir et l'Ădṛaṛ de la même manière que dans l'Ăhaggar. La plupart des mots écrits dans l'Ăhaggar par ⵊ s'écrivent dans l'Ăir par ⵛ et dans l'Ădṛaṛ par ⵙ ; quelques uns d'entr'eux s'écrivent par ⵣ.

X. — Le dialecte de l'Ăhaggar contient des mots empruntés à l'arabe. La plupart sont d'introduction récente, inconnus à une partie de la population, et peu usités. Ces mots, en passant dans la langue de l'Ăhaggar, subissent habituellement les transformations suivantes :

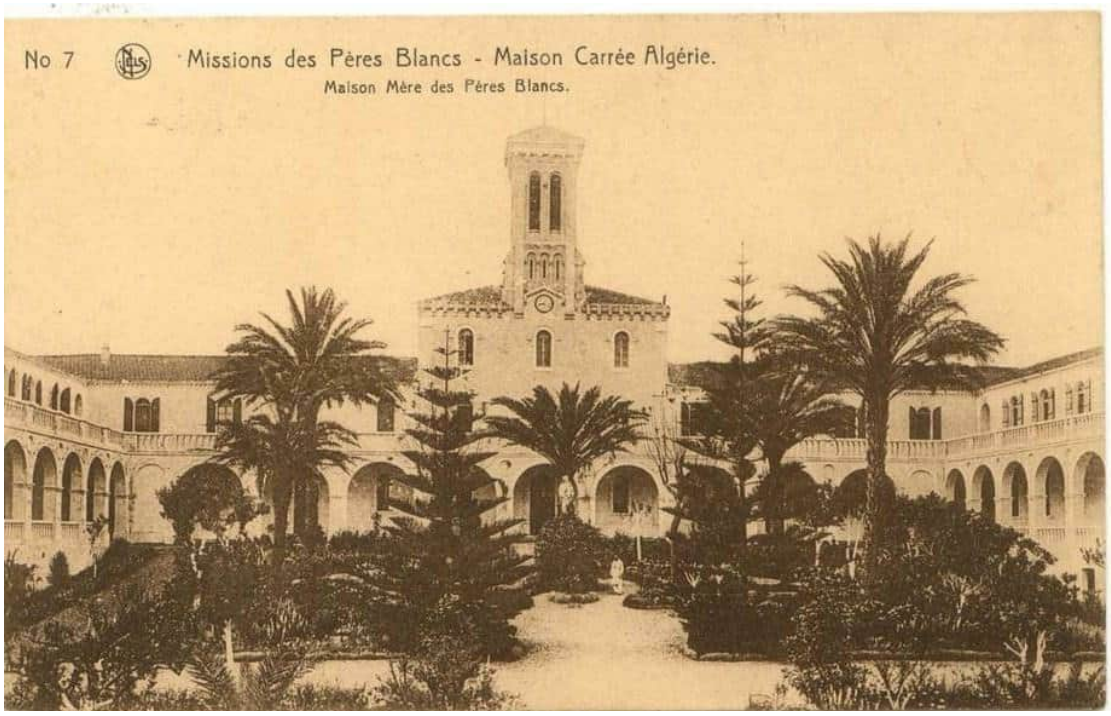
صور لصفحات من قاموس دوفوكو طارقية–فرنسية لسان الأهقار في 3 أجزاء ضخمة.

Dictionnaire Touareg-français Dialecte De L’ahaggar

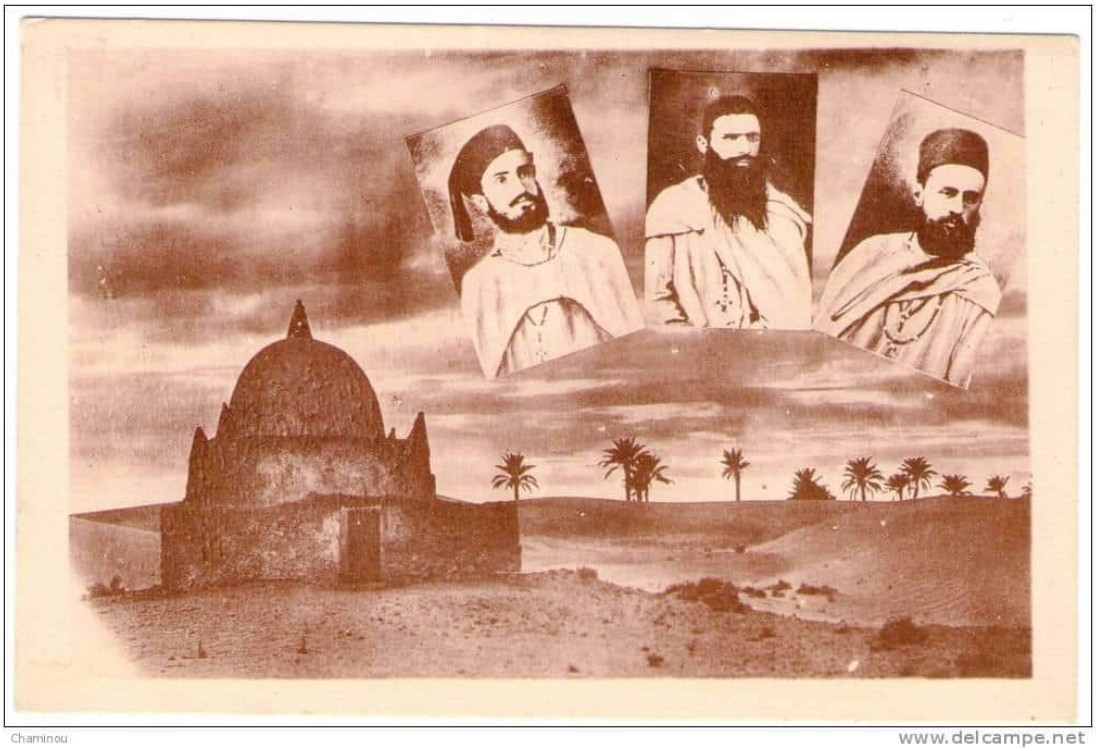
الملحق رقم 11: قائمة بأسماءالمسؤولين الذين شغلوا منصب أسقف أو محافظ بابوي على محافظة الصحراء بين سنوات (1868-1916)

- المطران لافيجري 1868-1891
- أناطول تولوت 1891-1897
- أغسطين هاكارد 1897-1901
- شارل غيران 1901-1910
- هنري برادو 1910-1916

ملحق الصور 01 : الدار المربعة ورواد المنصرين بالصحراء



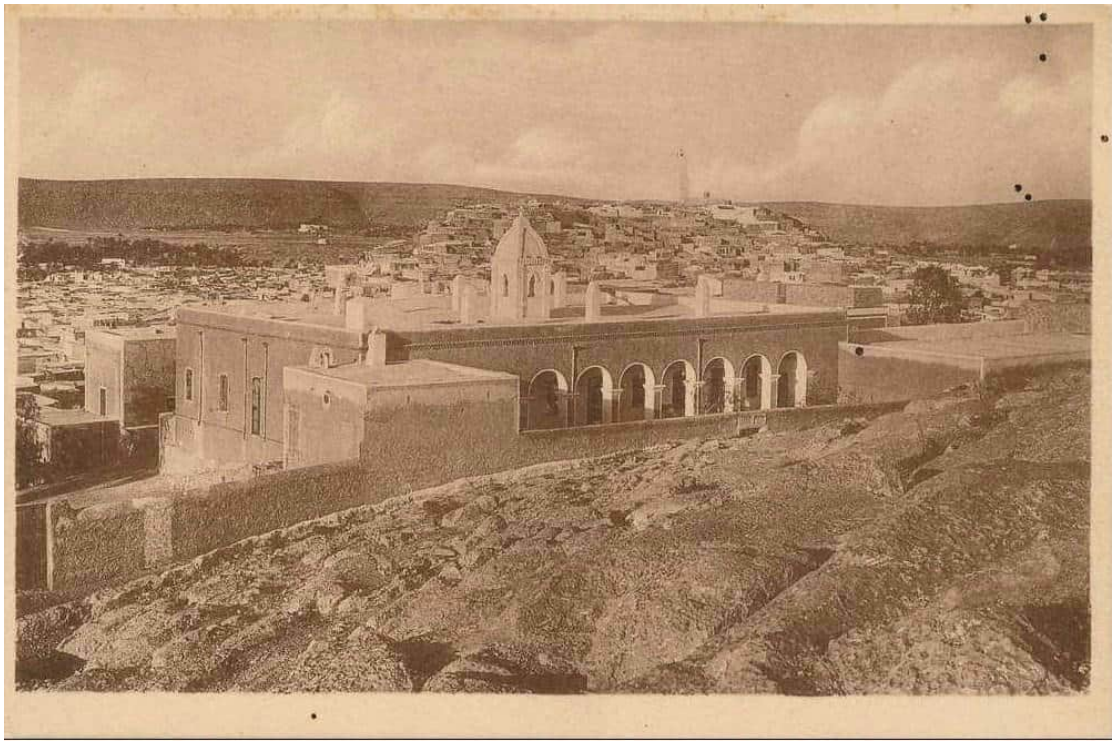
مترل مقر جمعية منصّري إفريقيا (الدار المربعة) بالحراش –الجزائر



الآباء المقتولين في أول رحلة للمنصرين بالصحراء : منوري – بوشاند – بولمبي

المصدر: موقع ديلكامب

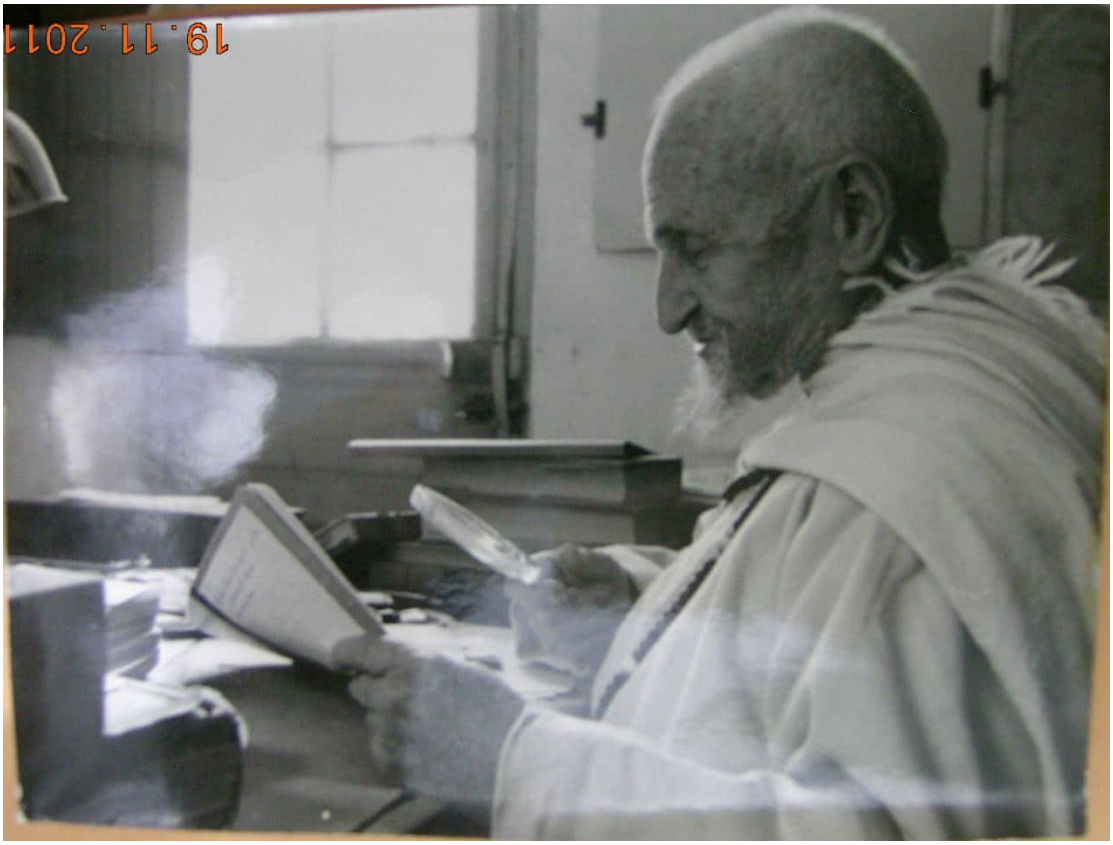
ملحق الصور 02 : صور لمهمة مزاب



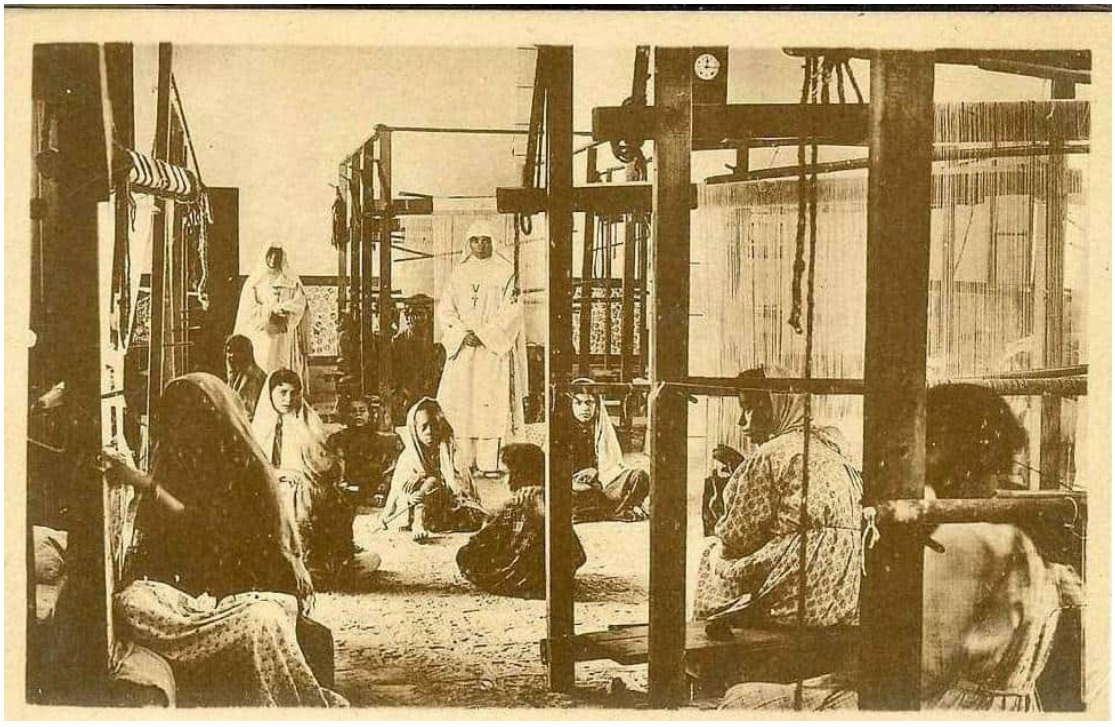
مترل مهمة مزاب – غرداية المبني على ربوة "تِضَفْتْ" بجنبه المستشفى الأهلي، والمدرسة إلى الأسفل



مدرسة الآباء المنصرين من داخل مترل تضفت



المنصر الأب لويس داود في مكتبة منزل المهمة.



مشغل الأخوات النصّرات قرب الحي اليهودي

المصدر: أرشيف الصور للأستاذ عبد الرحمن حواش

ملحق الصور 03 : صور من مهمة دوفوكو في تمنغاست



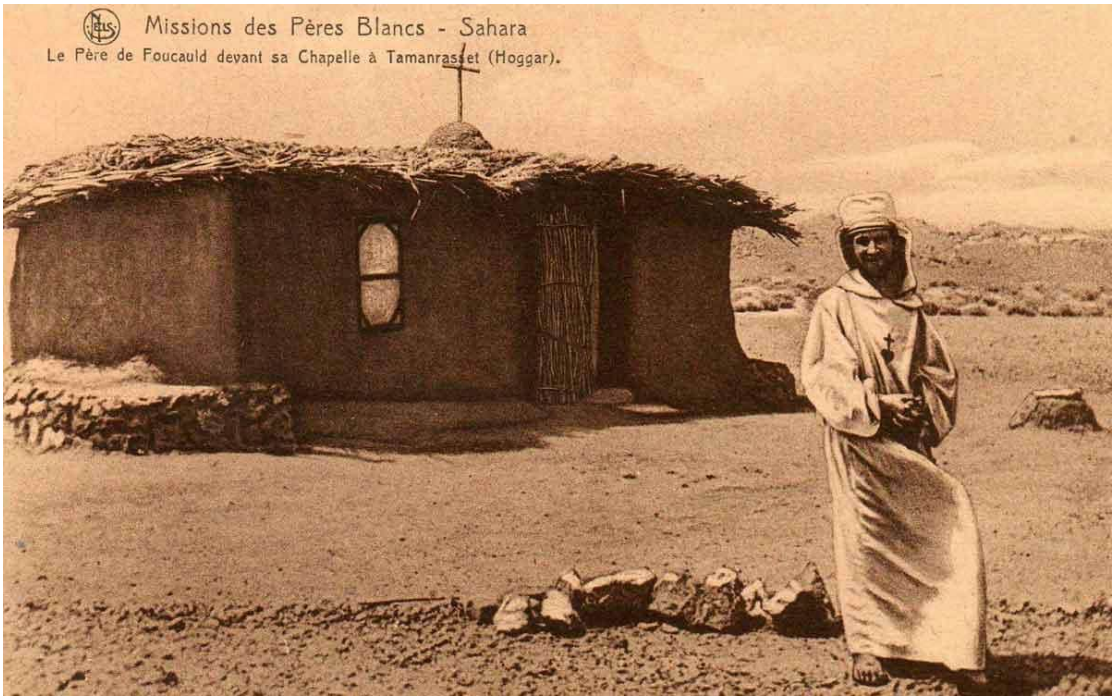
دوفوكو مع الملازم لابرين



قبر دوفوكو بالقرب من منزل مهمة القولية



دوفوكو في مستقره بتمنراست



منزل مهمة دوفوكو بتمنراست

المصدر : موقع ديلكامب

ثانيا : ملحق الخرائط

ملحق الخرائط 01 : مشروع سكة الحديد العابرة للصحراء في سنة 1890

ملحق الخرائط 02 : وادي مزاب بقصوره الخمسة

ملحق الخرائط 03 : خريطة بأهم الواحات الصحراوية والحصون الصحراوية

ملحق الخرائط 04 : مهمة مؤسسة منصري إفريقيا في الصحراء إلى غاية 1900

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1. ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد السابع، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1995.
2. اسماعيل العربي، **تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
3. اطفيش امحمد بن يوسف ، **تيسير التفسير**، تحقيق ابراهيم طلاي.
4. ـــــــــــــــ ، **رد الشَّرُود إلى الحوض المورود**، طح 1320هـ.
5. ـــــــــــــــ ، **رسالة شافية**، مخطوط، نسخة لدى الباحث.
6. ـــــــــــــــ ، **مختصر تيسير التفسير**، تحقيق الشيخ ابراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية، 2003.
7. ـــــــــــــــ ، **همیان الزاد إلى دار المعاد**، المطبعة السلطانية، زنجبار، 1259هـ/1878م.
8. بابا عمي محمد موسى ، **حدد غايتك**، مكتب الدراسات العلمية، 2005.
9. بكير بلحاج واعلي، **الإمامة عند الإباضية بين النظرية والتطبيق مقارنة مع أهل السنة والجماعة**، المطبعة العربية، غرداية، 2001.
10. جهلان عدون ، **الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش**، نشر جمعية التراث، القرارة، [د.ت].
11. الحاج سعيد يوسف بن بكير ، **تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية**، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
12. خليل عماد الدين ، **أحقاد وأطماع التبشير في إفريقيا المسلمة**، المختار الإسلامي، ط2، القاهرة، 1979.
13. ديار بكر لي عبد الرزاق ، **تنصير المسلمين بحث في أخطر إستراتيجية طرحها مؤتمر كلورادو التنصيري**، دار النفائس، ط1، الرياض، 1989
14. الزركلي خير الدين ، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط11، بيروت، 1995.
15. سماوى صالح عمر ، **العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بمزاب**، المطبعة العربية، ط1، غرداية، 2005.
16. الشتري محمد بن الناصر ، **الهجمة التنصيرية على البلاد الإسلامية**، دار الحبيب، ط1، الرياض، 2003.
17. شلبي عبد الجليل ، **الإرساليات التبشيرية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، [د.ت].
18. صالح محمد عثمان ، **النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير**، مكتبة ابن القيم، ط1، المدينة المنورة، 1989.
19. الصلابي محمد علي ، **الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا**، مطبعة الصحابة، ط1، الشارقة، 2001.
20. طلاي ابراهيم محمد ، **مزاب بلد كفاح**، دار البعثة، قسنطينة، 1970.
21. القشاط محمد سعيد ، **الصحراء تشتعل 1899–1931**، دار الملتقى للطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 1998.
22. الكحلوت عبد العزيز ، **التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء**، منشورات كلية الدعوة الإسلاميةن ط2، طرابلس، 1992

23. اللجنة العلمية لتحرير تاريخ إفريقيا (في اليونيسكو)، **تاريخ إفريقيا العام، المجلد السادس القرن التاسع عشرة في إفريقيا حتى ثمانيناته**، إشراف ج. ف. آدي أجاي، طباعة حسيب درغام، لبنان، اليونيسكو 1996.

24. مجموعة من الباحثين، **م. أ. إب، قسم المغرب**. مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، نشر جمعية التراث، القرارة، ط1، 1999.

25. النملة علي ابراهيم ، **التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته**، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1993.

المراجع الأجنبية:

26. Amat Charles, **Le Mzab & les M'zabites**, Challamel & C^{le} éditeurs, Paris, 1888.
27. Azin Paul, **Les Grand Soldats de l'Algérie**, publication du comité national métropolitaine du centenaire de l'Algérie, 1930.
28. Baptiste Piolet Jean, **Nos Missions & Nos Missionnaires**, Librairies Blaud & Cle, Paris, 1904.
29. Barail (Du) François-Charles, **Mes Souvenirs**, Tome deuxième, 1851-1864. E. Plon Nourrit Imprimeur-éditeurr, Paris 1898.
30. Barrès Maurice, **faut-il autoriser les congrégations ?**, Librairies Palm, 3e éd, Paris, [s.d].
31. Bathmann Paul, **De la cession de biens en droit Romain de la condition des personnes en Algérie en droit français**, thèses pour le Doctorat à la faculté de droit, Nancy, 1894.
32. Baunard Louis, **Le Cardinal Lavigerie** , t1, Librairie Ch. Poussielgue, paris, 1869
33. Bazin René, **Charles De Foucauld Explorateur du Maroc & Ermite de Sahara**, Libraire Plon & Plon-Nourrit Imp-éd, Paris, 1921.
34. Bernard Augustin & N. Lacroix, **La Pénétration Saharienne 1830-1906**, Imp. Algérienne, Alger, 1903.
35. Bouneffen E. L., **L'Afrique Politique en 1900**, Henri Charles-lavayelle éditeur, Paris, 1900.
36. Brébion, **Le R. P. Alexis Pouplard des Pères Blancs 1854-1881**, Imprimerie de La Mission d'Afrique, Alger, 1904.
37. Charmetant (Père), **Les Peuplades Kabyles et les tribus nomades du Sahara**, Des presses à vapeur de La Mineve, Montréal, 1875.
38. Claude Blanguemon, **Le Hoggar**, Arthaud Lib, 1er, Paris, 1955.
39. Constantin (Père), **Alger et Timbuktu (Etude sur le commerce Transsaharien)**, challamel Aimé éditeur, Paris, 1885.
40. Cuperly Pierre**, Aperçu sur l'histoire de l'Ibadisme au m'zab,** Al-risala i-safiya fi ba'd tawarkh ahl wadi mizab de Med atfayyas.[s.d.i],[s.l.i].
41. Duveyrier Henri, **Les touareg du Nord & exploration du Sahara**, Challamel aîné, Paris, 1864.
42. Eugène Jung, **Le Réveil de l'Islam et des Arabes**, les presses modernes, Paris, 1933.
43. Humbert Jean-Charles, **Fort & Bordj de l'extreme sud du Sahara Algérien (1892-1903)**, edition Jacques Gandini, Paris, 1993.
44. Inconnu, **Le Voyage de leur majesté en Algérie**, septembre 1860, Au Typographie de Henri plon, Paris, 1860.
45. Julien Charles-André, **Histoire de l'Algérie Contemporaine**, edition Casbah, t3, Alger, 2004.

46. Lavigerie (cardinale) Charles, **Lettre à un séminariste de Belgique sur La Société des Missionnaires d'Afrique**, Bureau de l'Ouvre des Ecoles d'Orient, paris, 1880
47. **———————————, Notice sur La Société des Missionnaires d'Afrique, les Pères Blancs,** Noviciat des Missionnaires d'Afrique Mison Carrée, Alger, 1886.
48. Lovet Luis-Eugène, **Les Missions Catholiques au 19e siècle**, Société de Saint Augustin, Paris, [s.d].
49. Martinière H. M. De la & N. Lacroix, **Documents Pour Server à l'Etude du Nord Ouest Africain**, éd Gouvernement général de l'Algérie, 1897.
50. Melia Jean, **Ghardaia**, Imprimerie A. Mareteaux et Pacto, Paris, 1930.
51. Mercher M. (chef de la mission), **Mission de Ghadamès, rapport officiel et document à l'appui**, typographie declaux, Alger, 1863.
52. Meynier (Gle) O', **La pacification du Sahara & la penetration Saharienne (1852-1930)**, dans Cahier du centenaire de l'Algérei, publication du comité national métropolitain du centenaire, Alger, 1830.
53. millot (Abbé), **La civilisation chrétienne en Algérie**, Imprimerie Victor Coupy, Paris, 1877.
54. Nawaw, Yahyá ibn Šaraf al- (1233-1277). **Chronique d'Abou Zakaria**. Traduite & commenté par Emile Masqueray, Impimerie de l'Association ouvrière v/ Aillaud, Alger, 1878.
55. Notables (Les) du Guerara, **Plainte des Mozabites d'El-Kerara** (district de Ghardaïa). 1889

56. *Pères (Les) Blancs**, chroniques trimestrielles (1879-1909)**, rapports rassembler des extraits de journal des station. Fonds numériser du Société des Missionnaires d'Afrique. Rome.*
57. Peytral J. & Marie Peytral, **élément simplifiés de chronologie algérienne, à l'usage des écoles et des familles**, Libraire classique Adolphe, Alger, 1898.
58. Rinn Louis, **Marabouts et khouan étude sur l'islam en Algérie avec une carte indiquant la marche, la situation et l'importance des ordres religieux musulmans**, Adolphe Jordan, Alger, 1884.
59. Robin Commandant , **Le Mzab et Son Annexion à La france**, Adolphe Jourdan Imprimeur-éditeur, Alger, 1884.
60. Rolland Georges &Philebert, **La France en Afrique et le Transsaharien**, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1890.
61. Rolland Georges, **Le transsaharien Un an après**, Augustin Challamel éditeur, Pris, 1891
62. Roy M. J., **Histoire Abrégée des Missions Catholiques**, dans les déverses parties du monde depuis la fin du XVe siècle jusqu'à nos jours, Ad Mame & Cb imprimeurs-libraires, tours, 1858.
63. Sabatier Camille, **Touat-Sahara & Soudan, Etude Géographie Politique et Militaire,** société d'éditions scientifiques, Paris, 1891.
64. Sévestre Em.**, L'Histoire le Texte et la Destinée du Concordat de 1801**, Imprimerie Deslis, 2e éd, Tours, 1905.
65. vallat Gustave**, A La Conquête du Continent Noir (mission militaire et civiles), de 1892 à 1900 exclusivement d'après des documents officiels**, J. Lefort Imp édt, Lille, 1901.
66. **Voyage (Le) de leur majesté en Algérie**, septembre 1860, Au Typographie de Henri plon, Paris, 1860.

67. Vuillot Paul, **L'Exploration de Sahara (étude historique & géographique)**, Augustin challamel éditeur, Paris, 1895.

المجلات والجرائد:

68. <<**Le Charles De Foucauld ermite au Sahara**>> en l'Ami du Clergé Paroissial, supplément à Ami du clergé, N35, Langres, 1931/08/27.
69. Ami du clergé paroissial : **supplément à L'Ami du clergé, Ami du Clergé**, N35, [s.n.], Langres, 1931/08/27.
70. **bulletin de la société de géographie de paris**, série 4, t18, an 1858 & série 5, t5, an 1863.
71. Gouvernement general de l'Algéie, **Rapport sur les Ouvres Spéciales Intéressant les Indigène**, Victor Heintz, Imprimeur, Alger, [s.d].
72. Lettre du père Guérin en **Les Missions catholiques** : bulletin hebdomadaire de l'Œuvre de la propagation de la foi, Œuvre de la propagation de la foi, Lyon. t35, 1903
73. Ministère des affaires étrangères, **Correspondance et documents relatifs à la convention franco-anglaise** [de Paris] du 14 juin 1898,1890-1898.
74. Mission d'Afrique des Pères blancs, **Bulletin - Mission des Pères Blancs**, 1903, t35, Paris, 1903.
75. Numa Broc: << **Les Français Face à l'Inconnu Saharienne; géographes, ingénieurs & explorateurs, (1830-1881)**>>, in Annales de Géographie, t96, n° 535, 1987.
76. Quotidien **Le Figaro**, 26/01/1891.
77. Quotidien **Le Temps,** <<**Affaires Coloniales, Algéries**>>,39m An, n° 13754, 29/01/1899. & plus de dates.
78. Zimmermenn Maurice: <<**La mission Foureau-Lamy, la question du Transsaharien**>>, in Annales de géographie, T8, n° 38, 1899.
79. Holcinger Donald C.:<<**Trade Routes of The Algerian Sahara in the XIXth century**>>, in Revue de l'Occident Musulman & de la méditerranée, n° 30, 1980.

لقاءات شخصية:

80. لقاء مع الأب كرجشستوف، مسؤول محطة المؤسسة التنصيرية بغرداية، بداية ديسمبر 2011.
81. لقاء مع السيد الحاج سعيد يوسف من مدينة العطف. سنة 2009.
82. لقاء مع السيد قيوم مشال، رئيس المركز الأسقفي بالجزائر. مارس 2011 .
83. لقاءات متعدد ة مع الأستاذ عبد الرحمن حواش، باحث في التراث والتاريخ المحلي.
84. لقاءات مع السيد جان بيار هنري، مقتصد بمطرانية الجزائر والمسؤول السابق عن الأرشيف. جوان 2011.

الفهارس العامة

- فهرس الفرق والجماعات والملل
- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن
- فهرس الموضوعات

1__ فهرس الفرق والجماعات والملل

أخوات القديس سان فانسون دي بول،60 ،57

أخوات القديس فانسون دي بول،62 ،68

الإخوة الاسبتاريين،86

الإخوة المسلحين،86 ،87

الإخوة اليسوعيين،81

الإسلام،50 ،55 ،57 ،58 ،65 ،92 ،110 ،112 ،121 ،124 ،126 ،127

أولاد سيدي الشيخ،19 ،20 ،27 ،28 ،29 ،31 ،41 ،43 ،86

أولميدن،127

بروتستانتية،64

الترابسيت،62 ،101 ،131

جمعيات نساء الرحمة،57

جمعية رفقة المسيح،68

جند الصحراء،86

الدومينيكان،55 ،56

السنوسية،46 ،85 ،126 ،127 ،128 ،129

طوارق،20 ،23 ،24 ،27 ،28 ،29 ،44 ،46 ،83 ،84

الطوارق،23 ،24 ،27 ،28 ،43 ،44 ،46 ،48 ،91 ،127 ،128 ،129 ،131 ،132 ،134 ،135 ،136

الفرانسيسكان،55

فرسان القديس يوحنا،86

فرسان مالطا،86

قساوسة سان سيلبس،68

الكاثوليكية،49 ،50 ،66 ،70 ،80 ،92

كاثوليكية،60 ،79

الكنتيين،47

اللازاريت،57 ،62

مجمع نشر العقيدة،56 ،57 ،65

المسيحية،50 ،51 ،53 ،54 ،56 ،57 ،58 ،62 ،70 ،75 ،78 ،80
مؤسسة منصّري إفريقيا،63 ،65 ،68 ،70 ،73 ،76 ،78 ،82 ،103
النصرانية،50 ،51 ،52 ،54 ،55 ،56 ،57 ،58 ،64 ،65 ،68
اليهودية،52 ،53 ،54

2_ فهرس الأعلام

إبراهيم أبو اليقظان ،123
إبراهيم بن بنوح مطياز،124
إبراهيم بهون ،36
ابن الحجري ،120
أبو إسحاق إبراهيم ،123
أبو عبد الله محمد الفرسطائي ،106
أحمد التواتي ،129
أحمد باي ،27
أحمد بن أحمد ،37
إخنوخن ،23 ،27 ،28
إسحاق بن داوود ،93

اطفيش القطب ،106 ،109 ،110 ،111 ،113 ،118 ،119 ،120 ،121 ،122 ،123 ،124 ،125
امحمد، انظر أيضا اطفيش ،34 ،40 ،106 ،109 ،111 ،118 ،120 ،125
آمود الشيخ ،46
أهتاغل،46 ،23
أوغسطين ،91 ،101
أوليفيي ،81 ،91 ،93
بابكر بن الحاج مسعود،123
باعبد الرحمن الكرثي ،108
بافي ،61 ،62
براكس ،18
برنابا ،54
بطرس ،54
بليسيي ،16 ،29 ،31
بواتو ،48
بوان كاري ،110
بوبراتر ،29
بوبكر بن قاسم ،35
بوبلارد ،85
بورصوف (بير) ،20 ،30
بوشاند ،20
بوشوشة ،108
بوضربة ،27 ،43 ،129
بوعمامة ،29 ،43
بولس ،50 ،53 ،54 ،55
بولميي ،20 ،82 ،83 ،91 ،92
بوليو ،14
بونمان ،43
بويان ،22

بوينيي ،48
بيار ميلي ،132
بيار هنري ،55
بيجو (الجنرال) ،15
بيقا ،97 ،98
بيليسيي (الجنرال) ،61
بيوس التاسع (البابا) ،62 ،66
ترمان الحاكم العام ،20 ،30 ،40 ،41 ،42
جان بابتيس ،102
جان ميليا ،111
جوبارت ،20
جول فيري ،87 ،64
جوليفي ،29
جيرارد ،61 ،62 ،67
حمو بن باحمد بكلي ،108
دورنو ديبيري ،20
دولينين ،29
ديبورتر ،115
ديبونشال ،22 ،13
دييش ،57 ،60 ،61 ،77
ديدي ،39 ،94 ،96 ،103 ،105
ديسفو ،34
ديفري،129 ،131 ،13 ،27
ديقري،68
دينو،132
راندون الحاكم العام ،15 ،16 ،17 ،18 ،20 ،27 ،30 ،33 ،34
الرسول صلى الله عليه وسلم ،104
روبان ،35 ،36 ،40
روشر،81
رولاند ،78

رولف ،19
ريتشارد ،83 ،84
زويمر،57
ساش،77
سباتيي،26
سعيد بن تعاريت الجربي،123
سليمان باشا الباروني،123
سونيس،79
سويتز،96
سي حمزة،16 ،27
سي سليمان،29
سي عبد الله،92
شارمتان،92 ،93 ،78 ،82
شونيفاس،95 ،100
الشيخ عثمان،27 ،28
شيدو،13
صالح بن عمر لعلي،123
صالح بن كاس،108
صالح بن يحيى،123
صوليي،20 ،43
عبد القادر،15 ،25 ،27 ،31
عمر بن حمو،123 ،124
عمر بن عيس الحاج امحمد ،111
عمر بن يحيى ورّرو،124
عيسى عليه السلام ،50 ،51 ،52 ،53
غالييني،47
غرول،23
غيليت،84
فريسيني،22
فلاترس،23 ،24 ،38 ،44 ،129 ،130 ،132

فورو،24 ،44
فوكو شارل دو،46 ،128 ،130 ،131 ،133 ،134 ،135
فيفيبي،131
قامبيتا،64
القديس سيبريا،68
القديس لويس،63 ،82
القديسة آن،64 ،69
القديسة مونيكا،68
قوتيتي،132 ،46
قودرار،78
قودرون،87
كاريت،32
كاسي بن زرويل،36 ،35
كامبون،87
كرمابون،82 ،84 ،85 ،91 ،93
كولومب،29
كوين،23
لابرين،131 ،132 ،46
لابيش،22
لاتور،39
لارجو،20 ،43
لاغي،26
لافيجري،57 ،62 ،63 ،64 ،65 ،66 ،67 ،68 ،73 ،75 ،78 ،79 ،81 ،82 ،83 ،85 ،86 ،87 ،91 ،97 ،62 ،67 ،68 ،
77،78 ،101 ،130 ،131
لافيريار،45
لالموند،20 ،15
لامي،24 ،45 ،97
لويس القرطاجي ،69
لويس رين،126
ليو البابا ،55

مارتنبيري،29
مارقريت،79
ماري،97 ،99
ماسكوري،43 ،119 ،121
ماسوتيي،39
مالفرايت،91 ،93 ،103 ،115
مانكريت،36
ماهون،21 ،29 ،30
متلانسكي،128
محمد السعيد،102
محمد بن عيسى،123
محمد كاوصن،128
مرقريت،34 ،36 ،37
مرقس،54
مريل،21 ،45
مسانتيي،94
مسعود،98
المسيح عليه السلام ،50 ،51 ،52 ،53 ،55 ،58 ،66 ،68
مشرال،97
مورا،85
موسى أق أمستان،132 ،52 ،46
مولاي حمودة،92
مي،30
ميلانو،54
مينوري،20 ،97
ناصر بن إبراهيم الداغور،124
نيرون،54
هوفلان،131
هيقيس لورو،116
وديمون،78

ويمبفن،29

يسوع،51

يوسف،16 ،29 ،31 ،34 ،38 ،40

3_فهرس الأماكن

الأبيار،68

أريغ،106

إسبانيا،45 ،25

اسطوالي،101

آسيا،55

إغرغر،13

الأغواط،16 ،18 ،19 ،25 ،27 ،29 ،31 ،32 ،33 ،34 ،36 ،40 ،41 ،43 ،79 ،91 ،99 ،110 ،131

إغيل علي،102

ألمانيا،25 ،45 ،47

انجلترا،14 ،45

الأندلس،56

أنطاكية،54

إنفل (حاسي) ،20 ،21 ،30 ،44 ،82

أوروبا،14 ،25 ،54 ،55 ،56 ،60 ،80

أوقروت،37

الآير،13 ،24 ،46 ،48

إيش،26

إيطاليا،45

باب الراعي،101

بابه صالح،101

باريس،64 ،83

البحر الأبيض المتوسط،52 ،56

البرانس (جبال) ،55

بريان،34 ،35 ،40

بسكرة،25 ،27 ،82 ،86

بلحيران (حاسي) ،30
بنورة،34 ،100 ،123
بني عباس،131
بني يسجن،34 ،38 ،40 ،100 ،102 ،121 ،123 ،124
بورزق(جنان) ،20 ،29
بوسعادة،39
بوغار،32
بيت المقدس،131 ،53 ،69
بِيدًّا،15
بير غرامه،24
تادميت،45
تدكلت،19 ،21 ،45 ،98 ،127 ،129
التشاد،14 ،30 ،47
تضفت،94 ،96 ،99
تعظميت،110
تقرت،27 ،29 ،30 ،43 ،82 ،131
التل،17 ،18 ،22 ،24 ،25 ،26 ،29 ،32 ،33
تَّماسين،84
تمنغاست،46 ،47 ،128 ،132
تنبكتو،23 ،44 ،46 ،47 ،48 ،82 ،86 ،128 ،130
توات،14 ،19 ،20 ،23 ،25 ،26 ،27 ،32 ،37 ،45 ،46 ،87 ،98 ،127 ،129
توات
تونس،14 ،18 ،34 ،63 ،69 ،79
تيارت،18
تين يسلي،106
جانت،47 ،128
جربة،106 ،123
الجزائر،14 ،15 ،16 ،17 ،19 ،22 ،23 ،25 ،32 ،33 ،34 ،35 ،38 ،40 ،42 ،43 ،44 ،45 ،49 ،50 ،57 ،60 ،61 ،
62،63 ،65 ،67 ،68 ،69 ،74 ،77 ،78 ،79 ،81 ،82 ،85 ،93 ،94 ،95 ،96 ،99 ،101 ،107 ،108 ،109 ،114 ،
119،121 ،122 ،123 ،126 ،127 ،128 ،129 ،131 ،133

جغبوب،126
الجلفة،16 ،25 ،31 ،32 ،37
جيري فيل (البيض) ،18 ،20 ،27
روان،64
روما،54 ،55 ،62 ،65 ،80 ،131
الزعاطشة،27
الساورة،98
ستراسبورغ،130
سعيدة،18
سكيكدة،61
السنغال،14 ،19 ،47 ،48 ،64 ،86
السودان،13 ،14 ،17 ،18 ،21 ،23 ،24 ،27 ،28 ،32 ،43 ،44 ،46 ،47 ،48 ،64 ،81 ،82 ،83 ،84 ،86 ،87 ،91 ،
95،96 ،97 ،108 ،127 ،128 ،130
سوريا،54 ،131
الصحراء،90 ،91 ،92 ،93 ،94 ،96 ،97 ،98 ،101 ،108 ،126 ،127 ،128 ،129 ،130 ،131 ،133 ،135 ،63
طرابلس،85
ظّايا،99
العطّاف،97
عين الصفراء،20 ،29
عين الصفراء،26
عين الصفراء،39
عين امقن،47 ،128
عين صالح،19 ،20 ،24 ،25 ،26 ،30 ،32 ،41 ،43 ،45 ،46 ،132
عين غار،45
غات،20 ،28 ،43 ،127 ،129 ،130
غدامس،19 ،20 ،27 ،28 ،32 ،43 ،46 ،83 ،84 ،85 ،86 ،91 ،92 ،93 ،130
غرداية،34 ،35 ،37 ،39 ،40 ،42 ،74 ،76 ،90 ،91 ،93 ،94 ،96 ،99 ،100 ،102 ،105 ،106 ،108 ،112 ،113 ،
118،121 ،109 ،123 ،131 ،136 ،
فرنسا،14 ،15 ،17 ،18 ،19 ،20 ،22 ،25 ،26 ،27 ،28 ،29 ،30 ،31 ،32 ،33 ،34 ،35 ،36 ،37 ،38 ،40 ،41 ،
43،44 ،45 ،46 ،47 ،48 ،60 ،62 ،63 ،64 ،65 ،69 ،78 ،84 ،104 ،127

فزان،127 ،129

فِقيق،26 ،30

فلسطين،51 ،54 ،79

قابس،131

القرارة،27 ،34 ،35 ،36 ،41 ،91 ،106 ،110 ،124

قرطاج،69 ،63

قسنطينة،18 ،27 ،32 ،61 ،62 ،77

قسنطينة

قورارة،19 ،26 ،30 ،32 ،98

قورو،127

القولية،20 ،26 ،27 ،29 ،30 ،37 ،43 ،44 ،45 ،96 ،97 ،98 ،130

القولية،41 ،86 ،131

الكامرون،47

الكفرة،126 ،129

كورسيكا،36

الكونغو،47

كيدال،128

مالي،127 ،128 ،129

متليلي

متليلي،41 ،82 ،83 ،86 ،91 ،93 ،92 ،100 ،121 ،130

المدية،18 ،32 ،39

مرسيليا،64

مزاب،12 ،13 ،16 ،20 ،30 ،31 ،32 ،33 ،34 ،35 ،36 ،37 ،38 ،39 ،40 ،41 ،42 ،43 ،44 ،76 ،79 ،86 ،89 ،
90،91 ،92 ،93 ،94 ،95 ،96 ،97 ،98 ،99 ،100 ،101 ،102 ،103 ،104 ،105 ،106 ،107 ،108 ،109 ،110 ،
111،112 ،113 ،114 ،115 ،119 ،121 ،122 ،123 ،124

معسكر،18

مغرار،26

المغرب،19 ،25 ،26 ،29 ،34

مغنية،25

مكة،127

مليكة،34 ،42

منغوغ،23

ناجّر،20 ،23 ،24 ،27 ،28 ،29 ،44 ،83 ،84 ،85

الناصرة،131

نفوسة،106 ،123

نوبي،15

النيجر،14 ،15 ،23 ،24 ،29 ،30 ،47 ،48 ،128

الهضاب،18 ،25 ،26

الهقار،12 ،13 ،14 ،23 ،24 ،43 ،44 ،45 ،89 ،90 ،127

الواد،18

تيوت،26

ورقلة، 16 2 ،20 ،23 ،24 ،25 ،27 ،28 ،29 ،30 ،31 ،34 ،37 ،41 ،42 ،43 ،82 ،84 ،86 ،91 ،96 ،98 ،108 ،
131،129

مصر،54

وهران،62

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير.....

Erreur ! Signet non défini.

الاهداء..... 4

قائمة المختصرات.....5

مقدمة.....6

الفصل الأول: توغل الاستعمار الفرنسي نحو صحراء مزاب والهقا ر 14

المبحث الأول : الاستعمار الأوروبي في الصحراء 15

1_ الاستعمار الفرنسي في مواجهة الصحراء 15

2_ أسباب التوغل الفرنسي نحو الصحراء .....**Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الثاني : سياسة التوغل الفرنسية في الصحراء **Erreur !**

Signet non défini.

1_ فكرة القاطرة العابرة للصحراء .....**Erreur ! Signet non défini.**

2_ معاهدة لاله مغنية واحتلال الواحات الشمالية ...**Erreur ! Signet non défini.**

3_ معاهدة غدامس 1862 واحتلال الواحات الجنوبية**Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الثالث : الاحتلال الفرنسي ومنطقة مزاب **Erreur ! Signet**

non défini.

1_ ظروف توقيع المعاهدة الفرنسية مع مزاب 1853 **Erreur ! Signet non défini.**

2_ العلاقة بين فرنسا ومزاب في ظل المعاهدة..... **Erreur ! Signet non défini.**

3_ الإلحاق العسكري لمزاب 1882 ..... **Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الرابع : التوغل نحو الهقار واحتلاله **Erreur ! Signet non défini.**

3_ الخطوط الكبرى للتوغل نحو أقصى الصحراء . . **Erreur ! Signet non défini.**

2_ الاستعمار يستكمل احتلاله للجزائر ..... **Erreur ! Signet non défini.**

3_ التطورات في غرب إفريقيا مع نهاية القرن 19 **Erreur ! Signet non défini.**

الفصل الثاني: التنصير في الجزائر وتوغله نحو الصحراء **Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الأول: تطور الحركة التنصيرية في الكنيسة الكاثوليكية 53

1_ مفهوم التبشير والتنصير 53

2_ مراحل تطور الحركة التنصيرية 55

3_ التنصير وعلاقته بالاستعمار الحديث.....60

المبحث الثاني : الحركة التنصيرية بالجزائر في القرن 19 63

1_ النشاط التنصيري بالجزائر بين (1830-1892) 63

1_1_ الفترة الأولى (1830-1867) 63

1_2_ الفترة الثانية (1866-1892) 65

2_ مؤسسة منصّري إفريقيا.....68

2_1_ ميلاد جمعية منصّري إفريقيا.....68

2_2_ الصفة التنظيمية لمؤسسة الآباء البيض:.....74

المبحث الثالث: التنصير في الصحراء 80

1_ التعهد بالنيابة الرسولية للصحراء للافيجري 80

2_ التثبيت النهائي للمهمة التنصيرية بالصحراء 85

الفصل الثالث : المحاولات التنصيرية الأولى في مزاب والهقار 92

المبحث الأول : مهمة مزاب 93

1_ إنشاء محطة مزاب.....93

2_ تطور محطة مزاب ..... **Erreur ! Signet non défini.**

3_ نشاط محطة مزاب من 1892 إلى 1916..... **Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الثاني : المجتمع في مزاب والمنصّرون 108

1_ دور العزابة في مزاب.....108

2_ تعامل المزابيين مع المنصّرين.....114

3_ الشيخ أطفيَّش في مواجهة الاستعمار والتنصير.. **Erreur ! Signet non défini.**

المبحث الثالث : التنصير والسياسة الفرنسية في أقصى الصحراء 128

1_ مقاومة الحركة السنوسية في الصحراء الكبرى.....128

2_ المنصر دوفوكو في الهقار 133

خاتمة.....139

الملاحق 144

قائمة المصادر والمراجع..... 173

الفهارس العامة 178

فهرس الموضوعات 186